الرياح وأشجار الصفصاف

كينيث جراهام

الرياح وأشجار الصفصاف

تأليف
كينيث جرام

ترجمة
أسامة إسماعيل عبد العليم

مراجعة
مصطفى محمد فؤاد

هنـــداوي

الرياح وأشجار الصفصاف

The Wind in the Willows

كينيث جرام

Kenneth Grahame

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٨ ٢٠٠٤ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٠٨
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠

جميع الحقوق الخاصة بترجمة وتصميم هذا الكتاب وصورة الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف-غير تجاري-منع الاشتقاق، الإصدار ٤,٠. جميع الحقوق الخاصة بالعمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

Copyright © 2020 Hindawi Foundation.
All rights related to translation, design, and cover artwork of this work are licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License. All rights related to the original work are in the public domain.
https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/
The Wind in the Willows/Kenneth Grahame; this work is in the public domain.

المحتويات

١- ضفة النهر	٧
٢- الطريق السريع	١٩
٣- البراري	٣١
٤- السيد غُرير	٤٣
٥- ما أحلى البيت!	٥٧
٦- السيد عُلجوم	٧٣
٧- زمار مطلع الفجر	٨٥
٨- مغامرات العُلجوم	٩٧
٩- كلنا عابرو سبيل	١١١
١٠- مزيد من مغامرات العُلجوم	١٢٧
١١- فانهمرت دموعه بقوة كعاصفة صيفية عاتية	١٤٣
١٢- عودة يوليسيس	١٥٩

الفصل الأول

ضفة النهر

ظلَّ الخُلد يعمل طيلة الصباح بجدٍّ واجتهاد ليُنظِّف بيته الصغير بعناية احتفالًا بقُدوم الربيع. بدأ بالمِقَشَّة، ثم بمِنْفضة الغبار؛ ثم نظَّف السلالم والدرَج والكراسي بالفرشاة ودَلوٍ من محلول التبييض حتى امتلأ حلقُه بالتراب ودخل في عينيه أيضًا، ولطَّخت بُقَع محلول التبييض فراءه الأسود، وأُجهدت ذراعاه وأحسَّ بألمٍ في ظهره. كانت تباشير الربيع تَسري في الهواء فوقه وفي الأرض تحته وفي كل مكانٍ حوله، حتى إنها تسلَّلت إلى بيته الصغير البسيط والمُظلِم الذي ساد الاستياء والطموح في أرجائه. ولم يكن من الغريب أنه، فجأةً ودون سابق إنذار، طرح فرشاته أرضًا وقال: «كفى! لقد فاض الكيل وضقتُ ذرعًا بتنظيف الربيع هذا!» ثم ترك مُسرعًا البيت دون أن يتمهَّل ليَرتدي معطفه. كان هناك شيء ما بالأعلى يلحُّ عليه بالنداء، فاتجه إلى النفق الصغير والمُنحدر الذي يقوده إلى الطريق المفروش بالحصى؛ حيث تسكن الحيوانات التي تعيش في الهواء الطلق وتحت أشعة الشمس. أخذ يَحفر ويفرك ثم يزحف ويدفع نفسه إلى الأمام؛ ثم يحفر ويفرك مجددًا بهمة ونشاط ثم يزحف ويدفع نفسه إلى الأمام بكفَّيه الصغيرتين وهو يُتمتِم لنفسه قائلًا: «هيا، اصعد عاليًا! هيا اصعد عاليًا.» حتى وصل أخيرًا. خشخَشَ الحصى على السطح ثم برز أنفه ليُلامس أشعة الشمس. صعد وأخذ يتمرَّغ بين العشب الدافئ للمرج الفسيح.

قال لنفسه: «هذا رائع! هذا أفضل بكثير من التنظيف بمحلول التبْييض!» أحسَّ بدفء الشمس يلفَح فراءه، ونسمات الهواء الرقيقة تداعب جبهته الملتهبة من الحفر؛ وبعد عزلةٍ طويلةٍ عاشها في جحره، اخترقَت زقزقة الطيور السعيدة أذنَيه الكليلتين كالصراخ. كان يقفز على قوائمه الأربع مرة واحدة شاعرًا بمُتعة الحياة وسط نضرة الربيع وبهجتِه دون أن يُنظِّف شيئًا. ظلَّ يسير في طريقه على ذلك المرج حتى وصَل إلى السياج على الجانب الآخر.

قال له أرنب عجوز عند فتحة السياج: «قف مكانك! عليك بدفع ستة بنسات لتحصُل على حق المرور عبر الطريق الخاص!» ارتسمَت فورًا علامات الذهول والاندهاش على وجهه من هذا الخُلد الوَقِح العَجول الذي شقَّ طريقه بعنف عبر السياج وهو يُزعج بصراخه بقية الأرانب الذين خرجوا من جحورهم مسرعين ليروا ما كل هذه الجلبة. كان يصرخ قائلًا: «صوص بصل! صوص بصل!» ثم اختفى قبل أن يُفكر الأرانب كيف يردون عليه ردًّا مناسبًا وأخذوا يتذمَّرون بعضهم من بعض.

«يا لك من غبي! لماذا لم تُخبره؟»؛ «لماذا لم تخبره أنت إذن؟»؛ «كان بإمكانك أن تُذكِّره ...» وهكذا استمروا في التناحُر كعادتهم. وبلا شك، كان الأوان قد فات كما هو الحال دائمًا.

كان كل شيء حوله خلابًا حتى إنه لم يُصدِّق عينيه. كان يتنزَّه بهمة ونشاط عبر المروج؛ من مرج إلى آخر ومن هذا الجانب إلى ذاك، مارًّا بالسياجات وعابرًا الأجمات والشجيرات؛ كان يرى في كل مكان حوله الطيورَ تبني أعشاشها، والزهور تتفتَّح براعمها، وأوراق الأشجار تتمايل؛ كان الجميع سعداء ومُنهمِكين في أعمالهم وكل شيء على ما يُرام. وبدلًا من أن يشعر بوخز الضمير وهو يهمس له: «ماذا عن تنظيف البيت بمحلول التبييض؟» كان بطريقةٍ ما يشعر بالبهجة والسرور؛ لأنه هو الفرد الوحيد الذي يتلكَّأ بلا عملٍ وسط كل هؤلاء الكائنات النشيطة. فربما أفضل ما في العطلة ليس هو الراحة في حدِّ ذاتها، بل أن ترى رفاقك من حولك مُنهمِكين في العمل وأنت بلا عمل.

ظنَّ وهو يتسكَّع هائمًا بلا هدف أن سعادته قد اكتملت، حتى وصل إلى ضفة نهر فياض. لم يرَ في حياته نهرًا قط، فأخذ هذا الحيوان الأملس المُتلوِّي النشيط يُطارد الأشياء وهو يزقزق فرحًا، ثم يُمسكها وهو يُبقبِق في الماء ثم يتركها وهو يَضحك. ترك نفسه يَنغمِس في الاستمتاع مع أصدقائه الجدد الذين كانوا يُفلتون من قبضته ثم يعود فيُمسكهم مرةً أخرى. كل شيء كان يتلوَّى ويَرتعِش؛ يُضيء ويلمع ويتلألأ؛ يلفُّ ويدور؛ بقبقة وزقزقة. وكان الخُلد فرحًا ومبتهجًا؛ مفتونًا ومسحورًا. وعلى جانب ضفة النهر أخذ يتجوَّل سعيدًا كالصغار، كأنه إلى جوار رجل يُحدِّق فيه مشدوهًا ويستمع إلى ما يقصُّه عليه من أفضل القصص وأكثرها تشويقًا. وعندما تعب في النهاية، جلس على الضِّفَّة بينما كان النهر ما يزال يُبقبِق له بقبقة تحكي أجمل ما في هذا العالم من قصص أُرسلَت من قلب الأرض لتُسرَد على ضفاف هذا النهر المتعطش.

وبينما هو جالس على العشب ينظر إلى عرض النهر، رأى جُحرًا مُعتِمًا على الضفة المقابلة، فتلألأت عيناه. كان الجحر فوق منسوب مياه النهر مباشرة، فأطلَق لخياله العِنان

ليحلم كم هو جميل ودافئ هذا الجحر، وكم يَصلُح للسُّكنى من حيوان زاهد ذي رغبات معدودة يصبو إلى بيت صغير وأنيق على ضِفَّة النهر؛ بيت مُرتفِع فلا تصل إليه سيول الفيضانات العاتية، وبعيد فلا تزعجه الضوضاء أو يتراكم فيه الغبار. وبينما هو ما يزال مُحدقًا في الجحر، إذ بشيء صغير ولامع يُومِض في وسطه ثم يَختفي، ثم تلألأ مرةً أخرى كنجمة صغيرة. لا يُمكن أن يكون نجمًا بالطبع في مثل هذا المكان، كما أن هذا الشيء صغير جدًّا وذو بريق وهَّاج ليكون حبحابًا أو حشرة سراج الليل. ثم وهو ما زال محدقًا؛ إذ بهذا الشيء يُومِض له. إذن فهذا الشيء هو عين حيوانٍ ما! ثم ما لبث حتى بدأ وجه صغير بالظهور شيئًا فشيئًا حول تلك العين، تمامًا كإطار حول لوحة مرسومة.

وجه بُني صغير ذو شوارب.

وجه جادٌّ مُستدير، وفي إحدى عينيه نفس الوميض الذي جذب انتباهه في المرة الأولى.

وأذنان صغيرتان متناسقتان، وشعر حريري أثيث.

كان «فأرَ الماء»!

وقف الحيوانان وظل كلٌّ منهما يُحدِّق إلى الآخر في حذر.

قال فأر الماء مُحيِّيًا: «مرحبًا بك أيها الخُلد!»

رد عليه الخُلد التحية وقال: «أهلًا بك أيها الفأر!»

سأله الفأر داعيًا له: «أتودُّ أن تأتي وتزور بيتي؟»

رد الخُلد بحدَّة: «لا عليك! يكفي أننا نتحدَّث.» فهو ما زال جديدًا على النهر ونمطِ الحياة على ضفافه.

لم ينبس الفأر ببنْت شفة، ولكن توقَّفَ وفكَّ حبلًا ما وأخذ يَسحبه، ثم خطا على قارب صغير لم يلحظْه الخُلد. كان مطليًّا بالأزرق من الخارج، أما من الداخل فقد كان أبيض اللون. كان يتسع لحيوانين فقط؛ وعلى الفور أُعجب به الخُلد وتعلَّق به قلبه، مع أنه لم يكن يدري بعدُ فيمَ يُستخدم هذا الشيء.

جدَّف الفأر بمهارة ورشاقة بعرض النهر، ثم مدَّ كفه الأمامية إلى الخُلد الذي خطا بحذرٍ إلى الأسفل باتجاه النهر. قال الفأر: «اتكئ على هذا!» ثم قال: «والآن، تقدَّم إلى الأمام!» وفوجئ الخُلد بنفسه جالسًا في مؤخرة قارب حقيقي، وكان في بهجة عارمة.

دفع الفأر القارب بعيدًا عن الشاطئ، وبينما هو يتناول المجدافين قال الخُلد: «هذا يوم من أفضل الأيام! أتعرف أنني لم أركب قاربًا في حياتي قط؟»

قال الفأر متعجبًا فاغرًا فاه: «حقًّا؟ ألم تركب يومًا ... قط! حسنًا، ماذا كنت تفعل في حياتك إذن؟»

سأله الخُلد في خجل: «هل ركوب القوارب مُمتعٌ جدًّا كبقية الأشياء هنا؟» مع أنه كان متهيِّئًا ليَستشعِرَ تلك المتعة عندما اتَّكأ على مقعده، وتفحَّص الوثار والمجدافين ومحبسيهما وكل ما على القارب من تجهيزات جذابة، وأحسَّ بالقارب من تحته يتمايل بخفة.

رد عليه فأر الماء بجديةٍ وهو يميل إلى الأمام ليضرب صفحة الماء بمجدافَيه وقال: «مُمتع؟ إنه الشيء الوحيد المُمتِع! صدِّقني يا صديقي الصغير، لا يوجد شيءٌ على الإطلاق يُعادل ولو نصف ما ستَحظى به من متعةٍ عندما تتنزَّه وتقضي وقتك في أحد القوارب.» ثم أضاف على نحو حالم: «تقضي ... وقتك ... في ... أحد ... القوارب؛ تقضي ...»

صرخ الخُلد محذرًا: «انظر أمامك أيها الفأر!»

كان الأوان قد فات؛ اصطدم القارب بجانب الضفة بكامل قوَّته، وهوى المجدِّفُ الحالم والمِرح واقعًا على ظهره في قعر القارب وقدَماه معلقتان في الهواء.

أكمل ما كان يقوله برباطة جأش، وقد عدل من وضع جسمه وارتسمَت على وجهه ضحكة جميلة: «... وقتك في أحد القوارب، أو تعبث وأنت تقود واحدًا.» ثم قال: «في القارب أو خارجه، لا يهمُّ! لا شيء يهمُّ مطلقًا، وهنا يَكمن سحر الأمر وجاذبيته. سواء أذهبتَ بالقارب بعيدًا أم لا؛ سواء أوصلت إلى وجهتِكَ أم وصلتَ إلى مكان آخر أم لم تَصِل إلى أي مكان إطلاقًا؛ فأنت دائمًا مشغول، وفي الوقت ذاته، أنت لا تفعل شيئًا بعينه. وإذا وجدت شيئًا بعينه لِتَفعله وانتهَيت منه، فستجد حتمًا شيئًا آخر بانتظارك إذا أردت، ولكن لا أنصحُك بهذا. ما رأيك إذن، إن كنت متعطِّلًا هذا الصباح وليس لديك أي مُهامَّ تؤدِّيها، أن نذهب معًا في رحلة عبر النهر ونحظى بوقتٍ رائع؟»

هز الخُلد أصابعَه من فرط السعادة، وانشرح صدره، وأخَذ نفسًا عميقًا مُلئ رضًا وسكينة، ومال بجسده إلى الخلف في غبطة ليَحتضنه الوثار الناعم وقال: «يا له من يوم بهيج! لنَنطلقْ في الحال!»

قال الفأر: «تمسَّك جيدًا للحظات، إذن!» لف حبل القارب على وتدٍ في المكان الذي يرسو القارب فيه، وصعد إلى جُحره بالأعلى، وبعد برهةٍ ظهر مرةً أخرى يَمشي مُتثاقلًا وهو يحمل سلة غداء مصنوعة من الخوص زاخرة بالطعام.

أشار إلى الخُلد وهو يضع السلة في القارب: «ضع هذه بين قدميك.» ثم فك الحبل وتناول المجدافين مرةً أخرى.

سأل الخُلد وعيناه تلمعان في فضول: «ما الذي بداخلها؟»

رد الفأر عليه في اقتضاب وقال: «بها لحم دجاج بارد.» ثم أكمل قائلًا في نفَس واحد: «لسان حيواني بارد، ولحم خنزير بارد، ولحمٌ بقري بارد، وسلطة خيار مخلل، وخبز فرنسي ... وشطائر بيض ورشاد، ولحمٌ معلَّب، وجِعَة زنجبيل وعصير ليمون ومياه غازيَّة ...»

قال الخُلد وقد غمرتْه السعادة: «كفى! كفى! هذا كثير جدًّا!»

رد الفأر متسائلًا بجدية: «أتظنُّ ذلك حقًّا؟ فهذا هو ما أحمله عادة من مئونة لتلك النزهات القصيرة، وتُخبرني الحيوانات دائمًا أنني حيوان شحيح ولا أُحضِّر للنزهة تحضيرًا كافيًا.»

لم يعِ الخُلد كلمةً واحدة مما كان الفأر يقوله. وبينما كان ذهنه مُنصرفًا إلى تلك الحياة الجديدة التي طرَق بابها للتوِّ وفُتح له، وهائمًا ثملًا بذلك البريق وبأشعة الشمس، وخرير الماء والروائح والأصوات من حوله، وضع إحدى كفَّيْه في الماء وراقبها وهي تَخترق صفحات المياه وانغمس في أحلام يقَظة طويلة. أما فأر الماء على ما كان فيه من شيم الأصدقاء الصالحين الأوفياء، فقد استمر في التجديف ولم يُزعج صديقه.

علَّق الفأر بعد أن مضت نصف ساعة تقريبًا: «تُعجبني ثيابك كثيرًا أيها الشاب. سوف أشتري لي حُلَّةً سوداء أنيقة من القطيفة يومًا ما عندما أملك المال الكافي.»

قال الخُلد وهو يتمالك نفسه بجهد مُلاحَظ: «أستميحُك عذرًا! لا بدَّ وأنك قد ظننت بي أني وقح وغير مهذَّب؛ ولكني جديدُ عهدٍ بكلِّ ما حولي من هذه الأشياء. إذن ... هذا ... ما يُسمى ... نهرًا!»

صحَّح الفأر جملته وقال: «يُسمَّى النهر!»

«وأنتَ تعيش على ضفة النهر إذن؟ يا لها من حياة رغدة بهيجة!»

ردَّ الفأر: «أعيش بجواره ومعه وعليه وفيه! فهو لي كالأخ والأخت والخالة والصديق، ومنه آكُل وأرتوي، وهو (بطبيعة الحال) مَسبَحي! هو عالَمي فلا أبغي له بدلًا؛ ما ليس فيه من أشياء لا قيمة في امتلاكها؛ وما لا يعرفه من أخبار لا فائدة من تحصيلها. يا ألله! أتذكَّر دائمًا أوقاتي معه؛ سواء أكانت في الشتاء أم في الصيف، في الربيع أم في الخريف، كان لكلِّ وقتٍ متعتُه وإثارته. أتذكَّر عندما تحدث الفيضانات في شهر فبراير، وتغمر قبوي وسردابي المياه التي لا جدوى منها بالنسبة إليَّ، وتمر المياه البُنية بجانب نافذتي المفضَّلة في غرفة النوم؛ أو عندما تَنحسِر المياه تدريجيًّا وتترك بقعًا من الطين رائحتها كرائحة كعكة

الخوخ؛ وتسد الحشائش والقش مجرى القنوات، وحينها أتجوَّل دون أن تبتلَّ أقدامي في معظم أنحاء قاع النهر لأجد طعامًا طازجًا وأشياء أوقعَها الناس المُهمِلون من قواربهم.»

تجرَّأ الخُلد وسأله: «ولكن ألَا تجد هذا مملًّا أحيانًا؟ أنت والنهر فقط دون أن يوجد أحدٌ لتُحادِثَه؟»

«لا يوجد أحد لأُحادثه ... حسنًا! لن أقسو عليك.» رد عليه الفأر بحِلم ورِفق، وأضاف: «أنت جديد على هذه المنطقة، وبالتأكيد لا تعرف. هذه الضفة مكتظَّة بالسكان في هذه الأيام اكتظاظًا دفَع الكثير منهم لأن يَنتقِلوا إلى مكان آخر كليًّا. وا أسفاه! الضفة التي تراها الآن لا تُشبه أبدًا ما كانت عليه في الماضي. إن ثعالب الماء وطيور الرفراف وطيور الغطاس الصغيرة ودجاجات الماء يسعون جميعًا طوال الوقت في الأنحاء، ودائمًا يطلبون منك أن تُسديَ إليهم صنيعًا؛ كما لو أني ليس لديَّ ما أهتمُّ به من شئون خاصة.»

سأل الخُلد وهو يُشير بكفِّه باتجاه غابة بعيدة أحاطتْ بظلالها المروج المائية لإحدى ضفَّتَي النهر: «ما الذي يُوجد هناك؟»

رد الفأر باقتضاب: «هناك؟ تلك هي البراري. ونحن لا نتردَّد عليها كثيرًا؛ فنحن حيوانات تسكن ضفاف الأنهار.»

قال الخُلد ببعض الاضطراب: «أليس ... أليس سكان تلك البراري لُطَفاء جدًّا؟»

رد الفأر: «حسنًا! دعْني أرى. السناجب لطيفة، وبعض الأرانب وليس جميعهم؛ فالأرانب جماعة مُختلِطة. ثم هناك، بالطبع، حيوان الغُرير الذي يعيش في وسط البراري. وهو لن يعيش في أي مكان آخر حتى ولو دفعوا له ليَفعل ذلك. يا لهذا الغُرير العجوز المسكين! لا أحد يتعامل «معه»!» ثمَّ أضاف مؤكدًا: «ويجب عليهم ألَّا يفعلوا ذلك.»

سأل الخُلد: «لماذا؟ مَن يُمكن أن يتعامَلَ معه إذن؟»

شرح له الفأر في تردُّد قائلًا: «بالتأكيد، هناك ... حيوانات أخرى!» ثم قال: «هناك حيوانات ابن عِرْس والقاقم والثعالب وغيرهم الكثير. جميعهم لطفاء نوعًا ما؛ فأنا شخصيًّا على علاقة طيبة بهم، فنحن نمضي اليوم معًا عندما نتقابَل، لكنهم يهربون أحيانًا ولا يوجد من يُنكر عليهم هذا الأمر؛ لذلك لا يُمكنك أن تَثق بهم، وهذه حقيقة معروفة.»

كان الخُلد يعرف جيدًا أنه ليس من آداب الحديث بين الحيوانات أن يخوض في الحديث عن مشكلة يتوقَّع حدوثها أو حتى يُشير إليها؛ لذلك كف عن الكلام في الموضوع.

وسأل سؤالًا آخر: «وماذا يَقبع خلف تلك البراري؟ حيث كل شيء أزرق وقاتم ويرى الواحد منَّا ما يُشبه التلال أو شيئًا دون ذلك، ويرى دخانًا كأنه دخان القرى، أم إنه سحابٌ مارٌّ في السماء؟»

ردَّ الفأر: «خلف تلك البراري يوجد العالَم الفسيح. وهذا شيءٌ وجوده لا يهمُّني أنا ولا أنت مُطلَقًا. لم أذهب إلى هناك قط، ولن أذهب أبدًا، وكذلك أنت إن كنت ذا عقل رشيد. رجاءً، لا تذكر ذلك المكان مرة أخرى. أما الآن، فها قد وصلنا أخيرًا إلى الماء الراكد حيث سنَتناول غداءنا.»

ابتعدا عن تيار النهر ليَجدا نفسَيهما داخل ما بدا للوهلة الأولى كبُحيرة صغيرة محاطة باليابسة من كل اتجاه. كانت الأرض المُعشَوشِبة تَنحدِر على كلا الجانبين، وجذور الأشجار البُنية والمتعرِّجة تبرق من تحت صفحة المياه الهادئة، بينما كان أمامها الكتف الفضِّي لأحد السدود المائية الصغيرة ذات الزَّبد الرابي، بالتوازي مع ساقية دوَّارة لا تكلُّ ولا تملُّ، والتي تَقبع وراءها طاحونة ذات سقف مسنَّم، يملأْنَ الهواء بصوت عذب لخرير ماء مريح وهادئ، ما زال يسمع معه أصوات حديث ضاحك تعلو بين الفينة والأخرى. كان المنظر بديعًا جدًّا حتى إن الخُلد لم يتمالك نفسه ورفع قائمَتَيه الأماميَّتين في الهواء وأخذ يقول لاهثًا في بهجة: «يا لَلجمال! يا للجمال! يا للجمال!»

دفع الفأر القارب ليَرسو على ضفة النهر وربطه، ثم ساعد الخُلد الأخرق الذي لم يعتدْ حياة النهر بعدُ على الهبوط منه بأمان، ثم أخرج سلة الغداء. توسَّل إليه الخُلد أن يُسديَ إليه معروفًا بأن يتركه يفرغ محتويات السلة كلها بنفسه، ولم يُعارض الفأر وتركه يُشبع رغبته، واستَلقى على العُشب ومدَّد جسده في استرخاء بينما كان صديقه المتحمِّس قد أخرج وبسط مفرش المائدة، ثم أخرج كل ما في السلة من أصناف مخبأة صنفًا صِنفًا، وأعدَّ محتوياتها في ترتيبٍ مناسب وهو ما يزال يقول لاهثًا: «يا لَلجمال! يا للجمال!» كلما أخرج صنفًا جديدًا. وعندما جهزت المائدة، قال الفأر: «والآن، مدَّ يديك والتهم ما طاب لك، يا صديقي!» وكان الخُلد سعيدًا بإطاعة أمرِه؛ فقد بدأ تنظيف الربيع مبكرًا جدًّا هذا الصباح، كما يفعل الجميع عادة، ولم يتوقَّف ليدخل جوفه أي لقمة أو يَروي حلقه برشفة من أي شيء، بل ومرَّ منذ ذلك بالعديد من المواقف والأحداث المُثيرة حتى إنه يبدو له الآن كما لو مرَّ عليه أيامٌ طوال.

عندما أوشكَ أثر الجوع أن يذهب عنهما وتَنكسِر شوكته، واستطاع الخُلد أن يصرف عينيه قليلًا لتتجوَّلا بعيدًا عن مفرش المائدة، سأله الفأر على الفور: «إلامَ تنظر؟»

رد الخُلد: «أنا أُراقب تلك الفقاقيع التي تطفو غادية على صفحة الماء؛ فهذا الأمر يبعث في نفسي السرور والبهجة.»

رد الفأر: «آها! فقاقيع؟» وأخذ يُزقزق في مرَحٍ وعلى نحو مُبهِج.

برز خطمٌ لامع عريض فوق حافة الضفة، ثم سحب ثعلب الماء نفسه ونفض المياه عن مِعطَفه.

ثم قال معلقًا وهو يتَّجه صوب الطعام: «يا لهؤلاء الشحاذين الجَشِعين! لماذا لم تَدعُني إلى مائدتِك، يا فأرون؟»

رد الفأر قائلًا: «كانت نزهة دون سابق إعداد أو تخطيط، ولكن دعْني أُعرِّفك على صديقي الخُلد.»

قال ثعلب الماء: «يسرُّني بالتأكيد لقاؤك!» وهكذا صار الحيوانان صديقَين من فورهما.

أكمل ثعلب الماء ما كان يتذمَّر منه وقال: «الضجة والفوضى في كل مكان! وكأن حيوانات العالم أجمع قد اتَّفقوا على التنزُّه اليوم على ضفتَي النهر، فجئت إلى هذه المياه الراكدة لأنعم ببعض الهدوء والسكينة، لكني وجدتُكما هنا أيضًا! أعتذر عن ذلك، لم أعنِ ذلك مطلقًا. أنتما بالطبع تفهمان قصدي.»

سمعوا وراءهم صوت خشخشة عند سياج شُجيرات والتي كانت ما تزال مكسوةً بأوراق السنة الماضية الكثيفة، وكانت هناك رأس مخططة على كتفين عاليتين تسترق النظر وتتلصَّص عليهم.

صاح الفأر: «تعالَ، أيها الغُرير العجوز!»

تقدم الغُرير نحوهم خطوة أو خطوتين ثم نخَر وقال: «ها! تجمُّع!» ثم ولاهم ظهره واختفَى عن الأنظار.

علَّق الفأر المُحبَط وقال: «هكذا هو دائمًا ذلك الغُرير! إنه ببساطة يكره المجتمع! ولن نراه مجددًا لبقية يومِنا هذا. والآن أخبرنا، من يتنزَّه على ضفتي النهر؟»

رد ثعلب الماء: «خُذ عندك. خرج العُلجوم ليتنزَّه في زورقه الجديد؛ لابسًا ثيابًا جديدة وكل شيء آخر كان جديدًا أيضًا!»

نظر الحيوانان أحدهما إلى الآخر ثم انخرَطا في الضحك.

قال الفأر: «بدأ الأمر بقارب شراعي، ثم ملَّ وضجر وانتقل إلى القارب المسطح. لا شيء كان يُسعدُه إلا دفْع ذلك القارب بالمجداف كل يوم طيلة النهار، وتلك الفوضى اللطيفة التي كان يُخلِّفها وراءه. أما السنة الفائتة فقد انشغل بالمنزل العائم واضطررنا جميعًا أن نذهب إليه ونمكُث معه في منزله العائم وأن نتظاهَر بأنه يروق لنا، حتى إنه كان يُخطط لأن يقضي ما تبقَّى من حياته فيه. ولكن أيما شيء شغف به، ما يلبث إلا أن يملَّ منه ويتركه لينشغل بشيء آخر جديد، هكذا هو حاله دائمًا.»

أشار ثعلب الماء وقال وهو مُمعن في التفكير: «لكنه عُلجوم صالح كذلك، يَعيبه عدم الثبات، خاصة في القارب.»

ومن موقعهم الذي كانوا جلوسًا فيه، كان يُمكنهم أن يلمحوا تيار النهر الرئيسي الذي كان يمرُّ بجوار الجزيرة التي كانوا عليها، حيث ظهر زورق فجأة وفيه حيوان قصير ذو جسم سمين، يُجدف تجديفًا سيئًا يُخضخِضُ مياه النهر من حوله، ويترنَّح يمنة ويسرة ترنُّحًا شديدًا، ولكنه يفعل ذلك باجتهادٍ وتفانٍ. وقف الفأر وهتف مُحيِّيًا ذلك الحيوان الذي تبيَّن أنه العُلجوم، ولكن العُلجوم رد عليه بأن حرك رأسه ثمَّ أكمل التجديف في همةٍ ونشاط.

قال الفأر وقد همَّ بالجلوس مرة أخرى: «سيَنقلِب الزورق به إذا استمر في الترنُّح هكذا لدقيقةٍ أخرى.»

ضحك ثعلب الماء ضحكةً خافتةً وقال: «هذا صحيح، سيَنقلِب بلا شك!» ثم أكمل: «هل أخبرتكم يومًا عن تلك القصة الشائقة عما دار بين العُلجوم وحارس هويس النهر؟ لقد حدث الأمر هكذا: كان العُلجوم ...»

انحرفت ذبابة نوار شاردة في تزعزع بعرض تيار النهر، وكانت تترنَّح كأنها قد ثملت من الدماء التي تضخُّ في عروق ذباب النوار اليافع الذي خرج لتوِّه إلى الحياة. أثارت حركتها عبابًا على سطح المياه. ثم هووووب! اختفت الذبابة عن الأنظار.

وبالمثل، اختفى ثعلب الماء هو الآخر.

نظر الخُلد لأسفل وطَنينُ الصوت ما زال في أذنيه، ولكن كانت الأرض التي بسط نفسه عليها خاويةً من أي أحد بجواره. ولم يرَ ثعلب الماء ولا حتى على الأفق البعيد.

ولكن كانت هناك مرة أخرى فقاقيع تُبقبِق على سطح مياه النهر.

همهم الفأر هُنيهة، وتذكر الخُلد آداب التعامل بين الحيوانات، وأنه لا يجوز مطلقًا التعليق على الاختفاء المُفاجئ للأصدقاء في أي لحظة، سواء أكان ذلك بسببٍ أم دون سبب.

قال الفأر: «حسنًا، حسنًا! أظن أنه يجب علينا أن نتجهَّز للرحيل. ولكني أتساءل؛ من منا يا تُرى سينال متعة لملمة وحزم سلة الغداء؟» لم يبدُ عليه الحماس ليحظى بتلك المُتعة وهو يتساءل.

صاح الخُلد: «رجاءً دعني أقوم بذلك.» وبالطبع تركه الفأر يفعل ذلك.

لم يكن حزم ولملمة سلة الغداء ممتعًا كما كانت متعة إفراغ محتوياتها. في الحقيقة، ليس في حزم السلة أي متعة مُطلقًا، ولكن الخُلد كان عازمًا على الاستمتاع بكل شيء، مع

أنه عندما أنهى جمع الحقيبة وأحكم رباطها، لمح طبقًا يَلمع على العشب؛ وعندما وضعه في الحقيبة وأنهى حزمها مجدَّدًا، لفت الفأر نظره إلى شوكة على الأرض ينبغي لأي كائن أن يُلاحظها، ثم كان قِدْر صلصة الخردل ما يزال هناك خارج السلة دون أن يَدريَ عنه شيئًا. وبطريقة أو بأخرى، انتهت أخيرًا لملمة محتويات السلة دون أن يفقد الكثير من هدوء الأعصاب.

كانت شمس ما بعد الظهيرة توشك على الزوال بينما كان الفأر يجدِّف بتمهُّل باتجاه المنزل في مزاجٍ حالم ويُتمتم ببعض أبيات الشعر ليُسلِّيَ نفسه ولا يُولي الخُلد الكثير من الاهتمام. كان الخُلد متخمًا بعد طعام الغداء ويشعر بالرضا التام وبالاعتزاز، وكان يشعر بالارتياح في ذلك القارب (هكذا ظن)، لكن بدأ يحسُّ ببعض الضجر، فقال للفأر: «فأرون، رجاءً «أريد» أن أجدف الآن!»

هز الفأر رأسه ورسم ابتسامة على فمه وقال: «ليس بعدُ، يا صديقي الصغير! انتظر حتى تتلقَّى بعض الدروس؛ فالأمر ليس هينًا كما يبدو.»

هدأ الخُلد لدقيقة أو اثنتين، ثم انتابه إحساسٌ مُتزايد بالغيرة من الفأر وهو يُجدِّف بقوة وبيسر في الوقت ذاته، ثم تعاظم كبرياؤه وأخذ يوسوس له بأنه يقدر على التجديف بمهارةٍ مثله. قفز من مكانه وقبض على المجدافين على حين غِرَّة من الفأر الذي كان يتأمل ثنايا صفحة المياه ويُدندن أبيات شعر حتى إنه فزعَ مما فعله الخُلد وسقط من مقعده إلى الخلف وقدماه مُعلَّقتان في الهواء للمرة الثانية، بينما استولى الخُلد المبتهج بهذا الانتصار على مقعده وجذب المجدافين بثِقَة عالية.

صرخ الفأر من مكانه في قعر القارب وقال: «توقَّف، أيها الأبله! لن تستطيع التجديف! سيَنقلِب القارب بنا!»

أرجع الخُلد المجدافين إلى الوراء في زهوٍ ورشاقة ثم دفعهما دفعة عظيمة باتجاه الماء، لكنه أخطأ صفحة الماء ولم يصبْ قطرةً منها فطارت قدماه للأعلى فوق رأسه ووجد نفسه مُلقًى فوق جسد الفأر المنبطح. كان مفزوعًا فزعًا شديدًا، فأمسك بجانب القارب، ثم في اللحظة التالية؛ طرااش!

انقلب القارب، ووجَد نفسه يُصارع مياه النهر.

يا إلهي! كم كانت مياه النهر باردة! وكم كان إحساس البلل حاضرًا بشدة والمياه تغمره وتهمس ألحانَها في أذنه كلما نزل لأسفل شيئًا فشيئًا! وكم كانت أشعة الشمس ساطعة ودافئة كلما اقترب صاعدًا إلى السطح وهو يسعل ويُبقبِق! وكم اسودَّت الدنيا في

عينيه عندما وجد نفسه يغرق مجددًا! ثم قبضت كفٌّ ذات عزم على مؤخر عنقه وسحبته للأعلى. لقد كانت كفَّ الفأر، وكان من الواضح أنه يَضحك؛ كان الخُلد يشعر بذلك من خلال ذراع الفأر ومن خلال كفِّه المُمسكة برقبته من الخلف.

أمسك الفأر بأحد المجدافين وأزاحه تحت ذراع الخُلد؛ ثم أزاح المجداف الثاني تحت ذراعه الأخرى ثم بدأ يَسبح خلفه وهو يدفع هذا الحيوان الذي لا حول له ولا قوة إلى الشاطئ. وعندما وصَلا إليه، سحبه خارج المياه ووضعه على الضفة حيث كان كتلة بؤس رخوة ومغطاة بالطين.

قال الفأر عندما فرك جسد الخُلد قليلًا ليُدفئه وجفَّف جسده من بعض البلل: «والآن أيها الشاب! هرولْ جَيْئة وذهابًا بأقصى ما لديك في ذلك الممر حتى تشعر بالدفء ويذهب عنك البلل، بينما أنا سأنزل في الماء لأنتشل سلة الغداء من قاع النهر.»

أطاعه الخُلد البائس، وجسده مبلَّل من الخارج، والخجل يَملؤه من الداخل، وهرولَ في ذلك الممر حتى شعر بأن جسده قد جف، بينما نزل الفأر في الماء مجددًا وأنقذ القارب وعدله ثم أحكم ربطه، وجمع محتوياته الطافية ووضعها على الشاطئ الواحدة تلو الأخرى. ثم نزل في الماء مرة أخيرة لينقذ سلة الغداء واستطاع ذلك بنجاح وعانى أشد العناء حتى يسحبها إلى الضفة.

وعندما صار كل شيء في مكانه وعلى استعداد للانطلاق مرة أخرى، تقدم الخُلد ببطء وهو مغتم وجلس في مقعده في مؤخر القارب. وبعد أن شرعا مستكملين رحلتهما، قال بصوت خفيض ومنكسر يشوبه الحزن: «فأرون، يا صديقي المعطاء الكريم! أنا نادم أشد الندم على سلوكي الطائش والجاحد لمعروفك. ولا أجد في قلبي سوى الحزن والأسف عندما أفكر كيف كنت سأفقد سلة الغداء الرائعة الجمال تلك. بلا شك، لقد كنت شديد الحمق، وأنا أعترف بذلك. فهلا غفرتَ لي وغضضتَ طرفك عما حدث، ولا تدعه يُعكِّر صفونا السالف؟»

رد الفأر عليه في مرح وقال: «لا عليك يا صديقي، بارك الله فيك! هل يضير بعض البلل فأر الماء؟ إنني، في معظم الأيام، أقضي جلَّ وقتي في الماء وقليل منه على اليابسة. لا تشغل بالك وتفكر في الأمر أكثر من ذلك. المهم، ما رأيك في الاقتراح التالي؟ أنا أظن أنه من الأفضل لك أن تأتيَ وتقضيَ بعض الوقت معي في بيتي. هو بيت بسيط لا فخامة فيه ولا ترف — كما هو الحال بالنسبة إلى بيت العُلجوم — ولكنك لم ترَه بعد. سأُحاول توفير كل سبل الراحة لك، وسأُعلِّمك التجديف والسباحة حتى تصبح بسرعة بارعًا في التعامل مع الماء كأيِّ واحد مِنا.»

تأثر الخُلد بشدة بكلام الفأر ولطفه في التعامل، حتى إن لسانه قد عُقد، فلم يستطع له ردًّا، ولم يتمالك نفسه إلا وهو يمسح بظهر كفِّه دمعة أو دمعتين ذرفتهما عيناه. جال الفأر بنظره بعيدًا بدافع العطْف والأدب، وارتفعَت معنويات الخُلد مرة أخرى حتى إنه كان قادرًا على أن يردَّ ردًّا لاذعًا على دجاجتَي ماءٍ كانتا تَضحكان في سخرية من مظهره المبلَّل والموحل.

عندما وصَلا إلى البيت، أشعل الفأر نارًا متوهجة للتدفئة في الردهة، وأجلس الخُلد على كرسي ذي مسندَين أمامها، ثم ذهب ليحضر له رداء نوم وخفًّا، وأخذ يقصُّ عليه قصصًا عن النهر حتى موعد العشاء. كانت قصصًا مُثيرة جدًّا بالنسبة إلى حيوان يَسكن في باطن الأرض كالخُلد. كانت القصص تدور حول السدود الصغيرة والفيضانات المفاجئة وسمك الكراكي القافز، والبواخر التي تَقذف القنينات الزجاجية؛ كانت هناك قنينات زجاجية بالفعل آتية من تلك البواخر؛ لذلك يظن أنها من قذفتها على الأرجح. كما كانت القصص تدور حول مالك الحزين، ذلك الطائر الذي كان يَنتقي من يتحدث إليه بعناية، وحول مغامرات البالوعات والمجاري، ورحلات الصيد الليلية مع ثعلب الماء أو التنزُّه بعيدًا في البراري مع الغُرير. كان طعام العشاء وجبة مرحة، ولكن لم يَمضِ من الوقت الكثير حتى كان الخُلد الناعس بشدة يُقاد إلى الطابق العلوي بيد مُضيفِه الشفوق إلى أفضل غرفة نوم حيث سرعان ما أراح رأسه على وسادةٍ في طمأنينة وسلام عظيمَين، وهو يعلم أن النهر؛ ذلك الصديق الذي اكتشفه حديثًا، كان يجري على حافة نافذة غرفته.

كان هذا اليوم واحدًا من أيام مُتماثلة كثر مرَّت على الخُلد الذي تحرَّر من باطن الأرض، وكان كل يوم أطول من سابقه ومليئًا بالرغبة والولع بينما كانت تباشير فصل الصيف تدنو شيئًا فشيئًا. تعلَّم السباحة والتجديف وانفتح على المياه الجارية وما بها من مرح وسرور، ونقلت عيدان البوص إلى أذنيه، على فترات، شيئًا مما كانت الرياح تَهمِس به باستمرار وهي تتخلَّلها.

الفصل الثاني

الطريق السريع

قال الخُلد فجأة في صبيحة يوم صيفي مُشمِس: «فأرون، أريدك أن تُسدي إليَّ معروفًا إذا سمحت.»

كان الفأر جالسًا على ضفة النهر يتغنى بقصيدة قصيرة أَلَّفها للتو؛ لذلك كان منصبًّا عليها ولا يُولي اهتمامًا للخُلد أو أي شيء آخر. لقد كان يسبح في النهر منذ الصباح الباكر مع أصدقائه البط. وعندما كان البط ينقلب فجأة ليقف على رأسه في الماء كعادته، كان الفأر يَغطس ليُدغدغهم من أعناقهم أسفل الذقن لو كانوا قد خُلقوا بذقون، حتى يُجبَروا على أن يعتدلوا في عجالة فوق سطح المياه مجدَّدًا وهم يُغمغمون في غضب وينفضون المياه عن ريشهم باتجاهه؛ فمن الصعب أن تُعبِّر عن كل ما تشعر به ورأسك مغمور تحت الماء. وفي النهاية توسَّلوا إليه أن يذهب بعيدًا ويهتم بشئونه الخاصة وأن يتركهم وما يفعلون. فتركهم الفأر وجلس على ضفة النهر تحت الشمس وبدأ ينظم قصيدة عنهم سماها «أنشودة البط»:

هنالك في ركود النهر
بين الماء والعشب
يعوم البط يَلعب سابحًا
رأسًا على عقب!
يُنكِّس رأسه في الماء
حين يغوص مندفعًا
ترى المنقار أسفله
ويُبقي الذيل مُرتفعًا!

وتلك الأرجل الصفراء
في الأعلى وترتعش
وباقي الجسم تحت الماء
يُنعشُه فينتعش!
يعيش الروش في وحل
تحيطُ به شجيرات
هنالك في الظلام نحوز
دسمًا منه نقتات!
وما يحلو لنا نأتيه
في مرَحٍ وحرية
ندسُّ رءوسنا في الماء
والأذيال مرئية!
ونُبصر في السما طيرًا
بزقزقة وتغريد
ونغطس نحن أمَّا الذيل
في عرْيٍ وتجريد!

علَّق الخُلد بحذر وقال: «لا أعرف أيها الفأر، ولكني لم أستسغْ كثيرًا تلك القصيدة!» لم يكن الفأر شاعرًا ولم يهتمَّ بمَن يعرف هذا؛ فقد كان مُتفهمًا.

رد الفأر في مرح وقال: «كذلك قال البط يا صديقي! لقد قال: «لماذا لا يُسمح لأي حيوانٍ بأن يفعل ما يريد وقتما يريد وكيفما يريد، دون أن يكون هناك حيوان آخر على الضفة يُراقبه طوال الوقت ويُعلِّق على أفعاله، وينظم قصائد وغيرها حولها؟ إنَّ هذا كله عبث لا طائل منه.» هذا ما قاله البط.»

رد الخُلد عليه وقال في اقتناعٍ صادق: «هذا بلا شكٍّ عبث لا طائل منه.»

صاح الفأر غاضبًا: «لا! إنه ليس كذلك!»

رد الخُلد مهدئًا إياه وقال: «حسنًا إذن! إنه ليس كذلك، ليس كذلك! أنا فقط أردتُ أن أسألك إذا ما كنت ستذهب معي لنزور العُلجوم أم لا. سمعت الكثير عنه وأريد أن أتعرف عليه.»

قال الفأر الطيب وقد هب واقفًا على قدميه وطرح أمر الشعر وراء ظهره لبقية اليوم: «ولم لا؟ هيا بنا! أَخْرِج القاربَ وسنُجدِّف إلى هناك على الفور. إن الوقت دائمًا مناسبٌ لزيارة العُلجوم. سواء أكان الوقت مبكرًا أم متأخرًا، العُلجوم هو العُلجوم. إنه لا يتغير أبدًا؛ فهو دائمًا دمث الخلق ومضياف ويحزن دومًا عندما تُغادر!»

علَّق الخُلد على كلامه وهو يركب القارب ويُمسك بمجدافيه بينما جلس الفأر مستريحًا في المؤخرة: «لا بد أنه حيوان لطيف جدًّا.»

رد الفأر: «إنه أفضل حيوان بلا شك! فهو سهل، ليِّن، طلق المُحيا وحلو المعشر. ربما لا يكون علجمًا ذكيًّا بالقدر الكافي؛ فبالتأكيد لا يُمكننا أن نكون جميعًا أذكياء وعباقرة، وربما يكون متفاخرًا ومعجبًا بنفسه، لكن له بعض الصفات العظيمة.»

وبينما هما يدوران مع التواء في مجرى النهر، ظهر في الأفق منزل قديم وعظيم ذو فخامة ومبني من القِرْمِيد الأحمر الناعم، وله مُروج مُعتنًى بها اعتناءً جيدًا تمتدُّ إلى حافة النهر.

قال الفأر: «ذاك هو قصر العُلجوم! وذلك الخليج الصغير على اليسار، حيث ترى اللافتة التي كتب عليها «منطقة خاصة! رسوُّ القوارب ممنوع»، سيقودك إلى مرفأ القوارب الخاص به حيث سنَترك القارب هناك. أما الحظائر، فهي هناك على اليمين. وما تَنظر إليه الآن هي قاعة الولائم؛ إنها قاعة غاية في القدم. أنت تعلم أن العُلجوم فاحش الثراء، ومنزله هذا من أجمل المنازل في هذه المنطقة وأفخمها، مع أننا لا نعترف بهذا كثيرًا أمامه.»

انزلقا بقاربهما إلى ذلك الخليج الصغير، ورفع الخُلد المجدافين من الماء إلى سطح القارب بينما أظلهما ظلُّ مرفأ ضخم. هناك رأيا الكثير من القوارب الجميلة معلَّقة في العوارض أو مرفوعة بين شقَّي حوض تصليح، ولكن لا أحد منها يُلامس الماء، ويبدو على المكان أثر الهجر والإهمال.

نظر الفأر حوله وقال: «لقد فهمت! انتهى وقت اللعب بالقوارب. لقد ملَّ وضجر منها ولم يعدْ يُلقي لها بالًا. يا تُرى، ما الهواية الجديدة التي تشغله الآن؟ هيا بنا لنرى بأنفسنا، فسنعرف قريبًا جدًّا كل شيء عن هذه الهواية الجديدة بالتفصيل.»

ارتجلا من القارب، وأخذا يَمشيان عبر المروج الخضراء المزيَّنة بالزهور الزاهية ويبحثان عن العُلجوم الذي وجداه مُسترخيًا على كرسي حديقة مصنوع من الخوص وملامح وجهه تُنبئ عن استغراقه في التفكير وانشغاله بأمر ما وخريطة كبيرة ممدَّدة على ركبتيه.

صرخ عندما رآهما وقفز من مكانه: «مرحى! يا للروعة!» ثم صافحهما بحرارة وترحاب، ولم ينتظر أن يقدم له الفأر صديقه الخُلد، ثم قال وهو يتراقص حولهما فرحًا: «يا للُطفك! كنت سأبعث بقارب إلى أسفل النهر بأوامر صارمة لإحضارك في الحال يا فأرون، مهما كان ما تفعله. فأنا في أشد الحاجة إليك؛ بل إليكما. والآن، ماذا تشربان؟ تعاليا إلى الداخل وتناوَلا شيئًا! فأنتما لا تتصوَّران كم أنا محظوظ بظهوركما المفاجئ هذا!»

قال الفأر وهو يستلقي على كرسي وثير: «لنجلس ونتريث قليلًا يا علجم!» وقد نَحا الخُلد منحاه وجلس على كرسي بجانبه ثم أبدى ملحوظة مهذَّبة عبَّر فيها عن إعجابه بذلك «البيت البهيج».

قال العُلجوم بتفاخُر: «أعظم بيت على ضفتَي النهر!» ثم لم يستطع أن يمنع نفسه من قول: «بل لعلمك، هو أعظم بيتٍ على الإطلاق!»

نكز الفأر الخُلد حينها، ولكن لسوء حظِّهما لاحظَهما العُلجوم واحمرَّ وجهه خجلًا. ثم تلَت ذلك لحظات من الصمت الحذر، ثم انفجَر العُلجوم في الضحك فجأة وقال: «حسنًا يا فأرون، أنت تعلم أن تلك هي طريقتي المُعتادة في الحديث! كما أن بيتًا مثل هذا ليس سيئًا للدرجة، ألا تظنُّ ذلك؟ فهو يروقك شخصيًّا. أما الآن، انتبِها إليَّ، لنتكلَّمْ جديًّا. أنتما الاثنان هما ما أحتاج، وعليكما مساعدتي، فهذا أمر بالغ الأهمية!»

رد الفأر بسذاجة: «أظن أن الأمر متعلِّق بالتجديف، أليس كذلك؟ إن كان كذلك، فأنت تُبلي بلاءً حسنًا، مع أنك تُثير قدرًا لا بأس به من الماء حولك أثناء التجديف، ولكن مع الكثير من الصبر وأي مقدار من التوجيه، ستُصبح ...»

قاطعه العُلجوم في اشمئزاز شديد: «أوه! التجديف والقوارب! تلك لعب الأطفال وتلاهيهم، لقد اعتزلتُ هذا الأمر منذ عهد بعيد. يا لها من مضيعة للوقت! وإني ليَحزنني يا صديقيَّ أن أراكما، وأنتما أحق بتلك الصحوة، تُضيِّعان طاقتكما على هذا الوجه الأرعن. كلا! لقد وقفت على أعظم الأمور وأجلِّها ليُفني المرء فيها حياته. سأكرِّس ما تبقَّى من حياتي لأقضيه مشغولًا بهذا الأمر، ولا حيلة بيدي إلا الندم على ما فات من سنوات قضيتها في فعل توافه الأمور. تعالَ معي يا فأرون العزيز، أنت وصديقك اللطيف إذا تكرَّم وقَبِل دعوتي، تعاليا معي إلى مكانٍ ليس أبعد من ساحة الحظائر لتتبيَّنا مُرادي وتفهما قولي!»

تقدمهما في الطريق المؤدِّي إلى ساحة الحظائر، وتبعه الفأر وقد ارتسمت على وجهه أقسى علامات الشك والارتياب. وهناك، رأيا مقطورة في الخارج أمام مَرْأب العربات، وكانت

المقطورة جديدةً تلمع في بهاء، وقد دُهنَت بلون أصفر كلون الكناري وزركشت بالأخضر، وطُليَت عجلاتها بطلاء أحمر.

صاح العُلجوم وقد وقف مباعدًا بين قدميه وفرد ذراعيه ومط جسده: «ها هو الشيء الذي أقصده! تنتظركما حياة حقيقية متمثِّلة في هذه المقطورة الصغيرة. الطريق العمومي، والطريق السريع المُترب، والأراضي البور، والأرض المشاع، والسياجات المشجرة، والمروج المتموِّجة! المخيمات والقرى والبلدات والمدن! نحن هنا اليوم، نركب المقطورة ونَنطلِق لنكون في مكان آخر غدًا. السفر والتنقل والإثارة والحماس! العالم بأسره يقبع أمامكما وأفق السماء يتغير باستمرار فوقكما! وحسبكما أن هذه هي أجود عربة بُنيتْ من نوعها على الإطلاق ودون أي استثناءات. تعاليا إلى الداخل لتُشاهِدا الترتيبات التي أعددتها؛ فقد اخترتُ كل تفصيلة صغيرة منها بنفسي.»

لمعت عينا الخُلد من الإثارة والإعجاب الشديدَين، وتبعه في لهفة صاعدًا الدرَج إلى داخل المقطورة، بينما اكتفى الفأر بالنخير متذمرًا وأدخل يديه كاملتين في جيوبه، ووقَف حيث كان.

كانت صغيرة ومريحة جدًّا، بها مَخادع صغيرة للنوم؛ هي في الأصل طاولة صغيرة طُويَت باتجاه جدار المقطورة، وموقد للطبخ، وخزانات وأرفُف للكتب، وقفص به عصفور، وأوانٍ ومَقالٍ وأباريق وقدور من كل حجم وشكل.

قال العُلجوم في فخرٍ وهو يفتح إحدى الخزانات: «كل شيءٍ جاهز! فكما ترى، ستجد هنا الكعك والكركند المعلَّب، وأسماك السردين وكل ما يمكن أن تحتاجه. ستجد أيضًا مياهًا غازية هنا، وتبغًا هناك، وأوراقًا لكتابة الرسائل، ولحمًا مقدَّدًا، ومربًّى، وأوراقَ لعبٍ وقطعَ دومينو.» ثم أكمل وهما يهبطان درج المقطورة: «لن تجد أي شيء يَنقصنا مهما كان عندما نشرع في رحلتنا فيما بعد ظهيرة اليوم!»

قال الفأر ببطء وهو يلوك قشة: «اعذرني رجاءً، ولكن أظن أنه قد تطايرت إلى أذني كلمات «تنقصنا» و«نشرع» و«فيما بعد ظهيرة اليوم»؟ أما سمعته هذا صحيح؟»

رد العُلجوم مُتضرِّعًا: «يا صديقي العزيز الطيب فأرون، لا تبدأ الحديث بتلك النبرة الخشنة والمترفِّعة لأنك تعرف أن «عليك» أن تأتي؛ فأنا لن أستطيع أن أتصرَّف دون وجودك؛ لذلك رجاءً اعتبر أمر مجيئك معي مُنتهيًا ولا تُجادل فيه؛ فأنا لا أطيق الجدال. أنت بالتأكيد لا تُريد أن تظلَّ على حافة هذا النهر القديم والعفن طوال حياتك؛ تعيش

في حفرةٍ على إحدى ضفَّتَيه مع قاربك؟ أنا أريد أن أُريَك العالم! سأجعل منك «حيوانًا» ذا قيمة يا صديقي!»

رد الفأر بصرامة: «أنا لا أهتمُّ بذلك! أنا لن آتيَ معك وهذا قرار نهائي لا رجعة فيه. سألزم ضِفَّة هذا النهر القديم وسأظلُّ ساكنًا في حفرة مع قاربي؛ تمامًا كما اعتدتُ الحياة. وهاك شيئًا آخر؛ سيُلازمني الخُلد وسيَفعل مثلما أفعل، أليس كذلك أيها الخُلد؟»

رد الخُلد في ولاء وقال: «بلى!» ثم أضاف بنبرة شابَها الحزن: «سأُلازمك ما حييتُ أيها الفأر، وما ستقوله هو سيف ماضٍ لا رادَّ له. رغم ذلك، أعتقد أن هذه الرحلة كانت ستكون مُمتعة وشائقة!» يا لهذا الخُلد المسكين، كانت جسارة الحياة وإثارتها شيئًا فاتنًا وجديدًا عليه، وهذا الجانب الجديد منها كان مغريًا، وقد وقع في حب تلك العربة الصفراء صفرة الكناري من أول نظرة؛ هي وجميع ما بداخلها من تجهيزات.

فطن الفأر لما يعتمل في نفس الخُلد فانتابتْه رعشةٌ خفيفة. كان يكره أن يخذل الآخرين، كما أنه كان يحبُّ الخُلد وسيفعل أي شيء بوسعه ليكرمه. كان العُلجوم يراقب كليهما عن كثب.

ثم قال بلباقة وكياسة: «تفضَّلا معي إلى الداخل لنتناول طعام الغداء ونتناقش في الأمر؛ فنحن لسْنا في عجلة من أمرنا لنتَّخذ قرارًا الآن. أنا لا أبالي أبدًا بالأمر؛ أنا فقط أريدكما أن تَستمتعا يا صديقيَّ. فمبدئي في الحياة هو «عِش من أجل الآخرين».»

أثناء تناولهم طعام الغداء، الذي كان شهيًّا وفاخرًا مثله كمثل كل شيء في بيت العُلجوم، أطلق العُلجوم العنان لنفسه وبدأ يَعزف ألحانه، متجاهلًا الفأر، على أوتار الخُلد الغرِّ كمن يعزف على قيثارة. استغلَّ فصاحة لسانه الفطرية وخياله الخصب وأخذ يرسم بألوانٍ زاهيةٍ لوحات لآفاق الرحلة المقبِلة ومباهج حياة الانطلاق على الطريق، حتى إن الخُلد كان بالكاد يجلس على كرسيِّه من فرط الإثارة. وبعد مدةٍ قصيرةٍ وبطريقة أو بأخرى، كان ثلاثتهم قد اتَّفقوا واستقر في أنفسهم أن أمر تلك الرحلة حاصل لا محالة. أما الفأر الذي كان لا يزالُ غير مُقتنِع، فقد غلَّب طبيعته الطيبة على اعتراضاته الشخصية؛ فلم يكن يقدر على خِذْلان صديقَيه اللذين استرسلا في التخطيط والآمال، وأخَذا يخططان مسيرة كل يوم على حدة لعدة أسابيع مقبلة.

عندما استعدوا للانطلاق، قاد العُلجوم المبتهج بالنصر الآن رفيقَيه إلى مُسْتَراد الخيل وأرسلهما ليُحضِرا الحصان الرمادي العجوز الذي عُيِّن دون تشاورٍ معه وعلى امتعاضٍ شديدٍ منه؛ ليُؤدِّي أكثر المهام عرضة للأتربة في هذه الرحلة المليئة بها. إنه بالطبع كان

يُفضِّل البقاء في مُسْتَراد الخيل والاستمتاع بالمناظر حوله. وفي غضون ذلك، ملأ العُلجوم الخزانات بكل الضروريات حتى اكتظَّت، وعلَّق السِّلال والمخالي وشبكات البصل وحزم القش أسفل العربة، وبعد أن جيء بالحصان أخيرًا وقد شدَّ سرجه، انطلقوا في رحلتهم وجميعهم يتحدَّث في الوقت ذاته، وهم بين مترجِّل على جانب العربة أو جالس على عمود جرِّ العربة بينما البهجة تغمرهم. كانت شمس ما بعد الظهيرة لامعة، ورائحة التراب الذي أثارتْه حركتُهم غنية ومنعشة، والطيور تغرِّد آتية من كل حدب وصوب مما حولهم من البساتين الكثيفة على جانبَي الطريق وتُحيِّيهم في بهجة، وكان المسافرون اللطفاء المارون بهم يتمنَّون لهم يومًا طيبًا، أو يتوقَّفون أمامهم ليُعبِّروا عن إعجابهم بعربتهم البديعة. أما الأرانب فكانوا يقفون على عتبات بيوتهم عند السياجات رافِعِي كفوفهم الأمامية عن الأرض ويقولون وهم يشهدون هذا الموكب: «يا لَلجمال! يا للجمال! يا للجمال!»

عندما زالت الشمس وارتخَت ستارات الليل، عرَّجوا بأرضٍ مشاعٍ نائية لا تأوي أحدًا بعد أن نال منهم الإرهاق وهم سعداء وعلى بُعدِ أميال من البيت. أطلقوا الحصان لِيَرعى، ثم تناولوا عشاءهم البسيط بجانب العربة وهم جلوس على العشب. أخذ العُلجوم يَسرد لهم ويفصل ما سيَفعله في الأيام المقبلة، بينما النجوم فوقهم تزداد توهجًا وأطلَّ عليهم فجأة قمر شاحب تسلَّل في صمت لينضمَّ إلى مجلسهم ويُنصِت إلى أحاديثهم. وعندما فرغوا وانتهَوا، توجَّه كل واحد منهم إلى مخدعه الصغير داخل العربة، ثمَّ قال العُلجوم وهو يُمدد رجلَيه وقد أطبق عليه النعاس: «حسنًا، تُصبحان على خير يا صديقيَّ! هذه هي الحياة التي يجدر بكل رجلٍ نبيل أن يعيشها! هلَّا حدثتني مجددًا عن نهرك القديم!»

رد عليه الفأر في صبر وقال: «أنا لا أتحدَّث عن نهري يا عُلجوم.» ثم أضاف في نبرة شجيةٍ شابها الحنين: «أنت تعي ذلك جيدًا، لكنَّني أفكِّر فيه. أنا أفكِّر فيه ... طوال الوقت!»

مدَّ الخُلد يده من تحت اللحاف وتحسَّس كف الفأر في الظلام وضغط عليه مؤازرًا وهمس له قائلًا: «سأفعل أي شيء تُريده يا فأرون! ما رأيك أن نهرب صبيحة الغد؛ في الصباح الباكر — عند الفجر — ونعود إلى حفرتنا العزيزة القديمة على ضفة النهر؟»

ردَّ عليه الفأر هامسًا: «لا! لا! سنُكمل حتى النهاية. شكرًا جزيلًا لك، ولكن عليَّ ألَّا أترك العُلجوم وأن أكمل معه الرحلة حتى نهايتها؛ فسيُعرِّض نفسه للخطر إن تُرك بمفرده. ولن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا؛ فهوايات العُلجوم لا تدوم طويلًا. تُصبح على خير!»

في الواقع، كانت نهاية الرحلة أقرب مما توقَّعه الفأر بكثير.

بعد كل ما حصلوا عليه من الهواء الطلق والإثارة، نام العُلجوم وغطَّ في نومه حتى إنه لم يُوقظه في صباح اليوم التالي أيُّ مقدار بُذِل من الهز والرج؛ لذلك نهض الفأر والخُلد بهدوء وعزيمة، وبينما اعتنى الفأر بالحصان وأوقَد نارًا ونظَّف أطباق العشاء وأكوابه من الليلة الفائتة، وأعدَّ كل شيء للفطور، كان الخُلد قد قطع مسافة كبيرة ومُجهِدة إلى أقرب قرية لشراء البيض واللبن والكثير من الأساسيات التي قد نسيَها العُلجوم. كان العمل الشاق قد انتهى أخيرًا وجلس الحيوانان يستريحان والتعب بادٍ عليهما، في الوقت الذي استيقظ فيه العُلجوم وخرج عليهما مُفعمًا بالنشاط والبهجة ويُلقي على مسامعهما آراءه عن سهولة الحياة التي يَعيشونها الآن ومتعتها، بعد أن تركوا الهموم والمتاعب ومشاق تدبير أمور المنزل وراءهم عند النهر.

استمتعوا في يومهم هذا بنزهة لطيفة بين التلال الصغيرة المُعشَوشِبة وبطول الأزقَّة الضيقة، ثم خيَّموا كلَيلتِهم السابقة في أرضٍ مشاع، غير أن هذه المرة بيَّت الحيوانان النية أن يَنال العُلجوم حصةً عادلة من العمل. وعندما تلألأت أشعة الصباح التالي، أخذ العُلجوم يتغنَّى ببساطة الحياة البدائية وحاول أن يبقى مستلقيًا في مخدعه حتى شُدَّ ليقوم منه بالقوة. أما طريقهم ذلك اليوم فكان كسابقه؛ أزقة ضيقة بين الأراضي الريفية. ظلُّوا هكذا حتى ما بعد الظهيرة عندما وصلوا للطريق الرئيسي السريع؛ الأول في رحلتهم، وحيث انهالت عليهم المصائب من حيث لا يَحتسبون؛ مصائب خطيرة هددت مسيرة رحلتهم، ولكن آثارها كانت ببساطة علامة فارقة في مجرى حياة العُلجوم.

كانوا يَمشون في ذلك الطريق السريع على مهل؛ الخُلد بجانب رأس الحصان يتحدَّثان بعد أن اشتكى أنهم قد تجاهَلوه وأغفَلوا أمره تمامًا، ولم يلتفت إليه أحد ولو بالقدر القليل. أما العُلجوم والفأر فكانا يَمشيان معًا خلف العربة ويتحدَّثان معًا؛ أو كان العُلجوم يتحدث والفأر يقول له على فترات: «أجل! بالضبط. وماذا قلت له بعد ذلك؟» بينما هو يفكِّر طيلة الوقت في أمور مختلِفة تمام الاختلاف، حتى سمعا همهمة تحذيرية خافتة من ورائهما، كأنها طنينُ نحلة على مبعدة منهما. التفتا فلمَحا غيمة صغيرة من تراب يتوسطها بؤرة سوداء مُظلِمة تُحرِّكها باتجاههما بسرعة خارقة، ويَصدُر من وسط هذه الغمامة الترابية صوتٌ كصوت حيوان يَعوي وينتحب في ألم شديد؛ «تووت! تووت!» بالكاد أولياها قليلًا من الاهتمام ثمَّ اعتدَلا ليُكمِلا حديثهما، وفي لحظة — كما بدا الأمر — انقلَب المشهد الهادئ رأسًا على عقب وضربتْهما هبَّة من الرياح وعصفَت بهما عاصفة

صوتية، جعلتهما يَقفِزان بداخل أقرب خندق أمامهما. كان هذا الشيء فوق رأسَيهما! دوَّى صوت العُواء دويًّا شديدًا في آذانهما، وتسنَّت لهما لحظة لَمحا فيها ما لَمحا من جوف هيكلٍ من ألواح الزجاج اللامعة وجِلد الماعز المدبوغ البراق، واستحوذت تلك السيارة الضخمة ذاتُ الهيبة التي تَخطف الأنفاس وسائقها المتوتِّر والقابض على مِقوَدِها كأنه يحتضنُه على ما تحتها من أرض وما فوقها من سماء لوهلة، ثم خلَّفت سحابة من غبار غلَّفتهما وحجبَت الرؤية عنهما، وما لبثت أن تضاءلت حتى صارت كبقعةٍ بعيدةٍ في الأفق وسُمع صوتها كطنين نحلة مرة أخرى.

كان الحصان الرمادي العجوز يَحلم وهو يتهادى على الطريق بالمسترد الهادئ، وفي موقف جديد كهذا لم يعهده سابقًا، ترك ببساطةٍ انفعالاته تظهر على سجيتها. شبَّ ورفَع قائمَتَيه الأماميَّتين في الهواء ثم حَرَن وألقى بجسده إلى الأمام كأنه يغطس، ثم أخذ يتقهقر للخلف، على الرغم من الجهد الذي بذله الخُلد وهو واقف عند رأسه ويُحاول أن يُهدِّئ من روعه بكلماته الحانية. تقهقر دافعًا العربة إلى الخلف باتجاه الخندق العميق على جانب الطريق. ترنَّحت العربة في اضطرابٍ ثم سُمع بعد ذلك صوت اصطدامٍ يَنخلع له القلب؛ كانَت العربة الصفراء صفرةَ الكناري، مصدر فخرهم وينبوع سعادتهم، ترقد على جانبها في الخندق كومة من حطامٍ لا يُرجى إصلاحها.

أخذ الفأر يرعد ويُزبد قافزًا على الطريق ويَصيح وهو يلوح بكلتا قبضتَيه: «أيها الوغد! أيها النذْل الحقير! يا قاطع الطريق! أيها ... أيها ... أيها السائق الأرعن! سأجعل القانون يُلاحقك أينما كنت! سأبلغ عنك وسأُقاضيك أمام كل المحاكم!» كان حنينه إلى بيته قد تلاشى بعض الشيء وصار هو الآن قبطان تلك السفينة الصفراء التي جُرفت إلى المياه الضحلة بسبب المُناوَرات الطائشة للبحَّارة المنافسين، وأخذ يُحاول تذكر كل الكلام اللاذع والمُنمَّق الذي كان يَصيح به في وجه قائدي القوارب البخارية الذين كانوا يتسبَّبون في فيضان المياه عند اقترابهم من الضفة فيُغرقون قاعة منزله المفروشة بالسجاد.

جلس العُلجوم في مكانه على قارعة الطريق التَّرِب وساقاه ممتدتان أمامه وعيناه شاخصتان في اتجاه السيارة التي تتوارى عن الأنظار شيئًا فشيئًا. كانت أنفاسه قصيرة، وترتسم على تقاسيم وجهه أمارات الرضا والوداعة ويُتمتِم هامسًا بين الفينة والأخرى: «تووت! تووت!»

كان الخُلد مشغولًا بمحاولة تهدئة الحصان، وقد نجح في مسعاه هذا بعد مدة، ثم ذهب ليُلقي نظرة على العربة وهي راقدة على جانبها في الخندق. كان بلا شك منظرًا

حزينًا ومؤسفًا؛ فألواح النوافذ الزجاجية مهشَّمة، ومحاور العجلات قد انثنت انثناءً لا أملَ معه، وانخلعت إحدى العجلات، وتناثَرت علب السردين في كل مكان على مرمى البصر، والعصفور الموجود في القفص كان يبكي بكاءً يُرثى له ويُناشدهم أن يُحرِّروه.

هرع الفأر لمساعدة الخُلد، ولكن جهودهما لم تكن كافية لإقامة العربة في وضعها الصحيح. قالا بصوتٍ عالٍ: «يا عُلجوم! هلا أتيت ومددتَ لنا يد العون؟!»

لم يَنبِس العُلجوم ببنت شفة، أو يتزحزح قيد أنملة من مكانه على قارعة الطريق؛ لذلك ذهَبا ليقفا على حاله وما حلَّ به. وجداه مذهولًا شارد الفكر وعلى وجهِه ابتسامة راضية وعيناه ما تزالان مثبَّتتَين على تلك السحب الترابية التي خلَّفتها السيارة التي تسبَّبت في دمار عربته. وكان ما زال يُتمتِم على فترات متباعِدة: «تووت! تووت!»

هز الفأر كتفه وقال في صرامة: «ألن تأتيَ لتُساعدنا يا عُلجوم؟»

لم يُبدِ العُلجوم أي إشارة للتحرك، وهمهم قائلًا: «يا له من مشهد بهي ومُثير! إنَّ حرَكتها لها حلاوة الشِّعر وعذوبته! إنها الطريقة الأجدى للسفر؛ بل الطريقة الوحيدة التي لا ثانيَ لها! أنت هنا اليوم، وهناك غدًا في مسافة كانت تأخذ أسبوعًا كاملًا فيما مضى! ستَطوي القرى وستتخطَّى البلدات والمدن؛ ستكون دائمًا في أفق جديد. يا لَلنعيم! يا لسعادتي وهنائي! يا لهذا التووت-تووت!»

صرخ الخُلد في يأسٍ وقال: «كفى حمقًا يا عُلجوم!»

أكمل العُلجوم بنفس النبرة الحالمة وقال: «لم أدرِ بهذا مطلقًا قبل ذلك! في كل تلك السنوات التي ضاعت من حياتي سدًى، لم أدرِ بهذا قط، ولا حتى في أحلامي وخيالاتي! أما «الآن» فقد أدركتُ الأمر واستوعبته استيعابًا كاملًا. يا له من مسارٍ رائع ذلك الذي ينتظرني، من لحظتي هذه فصاعدًا! سأثير سحب الغبار ورائي أيما إثارة وأنا أمرُق كالسَّهم طائشًا لا أُبالي بما أقذف من عربات في الخندق على جانب الطريق بينما أنا في مُستهلِّ صحوتي المهيبة! لن أبالي بتلك العربات القبيحة؛ عربات العامة ... العربات الصفراء بلون الكناري!»

سأل الخُلد فأر الماء: «ماذا سنفعل معه؟»

ردَّ عليه الفأر بحزم: «لن نفعلَ شيئًا أبدًا! ببساطة لأنه لا شيء ليُفعل على الإطلاق. أنت تعلم أني أعرفه منذ القدم. هو الآن كمَن استحوذ عليه الجنون! إنه جنون جديد يُبقيه هكذا في مراحله الأولى، وسيَستمرُّ هكذا لعدة أيام كحيوان يتريض في حلم سعيد،

وهذا ما يجعله لا فائدة منه إطلاقًا في كل الأغراض العمَلية. لا تُولِه إذن اهتمامًا ودعْنا نذهب لنرى ما يُمكننا فعله حيال تلك العربة.»

بعد فحصٍ دقيق، تبيَّنَ لهما أنهما حتى وإن استطاعا بمفردهما أن يقيما العربة إلى وضعها الصحيح، فلن يستطيعا السفر بها إلى أي مكان. فمَحاور عجلات العربة كانت في حالة ميئوس منها، والعجلة التي انخلعت كانت مهشَّمة.

مشى الفأر مُمسكًا بزمام الحصان بإحدى يدَيه بينما حمل بيده الأخرى القفص الذي يَسكنه ذلك الطائر المهروع. قال للخلد وهو متجهِّم: «هيا بنا! أقرب بلدة منَّا على بُعد خمسة أو ستة أميال من هنا وعلينا أن نمشيَ إلى هناك! كلما أسرعنا في الانطلاق، كان هذا أفضل لنا.»

سأله الخُلد بقلق بينما قد شرَعا في التحرُّك معًا: «ولكن ماذا عن العُلجوم؟ لا يجدر بنا أن نتركه وحيدًا هناك جالسًا في وسط الطريق وهو في حالته تلك! هذا ليس آمنًا! افترض أن شيئًا كهذا مرَّ من هناك مرةً أخرى!»

قال الفأر في حدة: «يا لصديقي العُلجوم! لقد اكتفيتُ منه!»

لم يقطَعا مسافة طويلة، حتى سمعا صوت أقدام تدبُّ خلفهما ووجَدا أن العُلجوم قد لحق بهما وأدخل كفيه في مرفَق كلٍّ منهما، وما زالت أنفاسه قصيرة ويُحدِّق هائمًا فيما أمامه من فضاء.

قال الفأر بحدة: «والآن يا عُلجوم! اسمعني جيدًا! حين نصل إلى البلدة، عليك أن تتَّجه إلى قسم الشرطة وترى إن كانوا على علم بأي شيء يخصُّ تلك السيارة أو صاحبها ثم تُقدِّم فيه شكوى. بعد ذلك عليك أن تتَّجه إلى حداد أو صانع عجلات وتُرتِّب معه ليذهب ويُحضر العربة ويصلحها ويعيدها إلى ما كانت عليه. سيستغرق الأمر وقتًا، ولكن هناك أملًا في إصلاح هذا الحطام. في غضون ذلك، سنبحَث أنا والخُلد عن نزُل ونستأجر غرفًا مريحة حيث سنَمكُث إلى أن تُصبح العربة جاهزة للانطلاق وحتى تهدأ وتستريح أعصابك من هول الصدمة.»

همهم العُلجوم حالمًا: «قسم الشرطة! شكوى! أتُريديني أن «أشكو» هذا الجمال؛ تلك الرؤيا الجميلة التي أنارتْ بصيرتي! وأن «أصلح العربة»! قد رميتُ بأمر العربات وراء ظهري للأبد. لم أعُدْ أطيق رؤية العربة بعد الآن أو أن أسمع عنها شيئًا. يا فأروني العزيز! أنت لا تدري كم أننا ممتنٌّ لك لمُوافقتِك على أن تخوض معي غمار تلك الرحلة. فلم أكن لأشرع فيها دونَك، وحينها لم أكن لأرى هذا ... هذا الشيء الفائق الجمال؛ هذا

الشيء المبهر كشعاع شمس والهادر كهزيم رعد! وربما لم أكن لأسمع ذلك الصوت الرائع أو لأشمَّ تلك الرائحة الزكية! أنا أدين لك بكل هذا يا صديقي الصدوق!»

أشاح الفأر بصره عنه في قنوط وقال محدِّثًا الخُلد من فوق رأس العُلجوم: «أترى ما عليه الأمر؟ إن أمره ميئوس منه؛ لذلك أنا أقرُّ بعجزي وأَستسلِم، وعندما نصل إلى البلدة، سنتَّجه إلى محطة القطار وإن كان لنا نصيب من الحظ، لربما وجدنا قطارًا يوصلنا إلى ضفة النهر الليلة. وإذا وجدتني أهم بالذهاب مرةً أخرى في نزهة مع هذا الحيوان المُستفِز ...» ثم نخَر متذمِّرًا ولم يعرِ العُلجوم أي اهتمام لبقية الطريق المُمل الذي اجتازوه، وكان يخاطب الخُلد فقط.

عندما وصلوا إلى البلدة، توجَّهوا إلى المحطة مباشرةً وأجلس الفأرُ والخُلدُ العُلجومَ في غرفة انتظار الدرجة الثانية، ثم أعطَيا الحمال بنسَين ليُراقبه عن كثب. بعد ذلك، أنزلا الحصان إسطبلًا تابعًا لأحد النزُل وأعطَيا القائمين عليه ما استطاعا من معلومات عن العربة ومُحتوياتها وما يجب أن يتمَّ بشأنها. وفي نهاية اليوم، أوصلهم قطار بطيء إلى محطة ليسَت بالبعيدة من بيت العُلجوم. رافق الحيوانان ذلك العُلجوم المشدوه الذي يسير نائمًا إلى باب بيته وأدخلاه هناك، ثم أوصيا مدير المنزل أن يُطعمه شيئًا وأن يُبدِّل له ملابسه ثم يضعه في السرير. بعد ذلك، أخرَجا قاربهما من مرفأ القوارب وجدَّفا إلى بيتهما وجلَسا في تلك الساعة المتأخِّرة من الليل لتناول العشاء في الردهة المريحة على ضفَّة النهر؛ حيث كان الفأر مطمئنًّا والسعادة تَغمُره.

في مساء اليوم التالي، كان الخُلد الذي استيقظ متأخِّرًا وأمضى يومه على مهل وبتروٍّ، يجلس على ضفة النهر يَصطاد السمك، بينما كان الفأر الذي شغل يومه بمجالسة أصدقائه والحديث معهم، يُهرول باحثًا عن الخُلد وقال له عندما وجده: «أسمعتَ الأخبار؟ لا شيء على ألسنة الحيوانات على طول ضفة النهر غير ذلك الخبر. في الصباح الباكر، استقلَّ العُلجوم قطارًا متَّجهًا إلى البلدة وقدَّم طلب شراء سيارة ضخمة وباهظة الثمن.»

الفصل الثالث

البراري

كان الخُلد يتوق شوقًا للقاء الغُرير والتعرُّف عليه. لقد بدا، حسب جميع الروايات، حيوانًا ذا شخصية بارزة مع أنه نادرًا ما يُرى ليترك كل هذا الأثر في نفوس الجميع في المكان، ولكن كلَّما تحدث الخُلد عن أمنيته تلك أمام الفأر، دائمًا ما كانت المماطلة والتأجيل جوابه؛ إذ يردُّ عليه الفأر: «حسنًا أيها الخُلد، سيظهر الغُرير يومًا ما؛ فهو دائمًا ما يظهر، وعندها سأُعرِّفك عليه. إنه أفضل صديق ستُقابله! ولكن عليك ألَّا ترسم عنه صورة في مخيلتك وأنت في رحلة بحثك عنه، ولكن عندما تقابله في الحقيقة!»

قال الخُلد: «ألا يُمكنك أن تدعوَه هنا إلى عشاء أو ما شابه؟»

رد الفأر ببساطة: «لن يَحضر! الغُرير يكره المجتمع، ويمقت بطاقات الدعوات وحفلات العشاء وكل شيء من هذا القبيل.»

اقترح الخُلد قائلًا: «حسنًا إذن، ماذا لو ذهبْنا نحن إليه؟»

رد الفأر في انزعاج: «أوه، أنا على يقينٍ أن ذلك لن يروقَ له مطلقًا! فالغُرير حيوان شديد الخجل، وسيَستاء منَّا إن فعلنا ذلك. أنا لم أفكر قط في المجازفة بزيارته في بيته، مع أني أعرفه معرفة جيدة. أضِفْ إلى ذلك أننا لا نستطيع زيارته. إن هذا خارج مجال النقاش؛ لأنه يسكن بيتًا يقع في وسط البراري.»

قال الخُلد: «حسنًا، هبْ أنه يعيش في وسط البراري، ألم تقل لي أن تلك البراري مكانٌ لطيف لا بأس به؟!»

رد الفأر مراوغًا: «بلى! بالطبع هي كذلك! لكننا لن نذهب إلى هناك الآن، ليس بعد. فالطريق طويل، كما أن الغُرير لا يكون على أيِّ حال في بيته في هذا الوقت من العام، وسيمرُّ علينا يومًا ما إذا انتظرتَ في هدوء.»

كان على الخُلد أن يَقنع بهذه الإجابة، ولكن الغُرير لم يمرَّ عليهما قطُّ. كان كل يوم له متعة خاصة، حتى ولَّت أيام الصيف وحلَّ البرد والصقيع، وأرغمتْهم الطرق المُوحِلة على البقاء في البيت معظم الوقت. أما النهر الفائض فقد أخذَت مياهُه تجري وتتسابق خارج نوافذ المنزل بسرعةٍ عاتيةٍ ساخرةٍ من أي أحد يُحاول ركوب أي نوع من القوارب. وحينها عاد الخُلد يَسبح مرةً أخرى بين أفكاره التي تمحوَرتْ حول ذلك الغُرير الرمادي المُنزوي الذي عاش حياته وحيدًا في جحر بوسط البراري.

في فصل الشتاء، كان الفأر ينام نومًا طويلًا؛ كان يأوي إلى فراشه باكرًا وينهض منه متأخرًا. وخلال أيامه القصيرة تلك، كان أحيانًا يكتب على عجل أبياتًا شعرية أو يقوم ببعض الأعمال المنزلية البسيطة، وبالطبع، كانت هناك دائمًا حيوانات تطرق باب البيت لزيارته والدردشة معه، ثم لا يلبث الأمر أن يتطوَّر ويَبدءوا بقصِّ الحكايات وتداولِ تجارِب الصيف الفائت وكل ما كان به من نشاطات.

لقد كان حقًّا فصلًا غنيًّا بالتفاصيل، إذا تأمل المرء ما حدث فيه، وكل ما كان فيه من لوحات طبيعية وفيرة وزاهية جدًّا. مضى موكب ضفة النهر الاحتفالي المهيب باطراد وهو يقدم مشاهد خلابة يتعاقَب الواحد تلو الآخر في جلال وإبهار. كانت أزهار الفرندل الأرجوانية هي أول المشاركين ظهورًا على المسرح؛ ترى خصلها النَّضِرة الغزيرة والمتشابكة تتراقص على حافة النهر حيث تنعكس صورتها الحسنة على صفحة الماء لتردَّ ابتسامة الأزهار المترفة، وتلتْها بفترة قليلة نباتات السنفية الرقيقة التي تُثير الشجن في النفس كسحابة قرنفلية وقت الأصيل. أما نبات السمفوطن بأزهاره التي يَختلط فيها اللونان الأبيض والأرجواني، فقد تقدَّم إلى الأمام ليستعرض جماله هو الآخر. وفي النهاية وفي صبيحة أحد الأيام، وقفَت زهور النسرين الخجولة والمتأخِّرة بخفة على المسرح، كأنها لحن موسيقي مهيب يَنسجِم مع تمايُل الراقصين ووقع أقدامهم، وحينها عرف المرء أن شهر يوليو قد حلَّ أخيرًا. وبهذا تبقَّى زائر واحد كان يترقَّب الجميع وصوله؛ كان كالراعي الشاب الحسن بالنسبة إلى الفتيات العذارى؛ كالفارس الذي تجلس النساء في انتظاره ليمرَّ بنوافِذِهنَّ؛ كالأمير الذي يُقبِّل أميرة الصيف النائمة ليعيدَها إلى الحياة والهوى مرةً أخرى. إنه نبات إكليلية المروج الذي ما إن وصل أخيرًا، بأريج عطره الفواح ولونه العنبري لينضمَّ إلى الجمع، حتى كان العرض المسرحي على وشك البدء.

ويا له من عرضٍ مسرحي! ولكن الحيوانات الناعسة التي تَنعم بالدفء داخل جحورها بينما يدق المطر على أبوابها وتعصف بها الرياح، كانت تتذكر أوقات الصباح

الهادئة قبل شروق الشمس بساعة والضباب لم يَنقشِع بعد ويُغلِّف صفحة الماء تغليفًا محكمًا حين ذهلت عقولها واندهشت لرؤية تباشير الصيف وقد حلَّت، وضفة النهر وقد دبَّت الحياة على جانبيها، وذاك التحول المبهج للأرض وللهواء وللماء؛ حين تسطع الشمس بغتة لتنعم برفقتها مجددًا، فيستحيل كل رمادي إلى ذهبي لامع، وتزهر الألوان وتنبثق من باطن الأرض في ميلاد جديد. وقد كانت تستعيد أيضًا أوقات القيلولة والكسل في منتصف يومٍ حارٍّ وسط الشجيرات الخضراء الوارفة وضوء الشمس يتخلَّل بين غصونها وأوراقها في بقع وأشعة ذهبية صغيرة؛ وذكريات التجديف في القوارب والسباحة في النهر في وقت ما بعد الظهيرة، والتنزُّه بطول الطرقات الترابية وعبر حقول الذرة الصفراء؛ والليالي الطويلة ذات الهواء المنعش، حين يجتمع ثلَّة من الأصدقاء فيتسامَرون ويَتجاذبون أطراف العديد من المواضيع ثم يُخطِّطون للكثير من المغامرات التي ستَنطلق في صبيحة اليوم التالي. كانت الحيوانات تجد الكثير للحديث عنه خلال أيام الشتاء القصيرة هذه عندما تجتمع حول النار التماسًا للدفء، ومع ذلك، كان الخُلد لديه الكثير من الفراغ في يومه. وفيما بعد ظهيرة أحد الأيام، بينما كان الفأر جالسًا على مقعَدٍ ذي مسندَين قرب نار التدفئة ويغطُّ في النوم حينًا ثم يفيق فيُحاول أن يضبط قوافي شِعره التي لا تستقيم معًا، عقد الخُلد العزم على الذهاب إلى البراري واستكشافها بنفسه، وربما صادف السيد غُرير في طريقه وتعرف عليه وصادَقَه.

كان الوقت فيما بعد الظهيرة، والجو بارد والسماء فوق الرءوس مكفهرَّة يملؤها الغمام عندما انسلَّ خارجًا من الردهة الدافئة إلى الهواء الطلق. كان الريف أمامه خاويًا على عروشه والشجر حوله بلا أوراق على غصونه، وظن أنه لم يتعمَّق قبلُ في رؤية باطن الأشياء عن قربٍ كما رآها في هذا اليوم من أيام الشتاء؛ حين تكون الطبيعة غاطَّةً في سُباتها السنوي ويبدو أنها قد خلعت عنها ثيابها. فالغابات الصغيرة والوديان والمحاجر وكل الأماكن المخبَّأة التي كانت تقبع كبؤر غامضة أمام المُستكشفين في أيام الصيف المورقة، هي الآن عارية وقد انكشفَت أسرارها انكشافًا يبعث على الشفقة. كانت كأنها تتوسل إليه أن يغضَّ الطرف عن هيئتها الرثة تلك حينًا من الزمان حتى تستعيد تنكرها البراق وتعود فتخدعه ثانية. كان الوضع بائسًا، ولكن رغم ذلك كان به بعض البهجة التي تشرح الصدر. كان الخُلد سعيدًا أنه قد أحب الريف دون زينةٍ أو ألوان وقد تجرَّد من أناقته المعهودة؛ فقد اطَّلع عليه فرأى عناصره الأساسية أمامه كهيكلٍ عظمي، وقد كانت جميلة وقوية وبسيطة. لم تكن تروقه زهور النفل الرقيقة، ولا تمايل العشْب النامي؛

فقد كان المنظر في عينيه أفضل في غياب سياجات نبات الزعرور ودون غطاء شجر الزان والدردار الكثيف. وبتلك البهجة والروح العالية، انطلق مواصلًا سيره باتجاه البراري التي ترامت أمامه ساكنة ومنذرة بالأخطار، كأنها حيد بحري أسود وسط بحر جنوبي لا موج له.

في بادئ الأمر، لم يكن بالأرجاء شيءٌ يُنذره بالخطر. كانت الأغصان تتكسَّر مُطقطِقةً تحت أقدامه التي تعترضها جذوع الأشجار فتذلُّ أحيانًا، والفطر النابت عند أجذال الشجر بدا له كأنه رسوماتٌ ساخرة أدهشتْه مدة لتشابُهها مع شيء يألفه ولكن بعيدًا كل البُعد عن هنا، ومع هذا كان كل ذلك ممتعًا ومثيرًا. قاده الطريق وتوغَّل حيث قلَّ الضوء وتلاحمت الأشجار واحتضنَت بعضها أكثر فأكثر، وشكَّلت الحُفَر على جانبي الطريق ابتسامات قبيحة.

كان كل شيء هادئًا حتى الآن. بدأ الغسق يلوح في الأفق شيئًا فشيئًا باطراد، كأنه يجمع آخر خيوط النهار المبعثَرة من أمامه ومن خلفه، والضوء ينساب مبتعدًا كمياه الفيضان المنحسرة.

ثم بدأت الوجوه بالظهور من حوله.

كان أول وجهٍ ظن أنه قد رآه يوجد بمحاذاة كتفه وذا ملامح مطموسة؛ كان وجهًا صغيرًا مدبَّبًا كأنه وتدٌ يبثُّ شرًّا ويحدق به من داخل إحدى الحفر. وعندما التفتَ إليه ليُواجِهَه، اختفى ولم يعدْ له وجود.

بدأ يُسرع من وتيرة مشيه وأخذ يحدِّث نفسه مازحًا بألَّا يبدأ بتوهم الأشياء وإلا فسيَتفاقم الأمر ولن يقف عند أيِّ حد. ثم مرَّ بحفرة ثانية، ثم بثالثة وبرابعة، ثم قال: «أجل! لا! أجل! بالتأكيد رأيت وجهًا صغيرًا ذا عينين جامدتَين ظهر فجأة من إحدى الحفر ثم تلاشى.» بدأ يتردَّد ويَرتعِد، فأخذ يُطمئِن نفسه واستجمع قواه ومضى في طريقه بخطوات واسعة. ثم فجأة، بَدا أن كل الحفر قريبها وبعيدها، والتي كان هناك المئات منها، تَمتلئ بالوجوه التي تظهر ثم تختفي بسرعةٍ خاطفةٍ كأنها كانت تفعل ذلك منذ البداية، وجميعها ترمقه بنظرات تملؤها الكراهية والضغينة؛ نظرات حادة وجامدة تبثُّ شرًّا.

ظن أنه لو ابتعد عن تلك الحفر على أحد جانبي الطريق فلن يرى وجوهًا مرة أخرى، فانسل مبتعدًا من الطريق الرئيسي ودخل إلى الجزء غير المطروق من البراري.

ثم بدأ صوت الصفير بالانتشار حوله.

كان صوتًا ضعيفًا وحادًّا جدًّا، وكان يَصدر من خلفه بعيدًا عندما سمعه لأول مرة، وبطريقة أو بأخرى حثَّه الصوت على المضيِّ قُدمًا بسرعة. ثم جاءه الصوت مرة أخرى؛ ضعيفًا وحادًّا جدًّا؛ ولكن هذه المرة من أمامه، فتحير وتلجلج وأراد العودة إلى الخلف. وبينما هو واقف مكانه في حيرته، انطلق الصوت من كلا الجانبَين، وبدا أنه يدوي ويَنتشر في كل مكان على طول البراري حتى أقصى أطرافها. لقد بدا بوضوح أن أصحاب هذا الصفير، أيًّا ما كانوا، يَقِظون ومتأهِّبون، وكان هو وحيدًا أعزلَ وبعيدًا عن سبُل العون والمساعدة، والليل يُسدل ستائره على المكان.

ثم بدأ صوت الدبيب بالارتفاع من حوله.

ظن في البداية أن هذا الصوت الطفيف والرقيق كان صوت الأوراق المتساقطة، ثم أخَذ الصوت يَرتفع وصارت له وتيرة مُنتظِمة، عندها أيقن أن ذلك الصوت ما هو إلا إيقاعٌ لدبيب أرجل صغيرة على مَبعدة منه، ولكن هل هذا الصوت قادم من الأمام أم الخلف؟ تَراءى له أنه قادم من أمامه؛ لا، بل من خلفه، لا من كلا الاتجاهين. ارتفع الصوت وتضاعفَت قوَّتُه وصار يَصدُر من كل اتجاه حوله، وأخذ يسمعه باضطراب وقلق، ويتلفَّت يمنةً ويَسرةً وقد تأكَّد أن ذلك الصوت يقترب مضيِّقًا الخناق عليه. وبينما هو متحجِّر في مكانه مُسترقٌ السمع، خرج أرنب من بين الأشجار يعدو راكضًا باتجاهه. انتظر الخُلد مكانه متوقعًا أن يُبطئ الأرنب من سرعته أو يُغيِّر اتجاهه راكضًا في مسار مختلف بعيدًا عنه، ولكن أيًّا من ذلك لم يحدث. كاد ذلك الحيوان أن يوقعه على الأرض وهو يمرُّ بجانبه محتكًّا به، وكان وجهه جامدًا دون أي ملامح وعيناه جاحظتَين وقال: «اهرب من هنا، أيها الأبله! انجُ بنفسك!» سمعَه الخُلد يُتمتِم بهذا وهو يدور حول جذل شجرة ثم يختفي داخل جُحر بَدا مألوفًا له.

ازداد صوت الدبيب حتى صار كأنه وابل من الثلج انهال فجأة على ذلك البساط الجاف مِن أوراق الأشجار حوله. بدا له أن البراري كانت كلها تجري وتركض الآن؛ تركض بقوة لتَصطاد وتُطارد وتَقترب لتُطبِق على شيء ما — أو حيوانٍ ما! أصاب الذعر الخُلد، وبدأ هو الآخر يَركض ولكن بلا هدف؛ لا يعلم إلى أين السبيل. كان يركض قافزًا فوق أشياء لا يعرف ماهيتَها، ويَهوي فوق أشياء تارة وبداخلها تارة أخرى، وكان يَزحف من تحت أشياء ويُناور من حولها، وفي النهاية لجأ إلى تجويف عميق ومُظلم بداخل شجرة من أشجار الزان، وجد فيه حصنًا وسترًا؛ وربما أمانًا، ولكن من يَدري؟ على أي حال، كان الخُلد قد أنهكه التعب ولا يقدر على الركض لأبعد من هذا، بل كان كل ما يَستطيعه

هو أن يجمع أطرافه ويتدثَّر بتلك الأوراق الجافة التي انجرفَت إلى داخل التجويف آملًا أن يكون في مأمنٍ لبعض الوقت. كان يُنصت إلى أصوات الصفير والدبيب بالخارج، بينما هو راقد داخل التجويف يلهث ويرتجف، وقد أدرك ما الذي يحدث حوله أخيرًا، أدركه إدراكًا تامًّا لا لبس فيه؛ فهذا هو الفزع الذي عايَشه من قبل كل سكان الحقول وسياجات الأشجار من الحيوانات الضئيلة ممَّن جاءوا إلى هنا ووصفوه بأنه أحلك لحظات حياتهم؛ تلك التجربة التي حاول الفأر عبثًا أن يَحميَه من خوضها؛ إنها بلا شك «أهوال الحياة في البراري»!

في الوقت ذاته، كان الفأر، الذي كان مُستريحًا ومستدفئًا بنيران المدفأة داخل بيته، قد غلبتْه سِنَة من النوم وانزلقت الورقة التي كتب عليها أبياتًا لم ينتهِ بعد من ضبط قافيتها من على ركبته، وتدلَّى رأسه للخلف، وفتح فاه، وكان يتجول على الضفاف الخضراء الوارفة لنَهر أحلامه. ثم سقطت قطعة من قطع الفحم وعلا أجيج النار وطقطق الحطب المشتعل فارتفع لهيب النار واستيقظ الفأر على إثر ذلك منتبهًا. تذكَّر ما كان مشغولًا به قبل أن يغط في النوم، ومد يده ليلتقط ورقة أشعاره من على الأرض وطالَعها لبرهة، ثم نظر حوله باحثًا عن الخُلد ليسأله إذا ما كان يُمكنه ضبط قافية أحد الأبيات.

ولكن كان لا يُوجَد أي أثر للخلد.

أنصتَ لبعض الوقت، ولكن المنزل كان هادئًا وساكنًا.

ثم نادى عليه «يا خلدود!» عدة مرات، ولكن كان الصمت جوابه في كل مرة، فنهض واقفًا وخرج إلى صالة المنزل.

لم تكن قَلَنْسُوة الخُلد معلَّقة على مشبكها المعتاد، وخُفَّا الشتاء اللذان كانا يرقدان دائمًا بجانب سلة المظلات كانا قد اختفَيا أيضًا.

غادَرَ الفأر المنزل وأخذ يفحص الطبقة الطينية للأرض بالخارج بعناية آملًا أن يتمكَّن من اقتفاء آثار أقدام الخُلد. وقد كانت آثار الأقدام تقبع واضحة على السطح. كان خُفَّا الشتاء جديدَين، قد اشتراهما مع بداية أيام الفصل، وكانت حبيبات نعلهما ما زالت جديدة وحادة. كان يرى آثارهما على الطين، آثارًا تُنبئ بأنه كان يركض إلى الأمام وراء هدف ما دون تردُّد؛ كان يشق طريقه إلى البراري.

تجهَّمَ بشدةٍ وجهُ الفأر ووقفَ غارقًا في أفكاره لدقيقةٍ أو دقيقتين، ثم رجع إلى منزله وشدَّ حزامًا حول خصره وثبَّت فيه زوجًا من المسدَّسات، وتأبَّط نبوتًا سميكًا كان في ركن الصالة، وشرع في رحلته باتجاه البراري بنشاط ورشاقة.

كان الغسق على وشك الحلول عندما وصَل الفأر إلى أول صف من أشجار البراري، والتي اقتحمها دون تلكُّؤ وهو يبحث بتلهُّف عن أي علامة على جانبي الطريق تدله على صديقه. كانت هناك وجوه صغيرة يملؤها الشر تنبثق من الحفر ولا تلبث أن تَختفيَ هاربة عند رؤيتها لذلك الحيوان الشجاع ومسدسَيه ونبوتِه الضخم الذي يقبض عليه بيده. أما أصوات الصفير والدبيب التي سمعها بوضوحٍ مع أول قدم له داخل البراري، فقد خمدت ولم تعد تُسمع وكان كل شيء ساكنًا كالقبور. شق طريقَه ببسالةٍ بطول البراري حتى وصل إلى أبعد حافة لها، ثم هجر كل الطرق المعبَّدة التي قطعها وبدأ يفحص أرض البراري كلها، فحصًا مضنيًا وهو يُنادي بنبرة عطوفة: «يا خلدود! يا خلدود! أين أنت يا خلدود؟ إنه أنا؛ صديقك الفأر!»

ظل يجوب أرجاء البراري في صبرٍ لساعةٍ أو يزيد، عندما سمع أخيرًا صوتًا ضعيفًا أبهجه يرد عليه. أخذ يتتبَّع الصوت وهو يسير وسط الظلام المتراكم حتى وصل إلى جذع شجرة زان مُعمَّرة وبها تجويف كان يصدر من داخله صوت واهن يقول: «فأرون! أهذا أنت حقًّا؟»

انسلَّ الفأر داخل التجويف وهناك وجد الخُلد منهكًا وما زال جسده يرتعش، ثم انفجر في البكاء: «يا إلهي أيها الفأر، لقد كدتُ أموت من الخوف. أنت لا تتصوَّر ما حدث!»

رد الفأر بصوت حنون وقال: «لا عليك! أنا أتصوَّر ما حدث! كان عليك ألا تذهب وتأتي إلى هنا يا خلد. بذلتُ قصارى جهدي لأبقيكَ بعيدًا عن البراري؛ فنحن، ساكني الضفاف، نادرًا ما نأتي إلى هنا بمفردنا. وإذا اضطررنا أن نأتي، فلا نأتي إلا أزواجًا على الأقل، وحينها نكون بخيرٍ عادة. وفوق ذلك كله، هناك المئات من الأشياء التي يجب على المرء أن يعرفها؛ تلك الأشياء نعرفها نحن ونفهمها، بينما أنت ما زلت لا تعرف عنها شيئًا بعد. أعني بهذه الأشياء؛ كلمات مرور وإشارات، وعبارات لها قوة وتأثير، ونباتات تحملها معك في جيبك، وكلمات تُردِّدها بلسانك، ومناورات وخدع تتدرَّب عليها. كل ذلك يبدو سهلًا عندما تعرفه، ولكنه واجب المعرفة إن كنت صغير الحجم وإلا فستضع نفسك في مأزق. بالتأكيد لو كنت ثعلب الماء أو الغُرير، لاختلف الأمر تمامًا.»

تساءل الخُلد وقال: «بالتأكيد لن يُبالي العُلجوم الشجاع بأن يأتي إلى هنا وحده، أليس كذلك؟»

قال الفأر وقد أخذ يَضحك بانشراح: «العُلجوم العجوز؟ إنه لا يقدر أن يخطو خطوة هنا منفردًا ولو مقابل صرة من العملات الذهبية. إنه لا يقدر أبدًا!»

ابتهج الخُلد وانفرجت أساريره من صوت ضحك الفأر غير المبالي وبمنظر هراوته ومسدسَيه البراقين، وتوقف جسده عن الارتعاش وبدأ ينساب إليه إحساس بالجسارة وبدأ يعود إلى طبيعته مرة أخرى.

قال الفأر: «أما الآن، فعلينا أن نجدَّ ونمضي معًا عائدين إلى البيت بينما ما زال هناك ضوء ولو قليلًا في السماء. فلن يكون أمرًا محبذًا أن نبيت ليلتَنا هنا، وأنت تفهم ما أعنيه؛ فالجو بارد جدًّا على سبيل المثال.»

قال الخُلد المسكين: «أنا آسف يا فأروني العزيز! ولكني ببساطة منهوك القوى، تلك هي الحقيقة. عليك أن تدعني أرتاح هنا مدة أطول لأستعيد قواي؛ هذا إن كنت تريدنا أن نذهب إلى البيت هذه الليلة.»

رد عليه الفأر الطيب بدماثة خلق: «لا بأس. لقد حل الظلام الآن على كل حال، وسوف يسطع ضوء القمر عما قريب.»

افترش الخُلد الأوراق الجافة وتدثَّر بها جيدًا ومدَّ جسده وغط في نوم، لكنه نومٌ قلق ومضطرب. بينما اضطجَع الفأر وغطَّى نفسه هو الآخر بالأوراق مستدفئًا قدر ما استطاع، وانتظر في صبر ممسكًا في كفه بأحد المسدسَين.

عندما استيقظ الخُلد أخيرًا، كان أكثر انتعاشًا وقد استعاد طبيعته وقواه، قال له الفأر: «حسنًا إذن! سأُلقي نظرة لأرى إن كان كل شيء هادئًا، بعدها علينا أن نَمضي في طريقنا!»

ذهب إلى مدخل المأوى وأخرج رأسه، ثم سمعه الخُلد وهو يُحدث نفسه قائلًا: «مرحبًا! مرحبًا! أهلًا وسهلًا!»

سأله الخُلد: «ماذا هناك يا فأرون؟»

رد الفأر باقتضاب: «الثلج في كل مكان ويتساقَط بغزارة.»

أتى الخُلد وربض بجانبه ونظر خارجًا فرأى البراري التي كانت أرضًا للرعب والفزع من قبل وقد تغيَّرت تمامًا. فالحفر والتجاويف والبرك والشراك وجميع الأخطار الأخرى المحدقة بالعابرين كانت تَختفي بسرعة، وجيش لامع من الجنيات كان يظهر ويُغطِّي كل مكان كأنه بساط ناعم يغري تلك الأقدام الخشنة أن تخطو عليه. ملأ مسحوقٌ رقيق الهواء من حولهما، مسحوق يداعب الخدود بوخزةٍ لطيفةٍ بينما يلمسها، وتوهجت جذوع الأشجار القاتمة بضوءٍ بدا أنه يشعُّ من الأسفل.

قال الفأر بعد أن فكَّر مليًّا: «حسنًا، حسنًا، لا مفر لنا! أظن أن علينا أن ننطلق الآن ونفعل ما في وسعنا رغم كل شيء. إن أسوأ ما في الأمر هو أني لا أعرف أين نحن بالتحديد، والثلج يُغطِّي كل شيء ويجعله مختلفًا تمامًا.»

كان الثلج يجعل بالفعل كل شيء يبدو مختلفًا! فالخُلد لم يكن ليعرف أبدًا أنها البراري ذاتها التي جاء إليها قبل ساعات. انطلَقا بإقدام وسارا في الطريق الذي بدا أنه قد يُوصلهما لما يسعيان إليه، وهما يشدَّان من أزر بعضهما ويتصنَّعان في مرح أنهما قد رأيا صديقًا قديمًا في كل شجرة مرَّا عليها وحيتهما في صمت وعبوس، أو قد رأيا الحُفَر أو الفجوات أو الممرات وقد بدَتْ مألوفة أكثر بالنسبة إليهما. كانا يتصنَّعان المرح وسط رتابة الأراضي البيضاء وجذوع الأشجار السوداء التي تأبى أن تنتهي.

مرت ساعة أو اثنتان، وكانا قد فقَدا كل إحساس بالوقت، وتوقَّفا جانبًا في إرهاق وقد ثبطت همَّتهما وكانا تائهَين يتخبَّطان في الدروب بلا هادٍ. جلَسا على جذع شجرة مقطوعة يلتقطان أنفاسهما ويتشاوَران فيما سيفعلانه. كانا يئنَّان من الألم والإرهاق، والكدمات تملأ جسدَيهما شاهدة على عثراتهما؛ فقد وقعا في حفر كثيرة وابتلَّا خلال الطريق. كان الثلج كثيفًا حتى إنهما كان يجرَّانِ أرجلهما بصعوبةٍ خلال مشيهما وسطه. أما الأشجار فقد بدتْ أسمكَ وأغلظ وتشابهَت عن ذي قبل؛ فلم يعدْ بينها أي فرق. بدت البراري رتيبة وسرمدية، لا نهاية لها ولا بداية، وأسوأ ما فيها أنه لا سبيل لمغادرتها.

قال الفأر: «لا يُمكننا الجلوس هنا طويلًا! علينا أن نكمل طريقنا مرة أخرى وأن نُحاول أن نجد حلًّا ما. إن البرد قارص ولا يشجع على فعل أي شيء والثلج قريبًا سيكون أعمق ولن نستطيع أن نخوض فيه.» ثم دقَّق النظر فيما حوله وتفكر قليلًا ثم أكمل حديثه قائلًا: «اسمعني جيدًا! خطر ببالي فكرة. هناك مكان أشبه بوادٍ صغير أمامَنا، حيث الأرض تبدو جبلية ومُنحدِرة وكثيرة الروابي. سنشقُّ طريقنا إلى هناك ثم نبحث لعلنا نجد لنا مأوًى من الثلج والرياح في كهف أو حفرة لها قعر جاف، لنستريح قليلًا قبل أن نُحاول السير مرة أخرى؛ فنحن الآن منهوكا القوى. وحينها؛ ربما يَنحسِر الثلج أو يجدُّ جديد!»

وقفا مجددًا على قدمَيهما وتقدما بصعوبة وجهد تجاه الوادي الصغير حيث كانا يُفتشان عن كهف أو بقعة منزوية جافة تكون لهما وقاءً من الرياح الشديدة والثلج المتساقط. كانا يبحثان في إحدى الروابي التي أشار الفأر إليها، عندما تعثر الخُلد فجأة وسقط على وجهه وصرخ صرخة طويلة وحادة.

صرخ قائلا: «آهٍ يا رجلي! يا لقصبة ساقي المسكينة!» ثم جلس على الثلج يتحسَّسها ويدلكها بكفيه الأماميتين.

قال الفأر بعطف: «يا صديقي الخُلد المسكين! من الواضح أنك لم يكن لديك الكثير من الحظ الحسن اليوم، أليس كذلك؟ دعني أُلقِ نظرة على ساقك. على مهلك!» ثم نزل على ركبتَيه ليرى ما أصابه ثم قال: «لقد جرحت قصبة ساقك، هذا مؤكَّد. انتظر هنا ريثما أخرج منديلي وسأضمد به ذلك الجرح.»

قال الخُلد ببُؤس شديد: «لا بد أنني قد تعثرت في غصن خفي أو جذل شجرة! يا ويلي! يا ويلي!»

قال الفأر وهو يفحص الجرح مرة أخرى بحرص وعناية: «هذا جرح قطعي، لا تُحدِثه الأغصان ولا جذول الأشجار! يبدو أنك قد جرحت بحافة معدنية حادة لشيء ما! هذا غريب!» أخذ يفكر في الأمر لبرهة ثم فحص المنحدرات والمرتفَعات من حولهما.

قال الخُلد وقد تلعثم ونسي قواعد اللغة من شدة الألم: «لا تَشغل بالك بما تسبب في الجرح! فالألم ما زال هو نفسه، بصرف النظر عما تسبَّب في حدوثه.»

ولكن بعد أن ضمَّد الفأر ساق الخُلد جيدًا بالمنديل، تركه وانشغل في نبش الثلج والبحث فيه. كانت أرجله الأربعة تعمل بانهماك في الحفر والكشط والاستكشاف، بينما الخُلد يجلس منتظرًا وقد نفد صبره وضاق صدره فأخذ يصيح بالفأر بين الحين والآخر قائلًا: «ما الذي تفعله، أيها الفأر؟!»

صرخ الفأر فجأة وقال: «مرحى! مرحى، مرحى، مرحى!» وبدأ يرقص رقصة واهنة وسط الثلج.

سأل الخُلد وقال وهو ما زال يدلك ساقه: «ماذا وجدت يا فأرون؟»

قال الفأر مبتهجًا وهو ما زال يرقص: «تعالَ وشاهد بنفسك!»

قام الخُلد وأخذ يعرج حتى وصل إلى حيث يرقص الفأر وألقى نظرة فاحصة.

ثم قال أخيرًا ببطء: «حسنًا! أنا أراها بشكل جيد. رأيت هذه من قبل عدة مرات. أنا أراها شيئًا مألوفًا؛ إنها مكشطة أحذية! ماذا بها إذن؟ ما الذي يجعلك تتراقص فرحًا بسبب مكشطة أحذية؟»

صرخ الفأر من فوره وقال: «ولكن ألا ترى ما الذي تعنيه أيها ... أيها الحيوان الأبله؟»

رد الخُلد وقال: «بلا شك أرى ما الذي تَعنيه. ببساطة تعني أن حيوانًا طائشًا ومهملًا ترك مكشطة الأحذية خاصته ملقاة في وسط البراري فقط ليتعثَّر فيها كل من

دبَّ على الطريق. أراه فعلًا أرعنَ وأهوجَ! وعندما أصل إلى البيت، سأذهَب وأشتكي أمره لـ... لجهةٍ ما! سأفعل هذا بكل تأكيد!»

صرخ الفأر وقد يئس من غبائه: «يا عزيزي! يا عزيزي! توقَّف عن الثرثرة وتعالَ وابدأ بالحفر!» ثم شرع في العمل مجددًا وبدأ الثلج يتطاير حوله في كل اتجاه.

وبعد بعض العناء، كُللت جهود الفأر بالنجاح، وظهرت ممسحة أرجل مهترئة جدًّا أمامهما.

سأل الفأر في فرحة وانتصار: «انظر هناك! ألم أقل لك؟»

رد الخُلد بتلقائية شديدة وبصدق وقال: «أنت لم تقلْ لي شيئًا مطلقًا!» ثم أكمل: «والآن، يبدو أنك وجدت قطعة أخرى بالية من الأثاث المنزلي وقد رُميَت بعيدًا، وأرى أنك تطير فرحًا بهذا الاكتشاف. هيا! قم وارقص حول هذه القطعة أيضًا إن كنت تريد لنَنتهي من أمرها، وحينها ربما نمضي في طريقنا دون أن نضيع وقتًا أطول في البحث في أكوام المخلفات. أترى أننا يمكن أن «نأكل» ممسحة أرجل؟ أم هل يُمكننا النوم تحتها؟ أو حتى أن نجلس عليها ونتزلج على الثلج حتى نصل إلى البيت؟ أيمكننا أيها الحيوان القارض المزعج والمثير للغضب؟»

صرخ الفأر في دهشة: «هل — تقصد أن — تقول إن ممسحة الأرجل تلك لا توحي إليك بأي شيء؟»

قال الخُلد بحدة: «حقًّا يا فأر! كنت أظن أننا اكتفَيْنا من تلك الحماقات. أسمعت عن ممسحة أرجل توحي لأحد بأي شيء؟ ممسحة الأرجل لا تفعل هذا. هي ليست ممن يفعل هذا مطلقًا. ممسحة الأرجل تعرف وظيفتها جيدًا!»

رد عليه الفأر وقد انتفخت أوداجه غضبًا: «اسمعني جيدًا أيها ... أيها البهيمة البليدة الذهن! توقَّف عن الكلام، لا تنبس بكلمة أخرى ولا تفعل شيئًا غير الحفر! احفر وانبش واكشط وابحث جيدًا حولك، وخصوصًا عند جوانب الروابي إذا أردتَ أن تنام الليلة في مكان جاف ودافئ؛ فهذه هي فرصتنا الأخيرة!»

ثم هجم الفأر بحماسة على ركام من الثلج بجانبه، وأخذ يضرب بنبوتِه في كل مكان ثم يحفر والشرر يتطاير من عينيه. كان الخُلد منهمكًا في الحفر أيضًا، ولكنه كان يفعل ذلك لا لسبب آخر غير إرضاء الفأر؛ فقد كان يظن أن صديقه قد بدأ يفقد رشده وعقله.

بعد عشر دقائق من العمل الشاق، اصطدم مقدم نبوت الفأر بشيء بدا أجوف. أخذ يحفر حتى وصلت كفُّه إلى ذلك الشيء وتحسسته، ثم نادى على الخُلد ليُساعده. بذل

الحيوانان قصارى جهودهما، حتى برزت أخيرًا نتيجة كدِّهم على مرأى من الخُلد المندهش الذي كان حتى تلك اللحظة في ارتياب مما يفعله الفأر.

بجانب ذلك الشيء الذي بدا كأنه مُنحدَر ثلجي، كان هناك باب صغير ومصمَت مطليٌّ باللون الأخضر الداكن، وعلى جانب الباب مدقة جرس حديدية، وتحت الجرس كانت هناك لوحة نحاسية صغيرة نُقش عليها بخط جميل وبحروف واضحة ما يلي، والذي انعكس عليه ضوء القمر فتمكنا من قراءته: «السيد غُرير».

سقط الخُلد أرضًا على ظهره من فرط المفاجأة والسعادة، وصاح في ندم: «يا فأر! أنت أعجوبة! صدقني أنت حقًّا أعجوبة! لقد اتضح كل شيء الآن! أنت أنعمت التفكير في الأمر؛ خطوة بخطوة، منذ أن تعثرتُ أنا وجرحت قصبة ساقي وأتيتَ وفحصتَ الجرح، ثم أوحى إليك عقلك العبقري: «أنها مكشطة أحذية!» ثم ذهبت لتبحث عن تلك المكشطة التي جرحتني! ولكن هل تتوقَّف عندئذ؟ أبدًا. كان البعض ليكون فرحًا وراضيًا؛ لكن ليس أنت. انهمكت قواك العقلية في التفكير، ثم قلت لنفسك: «لأبحث أولًا عن ممسحة أحذية لتَكتمل أركان نظريتي!» وبلا شك وجدت ممسحة الأحذية؛ فأنت بارع حَذِق وأنا أؤمن أنك تستطيع أن تجد أي شيء تريده. ثم قلت لنفسك: «والآن، أنا أستطيع أن أتخيَّل الباب كأنه يقبع أمامي! لا شيء آخر أمامي إلا أن أجده!» لقد قرأت عن تلك المهارات العقلية الفذة في الكتب، ولكني لم أرَها في حياتي مطلقًا ولو مصادفة. صدقني، مكانك ليس هنا، وسطنا نحن هذا الغمر من الحيوانات العادية؛ يجب أن تذهب إلى حيث تُقدَّر قيمتك وتُعرَف أهميتك! لو كان لديَّ عقل مثل عقلك يا فأورن ...»

قاطعه الفأر دون مراعاة لمشاعره وقال: «ولكن بما أنك لا تَمتلكه، فأظن أنك ستظل جالسًا على الثلج تُثرثر طوال الليل، أليس كذلك؟ قم الآن وأمسك بمدقة الجرس الموجودة هناك واجذبها بقوة؛ بكل ما أوتيتَ من قوة، بينما أنا أطرق على الباب بالنبوت!»

بينما انهال الفأر بنبوته على الباب، كان الخُلد قد قفَز واقفًا وتعلق بمدقة الجرس وأخذ يجذبها حتى إن قدمَيه كانتا لا تلامسان الأرض تقريبًا. ثم سمعا من مكان بعيد صوت جرس خافتًا وعميقًا.

الفصل الرابع

السيد غُرير

انتظَرا — لما بدا — وقتًا طويلًا جدًّا بصبر وطول بالٍ وهما يَضربان الأرض بأقدامهما ليُحافِظا على دفء جسدَيهما. وأخيرًا، سمعا صوت أقدام في الداخل بطيئة ومتثاقلة تقترب من الباب، وقد بدا الصوت، كما قال الخُلد للفأر معلِّقًا، صوت حيوان يخطو في نعلٍ منزلي مهترئ وواسع لا يلائم مقاس قدمه. كان ذلك تخمينًا ذكيًّا من الخُلد؛ فقد كانت هذه هي الحقيقة بالضبط.

بعد ذلك سمعا صوت مزلاج الباب وهو يُزاح للوراء ثم فتح الباب فتحًا مواربًا ولكن كافيًا ليُظهر مَن وراءه أنفًا طويلًا وزوجًا من العيون النَّعِسة والخاملة.

علا صوت أجش وحَذِر وقال: «حسنًا، في المرة المقبلة عندما يحدث شيء مثل هذا سأَستشيط غضبًا. مَن الذي يطرق أبواب البيوت في تلك الساعة ليزعج سكانها في ليلة كهذه؟ من هناك، تكلم!»

صاح الفأر: «أيها الغُرير! اسمح لنا بالدخول، من فضلك! إنه أنا، الفأر وهذا صديقي الخُلد. لقد ضللنا الطريق وسط الثلوج.»

صاح الغُرير مندهشًا وقال بنبرة مختلفة: «من؟! فأرون! صديقي الصغير العزيز! تعالَيا، تفضَّلا بالدخول حالًا. لا بد وأن جسدَيكما قد تجمَّدا من البرد! عجبًا، لم يحدث لي أن ضللت طريقي وسط الثلوج وفي البراري أيضًا وفي هذا الوقت من الليل! على كل حال، تعاليا إلى الداخل معي.»

تدافع الحيوانان من شدة اللهفة وهما يهمان بالدخول إلى البيت، ثم سمعا الباب يغلق من ورائهما وقد انتابهما شعور بفرح غامر وراحة بعد عناء.

كان الغُرير يَرتدي رداء نوم طويلًا، وقد كان نعله مهترئًا جدًّا بالفعل ويحمل في يده شمعدانًا مسطحًا، وعلى ما يبدو أنه كان يستعدُّ لكي يأوي إلى فراشه عندما سمع

صوت طرقهما للباب وقرعهما الجرس. نظر إليهما برقة وحنو وربت على رأسيهما وقال بعطف أبوي: «هذه ليست ليلة مناسبة لحيوانَين صغيرين مثلكما ليقضياها بالخارج! أخشى أنك كنت تسعى وراء مغامرة طائشة من مغامراتك يا فأرون! على أي حال، تعاليا معي إلى المطبخ؛ فهناك نار كفيلة بتدفئتكما وعشاء لكما وكل ما تحتاجانه.»

جر قدميه أمامهما حاملًا الشمعدان ليُنير لهما الطريق، وتبعاه وهما يتدافعان بمرفقَيهما في ترقُّب، ويسيران في ممر طويل ومظلم، وفي الحقيقة، قذر، قادهما إلى ما يشبه قاعة رئيسية كانا يُمكنهما بصعوبة رؤية سراديب أخرى طويلة تشبه الأنفاق تنبثق منها؛ سراديب يغشاها الغموض وبلا نهاية ترى. وكانت هناك أبواب عديدة في تلك القاعة؛ أبواب ضخمة تسر الناظرين من خشب شجر البلوط. دفع الغُرير أحد تلك الأبواب ففتح، وعلى الفور وجدوا أنفسهم في أحضان مطبخ فسيح ودافئ مضاء بنيران المدفأة.

كانت الأرض مغطاة بقراميد حمراء بالية، وفي المدفأة الواسعة كان الحطب يوقد نارًا بين مدخنتين رائعتين دُفنتا داخل الحائط عند زاويتَي الغرفة مُبعَدتَين عن أي تيار هواء محتمل. وأمام النار كان هناك مقعدان متقابلان ذوا ظهرين عاليين يؤمِّنان راحة أكثر لهذه الجلسة الودودة. وفي منتصف الغرفة كانت هناك طاولة كبيرة عبارة عن ألواح خشبية مستوية موضوعة على حوامل، وعلى كل جانبٍ منها وضعت مقاعد للجلوس. وفي أحد طرفيها، كان هناك كرسي ذو مسندَين أزيح للوراء وكانت بقايا عشاء بسيط ولكن وافر في الوقت ذاته مبعثَرةً على الطاولة. وبرَقَت صفوف من الأطباق النظيفة من أرفف خزانة المطبخ في آخر الغرفة، وتدلَّى من السقف اللحم المجفَّف وحزم الأعشاب المجفَّفة وشباك البصل وسلال البيض. كان المكان يبدو كقاعة يحتفل فيها الأبطال بعد انتصاراتهم؛ أو حيث يجتمع الحاصدون المُنهَكون ليصطفُّوا حول الطاولة في مجموعات لينعموا بالمرح والغناء في وليمة أواخر موسم الحصاد؛ أو حيث يجلس صديقان أو ثلاثة أينما شاءُوا يأكلون ثم يدخنون ويتسامَرون في راحة بال واطمئنان. ابتسم قِرْميد الأرض المتورِّد إلى السقف المُفعَم بالدخان؛ وتبادلَت المقاعد اللامعة العتيقة المصنوعة من خشب شجر البلوط نظراتِ البهجة بعضها مع بعض؛ أما الأطباق في الخزانة فقد ابتسمت إلى القدور على الرفوف ابتسامة ناصعة، ورقص ضوء النار الرشيق وارتعش وتلألأ منعكسًا على كل شيء دون تفريق.

أجلسهم الغُرير الطيب على أحد المقعدَين ليَنعما بالدفء أمام نار المدفأة، وعرض عليهما أن يخلَعا معطفَيهما وحذاءيهما المبلَّلَين، ثم أحضر لكل واحد رداءَ نومٍ ونعلًا، ثم

نظَّف بنفسه قصبة ساق الخُلد المصابة بماء دافئ وضمد الجرح بضمادة لاصقة، حتى رجعت الساق سليمة ومعافاة كسابق عهدها، إن لم تكن أفضل. وفي أحضان الضوء والدفء، جلَس أخيرًا هذان الحيوانان اللذان دفعتْهما العاصفة إلى حيث هما الآن في مخدع آمن في دفء وجفاف وأقدامُهما ممدودة أمامهما، ويسمعان قعقعة الأطباق المثيرة وهي تُرتَّب خلفهما على الطاولة، وقد بدا لهما أن تلك البراري الموحشة والباردة التي خلفاها وراءهما عند الباب تبعد عنهما بُعد المشرقين، وأن كل تلك المعاناة التي قاسياها ما هي إلا حلم بالكاد يذكران أحداثه.

عندما جفَّا وحصَلا على قدرٍ كافٍ من الدفء، دعاهما الغُرير إلى المائدة، حيث كان مُنهمكًا في وضع الطعام. كانا قد شعرا بالجوع قبلًا، ولكن ما إن حطت أنظارهما أخيرًا على المائدة وما بُسط عليها من طعام العشاء، حتى دار في عقليهما سؤال واحد؛ أي طعام سيَنقضَّان عليه لالتهامه أولًا، حيث كل الأطباق على المائدة شهية، وهل ستتكرَّم بقية الأطباق وتنتظرهما حتى يُولياها اهتمامًا؟ كان الحديث على المائدة أمرًا مستحيلًا لوقتٍ طويل، وعندما استؤنف الحديث رويدًا رويدًا، كان حديثًا من تلك الأحاديث التي تستحق الندم على الخوض فيها؛ فقد كانا يتكلَّمان بِفاهَينِ مملوءين بالطعام. لم يُعارض الغُرير مثل هذه التصرفات مطلقًا، ولم يُعلِّق على وضع كلٍّ منهما مرفقيه على الطاولة أو أنهما كانا يتحدَّثان في الوقت نفسه. وحيث إن الغُرير لم يكن قد انخرط في المجتمع بنفسه، فقد ظن أن مثل هذه التصرفات من التوافه التي لا يُلقى لها بال. (نحن نعرف أنه مخطئ في هذا بلا شك ونظرته تلك كانت قاصرة؛ فهذه تصرُّفات في غاية الأهمية، وسنَستغرِق وقتًا طويلًا إذا أردنا أن نشرح لما هي بهذه الأهمية). جلس في مقعده ذي المسندَين على رأس المائدة، وأخذ يهزُّ رأسه موافقًا كل حِينٍ وآخر بينما يَحكي الحيوانان قصتهما؛ لم يبدُ عليه الاندهاش أو الصدمةُ من أي شيء قالاه. ولم يقل لهما: «لقد أخبرتكما بهذا من قبل.» أو «هذا ما قلته لكما مرارًا وتكرارًا.» ولم يشرْ إلى أنه كان عليهما أن يفعَلا كذا وكذا، أو كان عليهما ألَّا يفعَلا شيئًا مما فعلاه. ولهذا بدأ الخُلد يشعر بودٍّ واستلطاف لشخصية الغُرير.

عندما انتهى الحيوانان أخيرًا من تناول العشاء، كان كلٌّ منهما يشعر بأنه محشوٌّ بالطعام إلى حدِّ الامتلاء وأنه بأمان الآن؛ وفي ذلك الوقت لم يكن يهتم أي منهما قيد أنملة بأي شيء أو بأي أحد. جلسا إلى جوار الجذوة المتوهجة للنار المشتعلة في الحطب، ودار بخَلَدهما كم هو جميل السهر لوقت متأخِّر من الليل بلا رقيب ولا حسيب مع الامتلاء

بالطعام حد التخمة. وبعد أن دار بينهما وبين الغُرير حوار دام بعض الوقت حول أمور عامة، قال الغُرير بمودة: «والآن قصَّا عليَّ أخبار ذلك الجزء من العالم الذي تعيشان فيه. كيف هو العُلجوم وكيف حاله؟»

رد عليه الفأر على نحو جاد: «أوه، من سيئ إلى أسوأ!» بينما استقام الخُلد في جلسته قرب نار المدفأة متدفئًا بها، وكانت قدماه في مستوًى أعلى من رأسه، وحاول أن يبدو حزينًا ومتفجعًا كما يتطلَّب الموقف. ثم أكمل الفأر: «اصطدام واحد فقط خلال الأسبوع الفائت، وقد كان مروعًا. إنه لا يزال يصرُّ على القيادة بنفسه، وهو للأسف غير أهلٍ لهذا ولا أملَ فيه. ولو أنه استأجر حيوانًا رزينًا ومهذبًا وحسن التدريب وأعطاه راتبًا مناسبًا وترك له الأمر برمَّته، لأراح واستراح. لكن لا؛ فهو يظن في قرارة نفسه أنه سائق موهوب بالفطرة، وأن لا أحد أعلم منه ليُعلِّمه شيئًا يجهله.»

تساءل الغُرير على نحو عابس: «كم عددها؟»

رد عليه الفأر بسؤال آخر وقال: «أتقصد عدد الاصطدامات أم عدد السيارات؟ أوه، على أي حال، العددان مُتماثلان في حالة العُلجوم. فهذه هي السيارة السابعة. أما عما سبَقها، فإن كنت تعرف المرأب خاصته، فهو عبارة عن أكوام من الخردة؛ أكوام من أجزاء تلك السيارات مُكدَّسة بعضها فوق بعض حتى سقف المرأب، وأكبر جزء من تلك السيارات الست السابقة هو بحجم القلنسوة التي تَعتمرها! وهذا هو عددها حتى الآن!»

أضاف الخُلد: «لقد نُقل إلى المستشفى ثلاث مرات. أما المخالفات التي كان لزامًا عليه أن يُسدِّد قيمتها، فهي ببساطة شيء مُفزع إذا فكرت به.»

أكمل الفأر كلام الخُلد وقال: «أجل! وهذا جزء من المشكلة. إن العُلجوم ذو ثروة ومال، وجميعنا يعرف هذا، ولكنه ليس فاحشَ الثراء. إنه سائق طائش طيشًا لا رجاء معه، ولا يحترم النظام ولا القانون. وسيكون مصيره إن آجلًا أو عاجلًا أحد شيئين لا ثالث لهما؛ إما أن يموت وإما أن يُفلس. ألا ترى يا غُرير أننا أصدقاؤه وأن علينا أن نفعل شيئًا حيال هذا الأمر؟»

أخذ الغُرير يُمعن التفكير في الأمر لبرهة ثم قال أخيرًا بصرامة: «انتبِها جيدًا! أنتما بلا شكٍّ تعرفانِ أني لا أقدر على فعل أي شيء الآن، أليس كذلك؟»

صدَّق صديقاه على كلامه في فهم تام لوجهة نظره. فطِبقًا لآداب وقواعد التعامل بين الحيوانات، لا يُتوقَّع من أي حيوان أن يقدم على فعل أي شيء مُجهِد أو بطولي أو حتى يحتاج إلى مجهود محدود خلال فصل الشتاء؛ فصل الراحة؛ فالجميع يكونون

في حالة نعاس، وبعضُهم نيام بالفعل، والرياح والطقس السيئ يُحاصرهم بصورة أو بأخرى. والجميع ينعمون بالراحة بعد أيام شاقة وليالٍ مُجهدة تعرضت فيها كل عضلة من عضلات أجسادهم لأقصى الضغوط، وكل طاقة لديهم للنفاد.

أكمل الغُرير: «حسن إذن! ولكن حين تتبدَّل فصول السنة، وتصير الليالي أقصر ويستيقظ الواحد منا في منتصف الليل وهو يشعر بالملل ويظلُّ منتظرًا ظهور أول خيط من خيوط شمس الشروق، إن لم يَكُن قبل ذلك، بفارغ الصبر ليفعل شيئًا ما ... أنتما بالطبع تُدركان ذلك!»

أومأ الحيوانان برأسيهما في جدية؛ فقد كانا يُدركان ذلك!

أكمل الغُرير: «حينها إذن، سنذهب، وأعني بذلك أنا وأنت وصديقنا الخُلد، إلى العُلجوم ونتحدَّث معه بجدية ونتعامل معه مثلما يتطلب الأمر، ولن نسمح بأي حماقات مهما كانت. سنُرجعه إلى رشده، ولو بالقوة إن تطلب الأمر. سنُوجِّهه ليكون العُلجوم ذا العقل الرشيد. إننا ... هل أنت نائم أيها الفأر؟!»

رد الفأر بعد أن انتفَض مُستيقظًا: «لا! لستُ نائمًا!»

قال الخُلد وهو يضحك: «لقد غطَّ في النوم مرتين أو ثلاثًا منذ أن انتهينا من العشاء!» كان الخُلد يقظًا؛ بل كان يشعر بالنشاط يَسري في جسده، ولكنه لم يكن يعرف السبب وراء هذه الحيوية والنشاط. وقد كان السبب بكل تأكيد، أنه حيوان من الحيوانات التي تسكن باطن الأرض مولدًا ونشأة، وكان الوضع في بيت الغُرير يناسبه تمامًا، ويجعله يشعر كأنه في بيته، بينما الفأر، الذي كان ينام كل ليلة في غرفة نوم ذات نوافذ تطلُّ على نهرٍ كثير النسمات، شعر أن الجو هادئ وراكد وثقيل.

قال الغُرير وهو ينهض من مقعده ويُمسك بشمعدانَين مسطَّحَين: «حسنًا، ربما حان الوقت لنخلد جميعًا إلى النوم! تعاليا معي وسأُريكما مخدعكما. استيقِظا صباحًا وقتَما تشاءان؛ فالفطور في أي ساعة تريدان!»

قاد الحيوانَين إلى غرفة فسيحة، بدا نصفها كأنه غرفة نوم ونصفها الآخر كمخزن للغلال. مخزون الغُرير الشتوي كان في كل مكانٍ حولهما ويملأ نصف الغرفة، وقد كان عبارة عن أكوام من التفاح واللفت والبطاطس، وسلال ممتلئة بالجوز وجرات من العسل. أما السريران الصغيران اللذان افترَشا بقية الغرفة، فكانا ناعمين وفيهما إغراء جذاب، والمفارش الكتانية التي عليهما، مع أنها كانت خشنة، كانت نظيفة ورائحتها زكية كرائحة أزهار الخزامى. نزع الفأر والخُلد ملابسهما في ثوانٍ قليلة ثم أخَذا يتقلَّبان وسط مفارش السرير في سعادةٍ بالغةٍ ورضًا واطمئنان.

أخذ الحيوانان المُتعَبان بنصيحة الغُرير الطيب، وذهَبا إلى المطبخ ليتناوَلا طعام الفطور في وقتٍ متأخر من الصباح التالي ليَجدا نارًا وهاجة تستعر في المدفأة وقنفذَين صغيرَين يَجلسان على مقعد عريض أمام المائدة ويأكل كلٌّ منهما عصيدة شوفان في صحن خشبي. ترك القنفذان ملاعقهما وانتفَضا وقوفًا مُخفضَي رأسيهما في تحية واحترام للفأر والخُلد وهما يدخلان إلى المطبخ.

قال الفأر بلطف: «على راحتكما! اجلسا، اجلسا، وأكمِلا طعامكما رجاءً! ولكن من أين أتى الفتيانِ الصغيران؟ أأضللتُما طريقكما وسط الثلج؟!»

رد القنفذ الأكبر باحترامٍ وقال: «هذا صحيح يا سيدي! فأنا وأخي الصغير بيلي كنا نلتمس طريقنا إلى المدرسة؛ فأمُّنا تُوقظنا لنذهب إلى المدرسة مهما كان الطقس سيئًا. وكما ترى، لقد تُهنا يا سيدي، وانتاب بيلي شيء من الخوف وأخذ يَبكي؛ فهو صغير وما زال غرًّا. وفي نهاية المطاف وجدْنا أنفسنا أمام باب بيت السيد غُرير الخلفي، وتجرَّأنا على طرقه يا سيدي، لما يُعرَف عن السيد غُرير من أنه حيوان لطيف ورقيق القلب ...»

قال الفأر وهو يقطع بعض شرائح اللحم المجفَّف، بينما كان الخُلد يضع بعض البيض في قدر صغير: «فهمتُ الأمر!» ثم أضاف: «وماذا عن حالة الطقس بالخارج الآن؟ كما أنك لست في حاجة لمناداتي بلقب «سيدي» مطلقًا.»

رد القنفذ وقال: «يا إلهي! طقس مروِّع يا سيدي! الثلوج مرتفعة ارتفاعًا مخيفًا. لا أظن أن مثل طقس اليوم مُناسِب لسيدَين مثلكما ليَخرُجا فيه!»

تساءل الخُلد وهو يُسخن إبريق القهوة أمام النار: «ولكن أين هو السيد غُرير؟»

رد عليه القنفذ وقال: «لقد ذهب إلى غرفة المكتب يا سيدي. وقال إنه سيكون مشغولًا جدًّا هذا الصباح ولا يريد تحت أي ظرف كان أن يزعجه أحد.»

استوعب بالتأكيد جميع الحاضرين هذا التوضيح استيعابًا تامًّا. فالحقيقة هي، كما ذكرنا سابقًا، عندما تعيش حياةً تكدُّ فيها بشدة في ستة أشهر من السنة، ثم تسكن وتخلد إلى سبات تامٍّ أو شبه تام طيلة الستة أشهر الباقية، فأنت، كحيوان خلال فترة السبات، لا تَقدر على التحجُّج مرارًا وتكرارًا بأنك نعسان وتريد النوم بينما عليك مهامٌّ لتؤديَها وحيوانات حولك في كل مكان؛ فهذا العذر يصبح رتيبًا بمرور الوقت. كانت الحيوانات تعرف جيدًا أن الغُرير، بعد أن تناول فطورًا مُشبعًا، انزوى إلى غرفة المكتب وجلس على كرسيٍّ ذي مسندَين وأراح قدمَيْه بوضعِهما على كرسي آخر، ووضع منديلًا قطنيًّا أحمر اللون على وجهه، وانهمك «مشغولًا» فيما اعتاد عليه في هذا الوقت من العام.

سُمع صوتُ قرع جرس الباب الأمامي عاليًا، وطلب الفأر، الذي كانت يداه متسختَين بالدهن من الخبز المحمَّص المدهون بالزُّبد، من بيلي، القنفذ الأصغر، أن يذهب ليعرف من الطارق. كانت هناك أصوات خطوات متسارعة قادمة من الصالة، ثم ما لبث أن رجع بيلي ووراءه ثعلب الماء الذي هُرع إلى الفأر وعانقه وأخذ يَصيح بعبارات ترحيبية حارة ومحبة.

غمغم الفأر وفمُه ممتلئ بالطعام: «ابتعد عني!»

قال ثعلب الماء في سعادة: «أخبرَني حدسي أني سأجدكما بخير هنا! عندما ذهبتُ هذا الصباح إلى ضفة النهر، وجدت جميع الحيوانات هناك في حالة من الذعر والقلق. قالوا لي إن الفأر لم يرجع إلى بيته الليلة الماضية ولا الخُلد أيضًا؛ لا بد أن مصيبة قد حلَّت بهما، وبالتأكيد غطى الثلج كل الطرق أمامكما، ولكني كنت أعلم أن أي حيوان يقع في ورطة أو مأزق غالبًا ما يلجأ إلى الغُرير، أو أن الغُرير يعرف الأمر بطريقةٍ ما؛ لذا سلكت طريقي عبر البراري والثلج وجئت إلى هنا مباشرة. يا لها من متعة أن يكون طريقك مغطًّى بالثلج بينما الشمس المُلتهِبة تعلو في إشراقها خلف جذوع الأشجار السوداء! وبينما أنت تَمضي في طريقك وسط السكون، تُفاجَأ بين الفينة والأخرى بسقوط كتلةٍ من الثلج انزلقَت من الأغصان، مما يبثُّ الرعب في أوصالك، فتقفز فزعًا وتركض باحثًا عن مكان تختبئ فيه! ظهرت قلاعٌ وبيوت الثلج من العدم خلال الليل، كما بُنيت الجسور والمصاطب والأسوار أيضًا من الثلج ولم أكن لأشعر بالضجر لو قضيتُ ساعاتٍ وساعاتٍ ألعب حولها. في كل مكان حولي كنتُ أرى أغصانًا ضخمة قد كُسرت بسبب وزن الثلوج، وطيور أبي الحناء تتبختَر وتقفز عليها في مرح وغرور، كما لو أنها هي من كسرتْها وأسقطتْها. وقد مر سربٌ غير منتظم من الإوَزِّ البري فوقي محلِّقًا عاليًا في قلب السماء الرمادية، ودار عدد من الغِرْبان حول الأشجار وأخذَت تُفتِّش المنطقة ثم انطلقَت عائدةً إلى بيوتها وعلى وجوهِها نظرة اشمئزاز؛ لكنني لم أقابل أي حيوان راشد لأستطلع منه الأخبار. وعند منتصَف الطريق تقريبًا، قابلت أرنبًا يجلس على جذل شجرة ويُنظِّف وجهه المضحك بكفيه. كان خائفًا يَملؤه الذعر عندما تسلَّلتُ خلفه ثم وضعت أحد كفَّيَّ على كتفه بقوة. كان عليَّ أن أضربَه على رأسه مرةً أو مرتين حتى أحصلَ منه على أي معلومة مفيدة. وأخيرًا انتزعت منه معلومة وهي أن أحد الأرانب قد رأى الخُلد في البراري الليلة الماضية. قال إن هذا الأمر كان حديث كل الجحور تلك الليلة؛ كيف كان الخُلد؛ صديق الفأر المقرَّب، في ورطة شديدة، وكيف ضلَّ طريقه في الوقت الذي خرجوا هم فيه للصيد والمطاردة، وأخذوا

يحومون حوله ويُطاردونه. سألته: «لماذا إذن لم يُقدم أحدكم على «فعل» شيء؟ ربما لم يهبْكم الله ذكاءً وعقلًا رشيدًا، ولكن فيكم المئات من ذوي الأجساد الضخمة والقوية، وجحوركم تمتد في كل الاتجاهات! كان بمقدوركم أن تأخذوه عندكم وتُوفِّروا له مكانًا آمنًا ومريحًا، أو أن تُحاولوا فعل ذلك على الأقل!» وكان رده: «ماذا؟ نحن؟ نُقدم على فعل شيء؟ نحن الأرانب؟» لذلك ضربتُه مرة أخرى وتركته ومضيتُ في طريقي؛ فلم يكن باليد حيلة أخرى! على أي حال، لقد علمت منه شيئًا، وإن كان قدِّر لي وكنت محظوظًا كفاية لأقابل أحدًا منهم غيره، كنت قد علمت أشياء أخرى، أو كنت قد لقنتُه درسًا.»

سأله الخُلد وقد انتابَه شيء من فزع الأمس عند ذكر البراري: «ألم تكن ... خائفًا أو قلقًا مطلقًا؟»

رد عليه ثعلب الماء ضاحكًا وقد أظهر صفَّين لامعَين من الأسنان البيضاء القوية وقال: «خائفًا أو قلقًا؟ كنت لأزأر في وجوههم إن حاول أيٌّ منهم العبث معي. من فضلك يا خُلد، هلا تكرمت وقلَيت لي بعض شرائح اللحم المدخن؟ إنني أتضوَّر جوعًا، وفي صدري الكثير والكثير من الأشياء التي أريد أن أتحدَّث فيها مع فأرون؛ فأنا لم أرَهُ منذ دهر!»

أطاعه الخُلد المهذب وقطع بعض شرائح اللحم وأعطاها للقنفذَين ليَقلياها، ثم رجع وأكمل فطوره بينما كان الفأر وثعلب الماء يتجاذبان أطراف الحديث حول أخبار ضفاف النهر بلهفة وشوق، وهو حديث طويل وأخبار كثيرة لا نهاية لها. وظل الحديث يتدفَّق تمامًا كما تتدفَّق مياه النهر.

كان قد قُضيَ على طبق مليءٍ باللحم المقلي وأُرسلَ عائدًا طلبًا للمزيد، عندما دخل الغُرير يتثاءب ويَفرك عينيه، حياهم جميعًا بهدوء وبساطة كعادته، وسأل كلَّ واحد منهم سؤالًا لطيفًا عن حاله، ثم قال لثعلب الماء: «لقد اقترب موعد الغداء! تريَّث قليلًا حتى تتناوله معنا؛ فلا بد أنك جائع بعد هذا الصباح البارد.»

ردَّ عليه ثعلب الماء وهو يَغمز للخُلد وقال: «أود ذلك بكل تأكيد! فرؤية هذين القنفذَين النَّهِمين وهما يَلتهمان كل هذا اللحم المقلي أمر يُسيل اللعاب ويجعلني أتضوَّر جوعًا.»

نظر القنفذان، اللذان بدأ شعور الجوع يتسلَّل إليهما مجددًا بعد عصيدة الشوفان بعد أن بذَلا جهدًا مُضنيًا في قلْي اللحم لثعلب الماء، إلى الغُرير وقد اعتراهما الخوف، ولكن خجلهما الشديد منعَهما من قول أي شيء.

قال لهما الغُرير بعطف ورقة: «هيا أيها الصغيران! حان وقت الرجوع إلى المنزل لأمِّكما، وسأُرسل معكما حيوانًا ليَدُلكما على الطريق. أنا واثق أنكما قد مَلأتما بطنَيكما ولا تحتاجان أي غداء.»

ثم أعطاهما ستة بنسات وربَّت على رأسَيهما، وانطلق القنفذان بعد أن خفَّضا قَلَنْسُوتيهما احترامًا وتحية له.

جلسوا جميعًا حول المائدة لتناول الغداء. ووجد الخُلد نفسه جالسًا بجانب السيد غُرير، وبينما كان الحيوانان الآخَران ما زالا مُنهمِكين في أحاديث ضفة النهر انهماكًا لا يُمكن لأي شيء أن يصرفهما عنه، انتهز الخُلد الفرصة وأخبر الغُرير كيف أن منزله مريح ويُشعره أنه في بيته، ثم قال له: «عندما تكون آمنًا تحت الأرض، تعرف تمامًا أين أنت! لا شيء يُمكن أن يصيبك ولا يُمكن أن يصل إليك أحد. فأنت سيد نفسك تمامًا، ولا حاجة لك لأن تشاور أحدًا ولا أن تنتبه لكلامه. سترى الأشياء فوقك تَمضي في مسيرتها الطبيعية الرتيبة، وستدعها تَمضي ولا تُلقي لها بالًا. وحتى إذا أردت الخروج والانخراط في الحياة الخارجية، فإن الأشياء ستكون هناك بانتظارك!»

تبسَّم له الغُرير وقال: «هذا رأيي بالضبط! فلا أمان ولا سلام ولا هدوء ولا سكينة إلا تحت الأرض. وفرضًا، إذا ضاق المكان بك وبأفكارك وتُريد مكانًا أوسع، فما عليك إلا الحفر والنبْش قليلًا وها أنت ذا! وإذا شعرت أن بيتَك واسع ولا حاجة لك بكل تلك المساحة، فما عليك إلا ردم حفرة أو حفرتين وها أنت ذا مرة أخرى! لا عمال بناء ولا تعامل مع أصحاب الحرف، ولا تعليقات تَنصبُّ فوق رأسك من الرفاق بعد أن يتفحَّصوا حائطك، وعلاوة على كل هذا، أنت بعيد عن الطقس وتقلباته. انظر إلى الفأر كمثال؛ بضع أقدام من مياه الفيضان وسيضطرُّ إلى الانتقال للعيش في إحدى الغرف المفروشة بالإيجار؛ إنها غرف غير مريحة وتقع في مكان غير ملائم وذات تكلفة كبيرة جدًّا. انظر إلى العُلجوم كمثال آخر. أنا لا أعيب على منزل العُلجوم في شيء؛ فهو من أفضل المنازل في تلك الأرجاء. ولكن فرضًا أن حريقًا قد نشب فيه، أين سيذهب العُلجوم؟ لنَفترض أن بلاط الأرضية قد تكسر أو سقطت الحيطان أو تشقَّقت، أو تهشَّمت النوافذ، أين سيذهب العُلجوم حينها؟ لنَفترض أن تيار الهواء كان عاليًا في غرف المنزل — أنا أكره تيارات الهواء — أين سيذهب العُلجوم؟ لذلك دعْنا نتَّفق على أن المكان بالأعلى خارجًا هو مكان جيد للتجوُّل والتسكع ولإحضار خزين البيت مما يُقتات عليه، ولكن تحت الأرض هو المكان الذي نأوي إليه ونعود في النهاية. هذا هو تصوُّري عن البيت!»

أبدى الخُلد موافقته على كل كلمة من كلامه؛ ولذلك كان الغُرير ودودًا جدًّا معه وقال له: «عندما نُنهي غداءنا، سأصحبُك في جولة في منزلي المتواضع هذا. فأنا أرى أنك ستُقدِّر ما سترى! أنت تفهم المعمار الداخلي وما يجب أن يكون عليه البيت.»

بعد انتهاء الغداء، وبينما كان الحيوانان الآخران قد قعَدا بجانب المدفأة وانهمَكا في نقاشٍ حامٍ حول موضوع ثعابين الماء، أشعلَ الغُرير فتيل مصباح ثم أمر الخُلد أن يتبعه. عبَرا القاعة ودخَلا إلى أحد الأنفاق الرئيسية، وأنار ضوء المصباح المُرتعش جانبي النفق مُعطيًا لمحة عمَّا بهما من غرف صغيرة وأخرى كبيرة؛ بعضها ما هو إلا خزانات صغيرة، والبعض الآخر واسعٌ فسيحٌ وفخم، مثل قاعة الولائم في قصر العُلجوم، ثم قادهما ممرٌّ ضيق جهة اليمين إلى ممر آخر، وهناك تكرَّرت نفس الغرف صغيرها وكبيرها. ذهل الخُلد من حجم المكان واتساعه وتشعُّب طرقه وممراته؛ كان مندهشًا من طول تلك الأنفاق المظلمة، ومن الأقبية الصلبة لغُرَف التخزين الممتلئة، والأبنية الحجرية الموجودة في كل مكان، ومن الأعمدة والبوابات المقوَّسة والأرضيات المرصوفة. نطق الخُلد أخيرًا وقال: «يا إلهي! متى وجدت وقتًا وقوةً لتبنيَ كل هذا يا غُرير؟ إنه بيت مُذهِل!»

رد الغُرير ببساطة: «كان ليكون مذهلًا حقًّا، لو كنتُ بنيته بيدي! لكن، في الحقيقة، أنا لم أرفع حجرًا واحدًا من مكانه، ولم أفعل شيئًا سوى تنظيف الممرات والغرف التي كنت أحتاجها؛ فهناك المزيد والمزيد منها حولنا في كل اتجاه. أنا أرى علامات الحيرة على وجهك؛ لذلك عليَّ أن أُفسِّر لك الأمر. في قديم الزمان، هنا، في هذه البقعة التي نُسمِّيها البراري، وقبل أن تنمو أشجارها وتترعرع لتصير ما هي عليه الآن، كانت هناك مدينة؛ مدينة يسكنها البشر. على هذه الأرض عاشوا ودبَّت أرجلهم، وتكلموا، وناموا. هنا، في هذا المكان سعوا إلى أرزاقهم، وأراحوا جيادهم وأقاموا الولائم. ومن هنا، انطلقوا خارجين إلى معاركهم، أو محمَّلين بالبضائع للتجارة. كانوا أقوياء أشداء ذوي مال وثراء وبنَّائين مهَرة. شيدوا المدينة لكي تبقى لأنهم اعتقدوا أنها ستبقى للأبد.»

سأله الخُلد: «ولكن ماذا حلَّ بهم؟»

أجابه الغُرير: «من يَدري؟! ينزل البشر على مكان ما فيَمكُثون فيه حينًا من الزمان ويُعمرونه ويُشيدون البيوت، ثم يرحلون. هذا دأبهم. ولكن نحن نبقى. حُكيَ لي أن حيوانات الغُرير كانت تعيش هنا حتى قبل أن تُشيَّد تلك المدينة بوقت طويل. والآن وها نحن ذا، ما زلنا نسكن هذه البقعة. إننا جنسٌ باقٍ؛ ربما اضطررنا إلى الانتقال مدة،

ولكن ننتظر وننتظر في صبر وترقب، ثم نعود أدراجنا. هذا ما نفعله وما سنظل نفعله أبد الدهر.»

سأل الخُلد: «عجبًا! ولكن متى رحل هؤلاء البشر في النهاية؟»

أكمل الغُرير كلامه: «متى رحلوا؟ تولت أمرهم الرياح العاصفة والأمطار المنهمرة سنة بعد سنة بصبرٍ ودون انقطاع. وربما نكون، نحن حيوانات الغُرير بأحجامنا الصغيرة، قد ساهمنا أيضًا ولو بالشيء اليسير، من يدري! انهار كل شيء شيئًا فشيئًا؛ صارت البيوت أطلالًا ثم سويت بالأرض ثم ذرتها الرياح بعيدًا. ثم عادت الحياة للأرض شيئًا فشيئًا؛ فنمَت البذور إلى شجيرات، واستطالت الشجيرات إلى غابات، وزحفت شجيرات السرخس والعليق لتمدَّ يد المساعدة. تساقطت أوراق الأشجار حتى غطت الأرض وتعفَّنت ثم تحلَّلت وانمحَت، وجعلت تياراتُ الأنهار في فيضانات الشتاء الرمال والطَّمي يتراكمان ويُغطيان كل شيء، ومرت الأيام وتعاقبت السنون حتى صار بيتنا مهيَّئًا لنا مرة أخرى وانتقلنا إليه. فوقنا على سطح الأرض، حدث الشيء ذاته؛ قدم الحيوانات من كل حَدَب وصَوْب ونال المكان إعجابهم، فآوى كل واحد منهم إلى ركنٍ واستقروا وتكاثروا وازدهروا. لم يعبئوا بأحداث الماضي ولم يفعلوا ذلك قط؛ فهم مشغولون جدًّا. كانت طبيعة الأرض حينها ذات مرتفَعات وهضاب ومليئة بالحفر، ولكن كان ذلك في مصلحتهم. وهم لا يُعيرون المستقبل أي اهتمام كما الماضي مثلًا بمثل؛ المستقبَل حين يُمكن أن نشهد البشر وقد قرَّروا أن يَنتقلوا ليعيشوا هنا حينًا آخرَ من الزمان، وهو شيء وارد. إنَّ البراري مكتظة بالسكان من كل الفصائل والأنواع؛ فهناك، دون ذكر أسماء بعينها، الطيب الصالح وهناك الخبيث الطالح وما بين هذا وذاك؛ فلا يستقيم للدنيا أمرها إلا بوجود كل هؤلاء معًا. أظن أنك قد تعرفت عليهم بعض الشيء بنفسك.»

رد الخُلد وقد سرت في أوصاله رعشة خفيفة: «نعم! لقد فعلت!»

قال الغُرير وهو يُربِّت على كتف الخُلد: «حسنًا يا فتى! لا بأس؛ فقد كان ذلك أول لقاء لك معهم. وكما رأيت، هم ليسوا سيِّئين تمامًا، وعلينا أن نعيش وندع الآخرين يعيشون. سأنشر خبر صداقتنا غدًا وسط الحيوانات وأظن أنك لن تواجه أي متاعب بعد الآن. فأي صديق لي يذهب إلى حيث شاء في هذا المكان، ومن يعترض طريقه، فعليه أن يُواجهني أنا شخصيًّا!»

عندما رجَعا مرة أخرى إلى المطبخ، وجَدا الفأر وقد بلغ منه القلق ما بلغ وأخذ يَذرع المكان جيئة وذهابًا. كان الجو في باطن الأرض خانقًا له ويضغط على أعصابه، وبدا عليه خوفٌ شديدٌ كأن النهر قد يَنضب ويجري ماؤه بعيدًا إن لم يكن موجودًا ليَعتنيَ بأمره

ويُراعي شئونه؛ لذلك كان مرتديًا معطفه ومسدَّساه مُثبتان في حزام حول خصره مجددًا، وقال في توتُّر عندما لَمحهما قادمَين: «هيا بنا يا خُلد! علينا أن نمضيَ في طريقنا بينما ضوء الشمس ما زال ساطعًا. فأنا لا أريد أن أقضي ليلة أخرى في البراري!»

قال ثعلب الماء: «لا تقلق يا صديقي العزيز! سآتي معكما في رحلتكما، وأنا أحفظ طرق البراري عن ظهر قلب، وإذا ما واجَهَنا شيء يستدعي العراك، فدعِ الأمر لي؛ إذ يُمكنك الاعتماد عليَّ في ذلك!»

قال الغُرير بهدوء: «لستَ بحاجة إلى القلق يا فأرون! فأنفاق بيتي وممراته تمتد إلى أبعد مما تتصوَّر، ولديَّ مخارج عند حافة البراري في اتجاهاتٍ عدة، ولا أهتم إن عرف مكانهم أحد. عندما تريد حقًّا أن تُغادر، فيمكن أن تسلك أحد تلك الممرات المختصرة. أما الآن، فدع عنك القلق واقعد واستَرِح!»

لكن الفأر كان ما زال قَلِقًا يتلهَّف للمغادرة ويتوق للقاء نهره؛ لذا حمل الغُرير مصباحَه مرة أخرى وقادهم إلى نفق متعرِّج رطبٍ لا هواء فيه وذي انحدار شديد، كان جزء من النفق مَقبوًّا، والآخر منحوتًا وسط الأحجار الصلبة. كان الطريق وعرًا ومُرهِقًا كأنهم قد ساروا أميالًا بعد أميال. وفي النهاية، بدأ ضوء النهار يَنسلُّ في خجل من بين الأغصان المتشابكة التي تتدلى من فوهة النفق، وودَّعهم الغُرير وداعًا سريعًا ثم دفعهم في عجلة من الفوهة، ولملَمَ بعض جذور النباتات المتسلِّقة وبعض الأغصان والأوراق الجافة وبذل ما بوسعه ليُعيد كل شيء كما كان قبلًا، ثم عاد أدراجه إلى بيته.

وجدوا أنفسهم يقفون على حدود البراري. وخلفهم تقبع الصخور وشجيرات العليق وجذور الأشجار بعضها خلف بعض ومتشابكة. وأمامهم امتدت أرضٌ شاسعة من الحقول الساكنة التي تُحيط بها سياجات من الشجيرات التي تبدو سوداء قاتمة مع بياض الثلج. وخلف تلك الحقول، تلألأ وميضُ مياه النهر المألوف، وكان الوقت أصيلًا وشمس الشتاء راقدة فوق الأفق في حمرة. وبما أن ثعلب الماء كان يعرف الطرق كلها، تولى أمر قيادة المجموعة فاصطفُّوا كسِرْب من النحل ليَعبُروا إحدى البوابات التي تقترب. توقَّفوا هناك للحظةٍ ونظروا خلفهم فرءوا أرض البراري كاملة، والتي كانت تبدو ككتلةٍ كثيفةٍ ومتلاحمةٍ تقبع عابسة ومتوعِّدة وسط محيط واسع من بياض الثلج المتساقط. أداروا وجوههم على الفور ومضوا مُسرِعين في طريقهم إلى البيت حيث ضوء نار المدفأة الذي يَنعكس على الأشياء والمقتنيات التي اعتادوها، والأصوات البهيجة التي تملأ المكان

خارج النافذة، وحيث النهر الذي يعرفونه ويثقون فيه في كل أحواله؛ ذلك النهر الذي لم يجعلهم يومًا خائفين أو مَذعورين.

وبينما كان الخُلد مجدًّا في سيره يستعجل اللحظة التي يكون فيها في أحضان بيته ووسط كل ما اعتاد عليه وأحبَّه من الأشياء، أدرك أنه بلا شك حيوانٌ يَنتمي إلى الأراضي الزراعية المحروثة، وسياجات الأشجار، وأنه مُرتبِط بالمراعي التي يرتادها، وأماكن جلسات السمر الطويلة والحدائق المزروعة. أما المشقات أو الجلَد أو صدام الصراع الواقعي المُرتبط بالوجود في الأراضي الوعرة، فعليه أن يأخذ حذره منها، وأن يلزم الأماكن اللطيفة التي خُطَّت حدوده عندها؛ فتلك الأماكن تحمل في طياتها وبأسلوبها الخاص من المغامَرات ما يَكفيه لبقية حياته.

الفصل الخامس

ما أحلى البيت!

بينما كانت الخِراف تركض في تزاحُمٍ متدافعةً باتجاه أسوار المرعى وتنخر الهواء من مناخرها الرقيقة وتضرب الأرض بحوافر قوائمها الأمامية الرشيقة ورءوسها محنية للخلف، وشعاع من الضوء يفيض خارجًا من داخل المرعى إلى السماء المثلجة، كان الحيوانان يجدَّان في المشي بمعنويات مرتفعة مع كثير من الثرثرة والضحك. كانا عائدَين عبر الريف بعد يوم قضَياه مع ثعلب الماء في الصيد والاستكشاف في رحاب الأراضي المرتفعة الشاسعة، حيث كانت تنبثق ينابيع بعض الروافد التي تُغذِّي نهرهم. بدأ ضوء نهار الشتاء القصير بالانسحاب شيئًا فشيئًا، وما زالت أمامهما مسافة كبيرة ليقطعاها. كانا يتهادَيان في مشيتهما عبر الحقول المحروثة عندما سَمعا صوت الخراف وسارا باتجاهها؛ ثم عبَرا مرعى الأغنام هذا، ووجدا نفسيهما على طريق ممهَّد جعل من السير أمرًا أسهل، كما أنه أجاب بوضوح عن ذلك التساؤل الغريزي البسيط الموجود في صدر كل حيوان قائلًا: «أجل، أنت محقٌّ تمامًا؛ هذا الطريق يقودك إلى البيت!»

قال الخُلد بنبرة متشكِّكة بعض الشيء وهو يُبطئ من مشيته: «يبدو وكأننا متجهان إلى قرية ما!» كان الطريق الذي يَسلُكانه قد تفرع في ذلك الوقت إلى درب ثم قادهما الدربُ إلى ممرٍّ أوصلهما إلى طريق آخر معبد ومرصوف، لكن الحيوانات لم تكن تحب القرى وكانت طرقها السريعة، نظرًا لأنها كانت تقصدها كثيرًا، تأخذ مسارًا مستقلًّا دون اعتبار للكنيسة أو مكتب البريد أو الحانة.

رد الفأر: «أوه، لا تشغل بالك! ففي هذا الفصل من فصول العام، يكون الجميع بأمانٍ داخل المنازل في ذلك الوقت؛ إذ يلتفُّ الكل حول النار؛ الرجال والنساء والأطفال والكلاب والقطط. سوف نتسلَّل من هناك دون إثارة أي ضجة أو شجار، كما يُمكننا، إن أردت، أن نختلس نظرة من خلال نوافذهم لنرى ماذا يفعلون.»

هجم ليل منتصَف ديسمبر العَجُول على القرية الصغيرة في الوقت الذي اقتربا منها بخُطًا خفيفة على تباشير بلورات الثلج الناعمة. لم يكن هناك شيء مرئي إلا مربعات امتدَّت على جانبي الشارع، صُبِغت لونًا كلَون السماء ساعة الغسق، حيث كان يفيض الضوء المنبعث من نيران المدافئ أو ضوء القناديل في تلك البيوت الريفية من خلال النوافذ إلى العالم الخارجي المظلم. كانت معظم النوافذ السُّفلية ذات العوارض مكشوفة تمامًا بلا ستائر، ويبدو لمن يُطالع المشهد من الخارج أن هؤلاء النزلاء، سواء المُجتمِعون منهم حول طاولة الشاي أم المُنغمِسون في العمل اليدوي أو المنهمكون في الحديث والضحك والإيماءات، قد أُلبِسوا لباسًا من الرضا المزوج بالعفوية، في حالة لا يُمكن أن يضاهيها إلا المخضرم من المُمثلين؛ تلك العفوية الطبيعية التي لا يكون معها إلا حالة مثالية من عدم التصنُّع أو إجهاد الفكر. انتقل المُشاهِدان البعيدان كل البعد عن بيتهما، بحرية من مسرح إلى آخر، وهما يشعرانِ بحنينٍ يصاحبه انكسارٌ في أعينهما كلَّما شاهَدا قطًّا يُداعَب، أو طفلًا ناعسًا يُحمل إلى سريره، أو رجلًا يتمدَّد وينفض غليونه على حطبٍ يحترق ببطءٍ دون دخان.

ولكن حين مرا على نافذة صغيرة أُسدل ستارها لتصير محض قطعة صافية من الليل، فاض الكيل وتملكهما حنين شديد إلى البيت وحرمة العالم الصغير بين جدرانه؛ تلك الجدران التي تُنسيك وأنت في أحضانها ذلك العالم الخارجي الواسع بطبيعتِه المجهدة وتمنعه عنك. خلف ذلك الستار الأبيض، كان ظل قفص عصفور معلَّق واضحًا؛ كان كل ضلع فيه، والقصب التي يقف عليها العصفور وملحَقات القفص؛ جميعها كانت ظاهرة ويسهل تمييزها حتى من عجوز كليل البصر. بدا الطائر الجالس على القصبة الوسطى، الذي كان منفوش الريش ورأسه مدفون فيه، قريبًا جدًّا منهما حتى إنهما كانا لَيضربانه دون عناء إن أرادا ذلك، وكانت الأطراف الدقيقة والناعمة لريشِه المنفوش كأنها خطوطٌ دقيقةٌ مرسومةٌ على الستار المضيء. وبينما ينظران إليه، ارتعش صديقنا الصغير الغارق في النعاس رعشة قَلِقة استيقظ في إثرها، ثم نفض جسده ورفع رأسه من مخدعها. كان بإمكانهما رؤية فتحة منقاره الصغير وهو يتثاءب تثاؤب الضجر. نظر حوله ثم أراح رأسه إلى الخلف مرة أخرى بينما سكن ريشه المضطرب شيئًا فشيئًا حتى ثبت كأنه صنم. حينذاك، هبَّت هبة ريح فلفحَت قفويهما، وأيقظتْهُما لسعةٌ خفيفةٌ من الصقيع من حلمهما، وقد انتبها إلى أن أصابع أقدامهما قد تجمَّدَت وخدلت سيقانهما والبيت بعيد بُعدَ المشرق والمغرب.

بعد أن خلَّفا القرية وراءهما وأقفرت الأرض من البيوت على ظهرها، فاحت رائحة الحُقول الودودة من جانبي الطريق مرة أخرى. كانا يملآن رئتَيهما بها في ظلمة الليل وهما يستجمعان قواهما ويَستعدَّان لمسيرةٍ طويلةٍ هي الأخيرة في رحلتهما؛ المسيرة إلى البيت؛ تلك المسيرة التي نعرف يقينًا أنها ستصل إلى نهايتها في وقتٍ ما، حين نسمع صوت قعقعة مزلاج الباب وهو يفتح، ثم نرى نيرانًا فجائية في المدفأة وتُبصِر أعيننا كل الأشياء المألوفة وهي تُحيِّينا كرحَّالةٍ قدموا من أعالي البحار بعد أن طالَت غيبتهم. ضرَبا في الأرض بخُطًا ثابتة وفي صمت تام؛ كان كل واحد منهما غارقًا في أفكاره الشخصية. كان الخُلد يُمنِّي نفسه بعشاء وافر؛ فقد كانا يسيران في ظلمة حالكةٍ بين جنبات بلدة غريبة عنهما على حدٍّ علمه، وكان يَتبع الفأر منقادًا لرأيه وتاركًا أمر القيادة كليًّا لحنكته. أما الفأر، فقد كان كعادته متقدمًا قليلًا في سيره، وكتفاه محنيَّان وعيناه مثبَّتتان على الطريق الرمادي الممتد أمامه، ولذلك لم يلحظ الخُلد المسكين عندما بلغتْه أصوات الاستدعاء على حين غرة، ونزلت عليه كالصاعقة.

نحن الكائنات الأخرى، الذين فَقدوا منذ فترة طويلة الحواس الطبيعية الدقيقة، لا نملك حتى المصطلحات التي نُعبِّر بها كما ينبغي عن آليات التواصل بين الحيوانات وما يُحيط بها، سواء كان حيًّا أم غير ذلك، وكل ما لدينا هي كلمة «يشتمُّ» التي نَصِف بها بوتقة من النشوات المرهَفة التي تُدندن في أنف الحيوان ليلًا ونهارًا؛ تستدعيه تارة وتُحذِّره تارة أخرى، تُثيره أحيانًا وتنفره أحايين. كان ما أحسه الخُلد وانتابه فجأة وسط الظلام هو أحد تلك النداءات الخيالية الغامِضة القادمة من الفراغ. كان نداءً ذا جاذبية مألوفة للغاية جعل جسده يرتعش ويشعُر بوخزٍ خفيف، مع أنه لم يكن يَدري ما هو على وجه التحديد. وقَف في طريقه كأن على رأسه الطير، وأنفه تبحث هنا وهناك بأسلوب عشوائي محاولة أن تستردَّ طرف ذلك الخيط الدقيق، ذلك التيار البرقي الذي هزه هزًّا شديدًا. مرَّت دقيقة ثم عثر على طرف هذا الخيط مرة أخرى، ولكن هذه المرة انهمَر طوفان من الذكريات وفاض.

البيت! كان هذا هو معنى ذلك الشيء الذي كان يُغلِّفه بغلاف العطف والألفة، تلك النسمات الرقيقة التي تفوح في الهواء محرِّكة مشاعره؛ تلك الأيادي الخفية التي كانت تجذبه وتشده شدًّا عنيفًا إليها؛ كلها تدفعه في اتجاه واحد! لماذا؟ لا بد أن البيت كان قريبًا منه في تلك اللحظة، بيته القديم الذي تخلَّى عنه على عجَل ولم يقصده مجددًا منذ ذلك اليوم الذي اكتشف فيه النهر! أما الآن، فها هو البيت يُرسل كشافته ويَبعث رسله

للقبض عليه وإعادته إلى أحضانِه مرة أخرى. فمنذ هروبه في ذلك الصباح المشرق، لم يُفكِّر في الأمر ولو لوهلة؛ فقد كان مُنغمسًا في حياته الجديدة حتى أخمص قدميه وما بها من مُتَع ومفاجآت، وتجارب ساحرة وخلابة تُنعِش الروح. أما الآن، وبعد طوفان من الذكريات القديمة، كان البيت بكل تفاصيله واضحًا أمامه في هذه الظلمة كالشمس في كبد السماء! إنه بيت في واقع الأمر رث، وضيق وذو أثاث رديء ولكن مع هذا كله، هو لا يزال بيته الذي بناه بنفسه وكان سعيدًا جدًّا بالرجوع إليه بعد دوام العمل. وكان من الجليِّ أن البيت سعيد هو الآخر باحتضانه، بل ويَفتقدُه ويُريد عودته ويلحُّ عليه بذلك عن طريق أنفه، يُخبره بذلك بحزنٍ وأسًى وعتابٍ وتوبيخٍ، لكن دون أن يقسوَ عليه أو يَغضب منه. كان فقط يُنبِّهه في توجُّع إلى وجوده وأنه يريده.

كان النداء واضحًا والاستدعاء صريحًا وعليه أن يُطيعه في الحال ويتبعه. نادى وهو في قمة البهجة وقال: «فأرون! انتظر قليلًا! ارجع، فأنا أريدك حالًا، هيا أسرع!»

ردَّ عليه الفأر بمرح وهو ما يزال يخطو للأمام: «يا إلهي! هيا تحرَّك يا خُلد؛ الآن!»

توسل إليه الخُلد المسكين وقلبه يكاد ينفطر: «توقَّف رجاءً يا فأرون! أنت لا تفهم الأمر؛ إنه بيتي، بيتي القديم! لقد مرت رائحته أمام أنفي للتوِّ وهو قريب من هنا، قريب جدًّا. «يجب» عليَّ أن أذهب إلى هناك، أجل، يجب عليَّ ذلك! عُد إلى هنا يا فأرون! رجاءً، أتوسَّل إليك أن تعود!»

في ذلك الوقت كان الفأر قد قطع شوطًا كبيرًا للأمام؛ بعيدًا جدًّا فلم يسمع ما يُخبره به الخُلد، وبعيدًا أيضًا فلم يميز النبرة الحادة في صوته وهو يُناشده بإيلام. كان الفأر مشغولًا بالطقس؛ لأنه هو الآخر كان يشتمُّ شيئًا ما؛ شيئًا غامضًا ومثيرًا للشكوك مثل اقتراب سقوط الثلج.

رد الفأر على الخُلد وقال: «علينا ألَّا نتوقَّف الآن يا خُلد! سنأتي غدًا لنرى أيَّما ما وجدته، لكن لا يجدر بنا التوقف الآن أبدًا؛ فالوقت متأخِّر والثلوج ستَنهمِر عما قريب مرةً أخرى، ولست أحفظ طريقنا هذا! كما أني أريدك أن تستعمل حاسة شمِّك يا خُلد؛ لذلك أسرع وتعالَ إلى هنا أيها الشاب المطيع!» واستمر الفأر مسرعًا في طريقه دون أن يَنتظِر أي رد.

وقف الخُلد المسكين بمفرده في الطريق وقلبه منفطِر، وقد أخذ ينشج وفيض من الدموع يتراكم عميقًا بداخلِه شيئًا فشيئًا وهو يعلم أنه يفرُّ إلى عينيه في عاطفةٍ متأجِّجةٍ عما قريب. ولكن حتى في ظل هذا الاختبار القاسي لولائه لصديقه، وقَف موقفًا ثابتًا؛ فلم

يمرَّ بخاطره قطُّ أن يَهجره. وفي غضون هذه اللحظات، كانت رائحة بيته القديم تهبُّ في تضرُّع وتُناشده وتهمس له، وفي النهاية طلبَت قدومه بإلحاح. لم يجرؤ على التلكُّؤ أكثر وسط دوامته السحرية هذه. طأطأ رأسه إلى الأرض وصدره يَعتصر ألمًا مزَّق أوتار قلبه ثم اتَّبع خُطا الفأر مُذعِنًا مُطيعًا، بينما كانت الروائح الخفيفة المنبعثة من بيته ما تزال تطارد أنفه المنسحب وتؤنِّبه على صداقته الجديدة تلك وعلى فظاظة قلبه.

ببعض الجهد، استطاع الخُلد أن يلحق بالفأر الذي لم يكن يعي جيدًا ما يحدث، وبدأ يُحدِّثه بابتهاج عما سيفعلانه عند وصولهما إلى البيت، وكم من بهجةٍ سيَحظيان بها عند إشعال الحطب في مدفئة الردهة، وطعام العشاء الذي تَتُوق إليه شهيته؛ ولم يلحظ قطُّ صمت رفيقه ومزاجه العكر. أخيرًا وبعد مدة، توقَّف الفأر عندما مرَّا على بعض جذول الأشجار عند حافة أجمة كانت تحفُّ بالطريق، وقال له بعطف: «اسمعني جيدًا يا خُلد! يبدو عليك الإرهاق الشديد يا صديقي العجوز؛ فلم يعدْ لسانك قادرًا على الكلام، وقد أخذْتَ تجرُّ قدميك من شدة التعب. سنَجلِس هنا برهة لنستريح، فها هو الثلج قد تأخَّر ولم يَهطل حتى الآن، وقد مضى أفضل الأجزاء من رحلتنا، ولم يبقَ إلا القليل.»

أراح الخُلد جسده في يأسٍ على جذل شجرة وهو يُحاول أن يحكم السيطرة على نفسه؛ فقد شعر أن نوبة البكاء التي حاربها بداخله طويلًا تأبى الاستسلام وتوشك أن تفيض. أخذ النشيج يعلو شيئًا فشيئًا وهو يشقُّ طريقه بالقوة إلى الخارج؛ تنهد المرة بعد الأخرى، وأخرج الزفرة بعد الزفرة حثيثًا وفي شجن حتى ضعف الخُلد المسكين عن مواجهة ذلك الطوفان، فانسلَّت أخيرًا الدموع من عينَيه وأجهش بالبكاء وانتحب في قنوط. فقد علم أن كل شيء قد انتهى، وضاع منه ما يُمكن بالكاد أن يقول عنه إنه وجده.

لم يستطع الفأر الذي ذُهل وارتاع من قوة نوبة الجزع التي طرأت على الخُلد، أن يَنبس ببنت شفة لبرهة، ثم قال أخيرًا وبصوتٍ هامسٍ وبنبرةٍ رقيقةٍ وعطوفة: «ماذا دهاك يا صديقي العزيز؟ ماذا حدث؟ أخبرني أيما كان ما حل بك، ولنرى ما الذي يُمكنني فعله.»

كان الخُلد المسكين يجد صعوبةً في النطق بأي كلمة وسط جيَشان صدره الذي كانت فيه الشهقة تُلاحق أختها كأنهما في مطاردة، فحبَست لسانه عن الحديث كلما أراد أن ينطق. ثم قال أخيرًا على نحوٍ مُتقطِّع وهو ينتحِب: «أنا أعرف أنه ... بيت صغير ورثٌّ وقذر؛ ليس ... كمنزلك المريح ... أو قصر العُلجوم الجميل ... أو حتى بيت الغُرير الكبير ... ولكنه كان بيتي الصغير ... وكنتُ أحبُّه حبًّا جمًّا ... ثم تخلَّيتُ عنه ونسيتُ

أمره تمامًا ... ثم شممتُ رائحتَه فجأةً وأنا سائر على الطريق، وعندما ناديتُ عليك لم تَستجِب لي يا فأر ... ثم مرَّتْ أمامي كل الذكريات مرورًا سريعًا ... وأردتُ أن أعود إليه! ... يا إلهي، يا إلهي! ... وعندما لم تتوقَّف يا فأرون — وكان عليَّ أن أتركه، مع أن رائحته كانت في أنفي طوال الوقت — شعرتُ أن قلبي سينفطر حزنًا! ... كان بإمكاننا أن نذهب ونُلقيَ نظرة عليه يا فأرون ... نظرةً واحدة فقط ... لقد كان قريبًا جدًّا ... لكنك لم تستمع إليَّ ولم تتوقَّف يا فأرون! لم ترجع إليَّ قطُّ! يا أله يا رحيم!»

بذكره ما حدث، فاضت موجات جديدة من الحزن والأسى، وتمكَّن منه النشيج والشهيق مرةً أخرى ومنَعاه من نطق المزيد من الكلام.

وقف الفأر أمام الخُلد مباشرة صامتًا لا يتكلم وأخذ يُربِّت بلطفٍ على كتفه، ثم تمتمَ بحزنٍ بعد فترةٍ وقال: «الآن فهمتُ الأمر! كم كنتُ أحمقَ! أجل! أحمق وغبي؛ هذا ما كنت عليه. لستُ إلا أحمقَ شديد السفه!»

انتظر حتى قلَّت حدَّة عَبَرات الخُلد وصارت ذات إيقاع؛ انتظر حتى هدأ وبدأ الشهيق يتردَّد على صدره، وصار بكاؤه متقطعًا. حينها، قام من مجلسه ثم قال بلا مبالاة: «حسنًا، يَجدر بنا أن نمضيَ الآن في طريقنا أيها الشاب!» ثم بدأ السير مرة أخرى ولكن راجعًا في اتجاه الطريق المُهلِك الذي قطعاه من قبل.

ردَّ الخُلد الدامع وهو ينظر إلى أعلى في قلق وقد أخذ الشهيق يقاطع كلامه: «إلى أين ستَذهب يا فأرون؟»

قال له الفأر بلُطف: «سنَشرع في البحث عن منزلك هذا يا صديقي العزيز! هيا أسرع، فسيتطلَّب العثور عليه جهدًا، وسنحتاج إلى حاسة شمك.»

صاح الخُلد وهو يَنهَض ويُسرع وراءه وقال: «يا إلهي! ارجع إلى هنا يا فأرون، رجاءً! استمِع إليَّ؛ لا فائدة من البحث، فلقد فات الأوان وحل الظلام والمكان بعيد جدًّا، وها هو الثلج يُوشِك أن يَنهمر! أنا ... أنا لم أقصد قطُّ أن أُخبرَك بمشاعري هذه تجاه الأمر ... لقد فقدتُ السيطرة وحدث هذا الخطأ! ثم ما لك لا تُفكِّر في ضفة النهر وفي عشائك؟!»

ردَّ عليه الفأر بحماس: «دعْك من ضفة النهر ومن العشاء أيضًا! أنا أقول لك إني سأَجد هذا المكان الآن، حتى ولو بقيت بالخارج طوال الليل. هيا أيها الشاب، ابتهِجْ وتعالَ خُذ بيدي، وقريبًا جدًّا سنكون هناك مرة أخرى.»

كابد الخُلد ورفيقه العَجول يُرغمه أن يعود أدراجه، وما فتئ يَنخر ويتوسَّل إليه غير راغب في العودة، لكن سيلًا من الحديث المَرِح والطرفات جاد به الفأر كان كفيلًا ليُعليَ

من معنويات الخُلد ويَطويَ ذلك الطريق الطويل له. وعندما تراءى للفأر أخيرًا أنهما اقترَبا من البقعة التي كان الخُلد واقفًا فيها على الطريق، قال: «لنتمهَّل! من الآن فصاعدًا لا مزيد من الكلام. علينا العمل! أطلق حاسَّة شمِّك وركز فيما تشمُّه!»

مشَيا في صمت مسافة ليست بالطويلة، وفجأةً شعر الفأر بصدمة كهربية ضعيفة تسري في جسد الخُلد وتَنتقِل إليه عبر يده الممسكة به. أفلَتَ يده على الفور، وتباطأ في مشيته وترقَّب منتبهًا غاية الانتباه.

كانت الإشارات تبثُّ في اتجاههما!

تصلَّب الخُلد في مكانه لوهلة بينما كان أنفه المرفوع الذي يَرتعِش قليلًا، يتشمَّم الهواء.

ثم بادر بركضة قصيرة للأمام ... اتجاه خاطئ ... كبَح حركته ... محاولة أخرى؛ والآن تقدُّم بطيء بخُطًا واثقة وثابتة.

تتبَّع الفأر المتحمِّس خطوات الخُلد خطوة بعد خطوة، وهو يُلاحق شيئًا ما في الهواء كأنه يسير وهو نائم. عبَر الخُلد خندقًا جافًّا، واندفع وسط أحد السياجات، ثم تحسَّس طريقه بأنفه تحت ضوء النجوم الخافت عبر أرض فضاء جرداء وغير مطروقة.

وفجأةً ودون سابق إنذار، توارى الخُلد عن النظر بغتة؛ لكن الفأر كان يَقِظًا وتبعه بسرعة إلى أسفل النفق حيث قادتْه على نحو صحيح أنف الخُلد التي لا تخطئ.

كان ضيقًا ولا هواء فيه ورائحة التراب تفوح منه فوحانًا شديدًا، وبدا للفأر أن دهرًا قد مرَّ قبل أن يَنتهي النفق ويتمكَّن من الانتصاب واقفًا ونفَض جسده ومطَّه. أشعل الخُلد عود ثقاب وعلى ضوئه رأى الفأر أنهما يقفان في مكان واسع، والأرض تحت أقدامهما مكنوسة ومُسوَّاة بعناية. أمامهما مباشرة كان يقبع الباب الأمامي الصغير لبيت الخُلد، وعبارة «بيت الخُلد» مكتوبة فوق مدقَّة الجرس، التي بجانب الباب، بالخط القوطي.

مدَّ الخُلد يده والتقط مصباحًا كان معلَّقًا على الحائط بمسمار وأوقده، بينما الفأر كان يُطالع المكان حوله وأدرك أنهما في مكان بدا كأنه باحة أمامية. كان أحد كراسي الحديقة موضوعًا على جانب من جانبَي الباب، وعلى الجانب الآخر كانت تتكئ على الحائط أداة لتسوية الأرض؛ فالخُلد عندما كان يَسكُن البيت كان حيوانًا منظمًا، فلم يكن يطيق أن تضرب الحيوانات باحة منزله بأرجلِها رائحةً غاديةً وتتركها أرضًا منقَّبة. أما على الجدران فقد كانت السِّلال السلكية المملوءة بنبات السرخس معلَّقةً بالتبادُل مع حوامل عليها تماثيل من الجصِّ لكلٍّ من الملكة فيكتوريا، والنبي صموئيل طفلًا، والقائد الحربي

جاريبالدي وغيره من أبطال إيطاليا المعاصِرة. وفي أحد أركان الباحة، اصطفَّ على امتداد ساحةٍ للعب لعبة القناني الخشبية؛ عددٌ من المقاعد وطاولات خشبية صغيرة كان على سطحها آثار لحلقات تُشير إلى كئوس الجِعَة. وفي وسط الباحة، كانت هناك بركة صغيرة مدوَّرة تسبَح بها سمكة ذهبية وحافتها الخارجية مغطَّاة بأصداف المحار. من منتصف تلك البركة، برز عمود رائع مُغطًّى بالأصداف أيضًا وتعلوه كرة ضخمة من الزجاج المُفضَّض تَعكِس كل شيء حولها انعكاسًا مخربطًا ولها تأثير ظريف.

تلألأ وجه الخُلد لرؤية كل تلك الأشياء العزيزة إلى قلبه، واستعجل الفأرَ مناديًا عليه من خلال الباب. أوقد قنديلًا في صالة البيت وألقى نظرةً سريعة على بيته القديم. كان الغبار متراكمًا على كل شيء، ورأى نظرة التعاسة والهجر على كل شيء في هذا البيت الذي أُهمل طويلًا، وتأمَّل أبعاده الضيقة والحَرِجة وأثاثه الرث والمُهترئ. ارتمَى منهارًا مرةً أخرى في أحضان أحد مقاعد الصالة وكفَّاه تُغطيان أنفه وقال باكيًا في مرارة: «فأرون يا صديقي! ما الذي جعلني أفعل هذا؟ لماذا أحضرتُك إلى مثل هذا المكان الضيق البارد والموحش في ليلة كهذه، بينما كنت لتكون على ضفة النهر في هذا الوقت تَنعم بالدفء أمام نار متَّقدة وحولك كل أشيائك اللطيفة!»

لم يُصغِ الفأر إلى أيٍّ من توبيخ النفس الحزين ذاك، بل كان يَقفز من مكان إلى آخر، ويفتح الأبواب ويَفحص الغرف والخزانات، ويُشعِل الأنوار والشموع ويضعها في كل مكان حوله. صاح في بهجة وقال: «يا له من منزل أنيق وصغير. إنه منزل مُحكَم ذو تخطيط جيد! به كل شيء وكل شيء في مكانه الصحيح! سنُمضي فيه ليلة هانئة، ولكن نحتاج أولًا إلى أن نُوقد نارًا لتدفئنا. سأتولى أنا هذا الأمر؛ فلطالَما كنتُ بارعًا في إيجاد الأشياء. هذه هي صالة المنزل، أليس كذلك؟ ممتاز! وهل تلك المَخادع المحفورة في داخل الحائط من بنات أفكارك؟ ذَوق رفيع! سأذهب الآن لأُحضر بعض الحطب والفحم، واذهب أنت يا خلد لتَجلِب منفضة الغبار؛ ستجد واحدة في درج طاولة المطبخ. هيا يا فتى! شمِّر وابدأ بنفض الغبار عن المكان قليلًا.»

نهض الخُلد متحفزًا بعد سماعه لرفيقه المتحمِّس، وبدأ ينفض الغبار ويُلمِّع الأشياء بكل حيوية ونشاط، بينما كان الفأر يركض جيئة وذهابًا حاملًا ملء ذراعَيه حطبًا وفحمًا، وما لبث طويلًا حتى سمع صوت طقطقة نيران المدفأة وهي تتلظَّى. نادى على الخُلد ليأتيَ ويَنعم بالدفء، ولكن حل الغم والحزن على الخُلد مرةً أخرى، وخر جالسًا على أريكة في يأس وقنوط ودفَن وجهه وسط منفضة الغبار وقال أسفًا: «ماذا ستأكل

وقت العشاء يا فأرون؛ أيها الحيوان المسكين المرتعش من البرد، والمنهَك من وعثاء السفر وقرص الجوع؟ فأنا لا أملك شيئًا لأقدمه لك، لا شيءَ على الإطلاق ولو حتى كسرة خبز!»

ردَّ عليه الفأر موبخًا: «أي نوع من الحيوانات أنت لتَستسلِم بهذه السهولة؟ لماذا؟ لقد رأيت أمامي للتوِّ بوضوحٍ شديد فتاحة علب سردين في خزانة المطبخ؟ وهذا يعني، وكل الحيوانات تَعرف هذا، أن هناك علب سردين في مكانٍ ما في الجوار. هيا تمالكْ نفسك وانهض لنبحث معًا عنها!»

شرَعا في البحث عن علب السردين، وأخذا يفتشان عنها في كل خزانة وينظران عن كثب في كل درج. في النهاية، لم يعودا من بحثَيهما بخفَّي حُنَين، ولكن كانت آمالهما أفضل من ذلك؛ فقد وجَدا علبة سردين، وعلبة بسكويت جافٍّ شبه مُكتملة، وبعض السجق الألماني الملفوف في ورق فضي.

علَّق الفأر وهو يُعدُّ المائدة: «استعد، فهناك مأدبة بانتظارك! أعرف حيوانات قد تُضحِّي بالغالي والنفيس فقط ليَجلسوا معنا وينالوا حظًّا من عشائنا الليلة!»

أَنَّ الخُلدُ في كدر وقال: «ليس لدَينا خبز! ولا زبد، ولا ...»

أكمل الفأر باسمًا وقال: «ولا نَملك عجائن كبد الإوز ولا مشروبات روحية! وهذا يُذكرني بسؤال وهو: إلى أين يؤدِّي هذا الباب في نهاية الردهة؟ إلى قبو البيت بكل تأكيد! توجد كل الرفاهيات في هذا المنزل! انتظرني لحظة.»

خطا باتجاه باب القبو، ثم ظهر بعد مدةٍ يعلوه الغبار بعض الشيء ويحمل في كلتا يدَيه زجاجة جِعَة، ويتأبَّط زجاجة أخرى تحت كل ذراع، وقال معلقًا: «يا لك من فقير لكن مُنغمِس في الملذات يا خُلد! إنك لا تحرم نفسك شيئًا! هذا بلا شك أبهج المنازل الصغيرة التي زُرتها. والآن، أخبرني من أين لك بكل هذه التُّحف واللوحات؟ فهي تُضفي روحًا على المكان تجعل المرء يحسُّ كأنه في بيته! لا عجب أنك تهيم به حبًّا يا خُلد. حدثني عن بيتك هيا، وكيف بنَيتَه وأثَّثته ليصير على ما هو عليه الآن.»

وبينما انشغل الفأر في إحضار الأطباق وشوكات وسكاكين الطعام، وتحضير صلصة الخردل في بولة بيض، كان الخُلد ما يزال يتنهَّد وصدره مثقلٌ من وطأة انفعاله الأخير، وبدأ يَروي على مسامع الفأر كيف فكر وخطط وبنى هذا البيت؛ في بادئ الأمر بخجل بعض الشيء، ولكن كلَّما استرسل في كلامه عن هذا الموضوع، ازداد ثقة وتحرُّرًا. حكى له كيف أن هذه كانت إحدى عطايا خالته السخية، وأن تلك كانت لقية رائعة وصفقة جيدة، وأن هذا الشيء اشتراه من مالٍ ثابَرَ في ادِّخاره وحرم نفسه الكثير من أجله. كانت روحه

المعنوية قد عادَت إلى طبيعتِها، وأحسَّ بأن عليه أن يلاطفَ ويعتنيَ بمُمتلكاته تلك. أوقَد قنديلًا وأخذ يُري محاسنها لضيفه ويُسهب في الحديث عنها ونسيَ طعام العشاء الذي كان الاثنان في أشد الحاجة لأكله. كان الفأر يتضوَّر جوعًا ولكنه جاهد ليُخفيَ ذلك، وأخذ يومئ بجدٍّ مقطبًا حاجبَيه ويقول معلِّقًا بين الفينة والأخرى كلما سنحت له فرصة ليبدي رأيه: «ممتاز!» و«يا لَلبراعة والإتقان!»

وأخيرًا بعد مدة من الوقت، نجح الفأر في أن يَستدرجه إلى المائدة، وكان قد انهمك في استخدام فتَّاحة علب السردين عندما علَت أصوات خارجية صادرة من الباحة الأمامية للمنزل؛ كانت أصوات مشيٍ مُتثاقِل لأقدامٍ صغيرةٍ على أرض حصباء، وهمهمات متداخلة لحيوانات صغيرة، وقد نمَا إلى مسامعهما بعض أجزاء من الكلام: «والآن، قِفوا جميعًا في صفٍّ واحد ... ارفع القنديل لأعلى قليلًا يا تومي ... والآن تَنحنَحُوا وهيِّئوا حناجركم ... ولا أحد يكح بعد العد، واحد اثنان ثلاثة ... أين هو بل الصغير؟ — هيا أسرع واحضُر إلى هنا فورًا؛ فجميعنا بانتظارك ...»

توقف الفأر عن فتح علبة السردين وقال متسائلًا: «ما الخطب؟»

رد الخُلد وقال في نبرة شابها اعتزاز وفخر: «لا بد أنهم فئران الحقل! إنهم، في هذا الوقت من العام، يجوبون المكان بانتظام مُنشِدين الترانيم. إنهم يعدُّون أحد التقاليد في هذه الأراضي. إنهم لم ينسوا أن يمُّروا على بيتي من قبل قط؛ فهم يأتون إلى بيت الخُلد في نهاية جولتهم. وكانت لي عادة أن أسقيَهم شرابًا ساخنًا وأُقدِّم لهم طعام العشاء في أحايين كثيرة حين أستطيع ذلك. يُذكِّرني سماعهم مرة أخرى بالأيام التي مضت.»

صاحَ الفأر وهو يقفز من مكانه ويركض باتجاه الباب: «لنَذهبْ ونُلقِ نظرة عليهم!»

يا له من مشهد خلاب جاء في أوانه هذا الذي وقعَت عليه أعينهم حينما فتَحا الباب في اندفاع وحماس. كان هناك فئران حقل صغيرة يتراوح عددهم بين الثمانية والعشرة يقفون في باحة المنزل الأمامية وتَنعكِس على وجوهم أشعة ضوء خافتة من قنديل مصنوع من قرون الثيران. كانوا يقفون على شكل نصف دائرة ويلتحفون أوشحةً حمراء من الصوف حول أعناقهم، وأكفهم مدفونة داخل جيوبهم، وأرجلهم ترتعش متراقصةً طلَبًا للدفء. وبأعينهم اللامعة التي تُشبه حبات الخرز، كانوا ينظرون بعضهم إلى بعضٍ في خجل، ويضحكون ضحكًا مكتومًا أحيانًا ويَتنشَّقُون وهم منشغلون في هندمة أكمام معاطِفهم. وعندما فُتح الباب، كان يقول أحد أكبرهم سنًّا والذي كان يحمل القنديل المُضيء: «الآن، واحد اثنان، ثلاثة!» وفورًا صدحت أصواتهم الصغيرة وعلَتْ في الهواء

وبدءوا يُنشِدون إحدى الترانيم القديمة التي نظَمها أسلافهم وهم في الحقول غير المزروعة ويَحبِسُهم الصقيع في باطنها، أو عندما يُحاصِرُهم الثلج في المداخن ويَحتجزهم، وتناقلتْها الأجيال لتُنشَد في الشوارع الموحلة على مسامع النوافذ المضاءة بالقناديل في وقت احتفالات ميلاد المسيح.

الترنيمة

هيا افتحوا الأبواب يا أهل القرى
كي تُنقِذونا من صقيع مُنتشِر
فلربما عصفَت رياح بالنوافذ
أو غزا الدار ثلوج تَنتشِر
لكن دعونا نلمس الدفء الذي
في النار أو نَلقى لديكم مُستقَر
ولتسعَدُوا بصنيعكم عند الصباح
فتلك أفضالٌ مقدمها يسر!
جئنا نُسير من الأقاصي نحوكم
نزجي التحية تحت ثلج مُنسكِب
حتى أصابعنا لَتَعزِفُ رعشة
ونظلُّ بالأقدام في الأرض ندب
في دفْء نار تَنعمون ونحن في
برد وندعو رغم ذلك بالهَنا!
فقبيل نصف الليل نجم قادَنا
حتى أتينا في مصادفة هنا
ندعو لكم بتوسُّل وتضرُّع
أن تُرزقوا البركات في يوم الغد
وبكل يوم أو صباح قادم
تحظون في أوقاتكم بالأرغد!
إذ يوسف النجار سار مكافحًا
في الثلج إسطبل تراءى لامِعا
وتثاقلت عن أن تُواصِل سيرها

في الثلج مريم ثم أمَّاه مَعا
وهناك فوق القش جاء مباركًا
بسعادة وأتى الصباح يَزيدها
قال الملائك إنَّ أول من أتى
عيد الميلاد وكان حقًّا عيدهم
تلك الحيوانات إذ عادت إلى
إسطبلها فالسعد أمسى عندهم
ولسوف يَنبلج السرور لهم غدا
فالليل أسعدهم وصبَّح زادهم!

انقطعت الأصوات، وأخذ المُنشِدون يتبادلون النظرات الجانبية في خجل والابتسامة تعلو وجوههم، وحل الصمت بعد ذلك؛ ولكن للحظات قليلة فقط. ثم نمَا إلى آذانهم صوت بعيد من السماء دنا إلى النفق الذي عبروه منذ قليل، ليسمعوا صوتًا خافتًا ذا لحن عذب، هو صوت قرع الأجراس البعيدة وهي تُجلجِل بصوتٍ رنَّانٍ ومبهج.

صاح الفأر بحماسة وقال: «ما أحسن أصواتكم يا فتيان! والآن، ادخلوا جميعًا إلى البيت واجلسوا بجانب النار لتُدفئوا أجسادكم ولتحتسُوا شرابًا ساخنًا!»

صاح الخُلد متلهفًا: «نعم! تعالوا إلى الداخل يا فئران الحقل الأعزاء. تمامًا كالأيام السالفة! أغلِقُوا الباب خلفكم. واسحبوا ذلك المقعد إلى جانب النار والآن انتظروا دقيقة حتى ... أوه، يا فأرون!» ثم صاح في قنوط وهو يهوي بجسده على أحد المقاعد والدمع يُرقرق عينيه وقال: «ما الذي نفعله؟ فنحن لا نملك شيئًا حتى نقدمه لهم!»

قال الفأر الماهر: «دع كل هذا لي!» ثم نادى وقال: «أنت! يا من تحمل القنديل! تعالَ إلى هنا، أريد أن أحادثك. والآن أخبرني، هل هناك أي متاجر ما تزال مفتوحة في هذا الوقت من الليل؟»

رد فأر الحقل بأدبٍ وقال: «بالطبع، يا سيدي، ولكن لماذا تسأل؟ في هذا الوقت من العام تظلُّ متاجرُنا مفتوحة طوال اليوم.»

قال له الفأر: «إذن، اسمعني جيدًا! ستَذهب على الفور مع قنديلك هذا وتأتني بـ ...»

تبع هذه المحادثة الكثير من الهمهمات التي سمع الخُلد بعض أجزائها فقط، ومن تلك الجمل التي سمعها: «انتبه! لتُحضرَه طازجًا ... كلا، رطلًا واحدًا سيَكفي الجميع ... ستَتناوَبون عليها، فلن أجلب المزيد ... لا، أفضلها فقط ... إن لم تجدها هناك، فاذهب إلى

متجر آخر ... نعم، بالتأكيد، صناعة منزلية لا مُنتَجات معلبة ... والآن، فلتَبذل قصارى جهدك!» ثم سمع أخيرًا صوت رنين العملات المعدنية وهي تَنتقِل من كف لأخرى، وأُعطي فأر الحقل سلة كبيرة ليضع فيها مشترياته، ومضى في طريقه مسرعًا حاملًا قنديله.

أما بقية فئران الحقل فقد اصطفُّوا جالسين على المقعد وأرجلهم القصيرة تتدلَّى متأرجِحة، ولم يدَّخروا جهدًا في الاستمتاع بحرارة النيران وتدفئة أصابعهم المتجمِّدة من الصقيع حتى تورَّدت وسرَتْ فيها الدماء مرة أخرى. بينما لجأ الخُلد الذي أخفق في جذب أطراف الحديث معهم بسلاسة، إلى الحديث عن تاريخ العائلة؛ وجعلهم فأرًا فأرًا يَسردون أسماء إخوتهم الكثُر الذي تبيَّن أنه لم يُسمَح لهم بالمشاركة في إنشاد الترانيم هذا العام لصغر سنهم، ولكنهم يتطلَّعون لكسب موافقة والديهم عما قريب.

وأثناء ذلك، كان الفأر يُدقِّق النظر في ملصق إحدى زجاجات الجعة، ثم علق مستحسِنًا وقال: «أعتقد أن هذه من نوع أولد برتون! أنت ذو عقل رشيد يا خُلد! هذا هو ما نحتاجه تمامًا! يُمكننا الآن أن نعدَّ بعض الشراب الساخن اللذيذ! هيا حضِّر الأشياء المطلوبة يا خُلد بينما أفتح أنا الزجاجات!»

لم يستغرق إعداد الشراب ووضْع القدر في قلب النار الموقَدة وقتًا طويلًا؛ وسرعان ما كان كل فأر من فئران الحقل يَحتسي شرابًا ساخنًا ثم يُسعل أو يشرق به، ثم يمسح دموع عينيه ويضحك وكأنه ما أحسَّ بلسعة برد في حياته قط.

أوضح الخُلد للفأر وقال: «هؤلاء الفتيان يُقدِّمون عروضًا مسرحية أيضًا! إنهم يُؤلِّفونها بأنفسهم من أول مشهد إلى آخر مشهد، ثم يُمثِّلونها بعد ذلك. والحق أقول: يا لَبراعتهم في التمثيل! لقد قدموا لنا عرضًا متألقًا السنة الماضية حول فأر حقل أسرَتْه إحدى سفن قراصنة البربر واستُعبِدَ عاملًا يُجدِّف على متنها؛ وعندما استطاع الهرب وعاد إلى بيته، وجد حبيبته قد صارت راهبة. أنت، هناك! لقد كنتَ أحد أبطال تلك المسرحية، أنا أتذكَّرك. هيا قف وأعد لنا بعض مشاهدها!»

نهض فأر الحقل المخاطَب واقفًا على قدميه، وضحك ضحكة خافتة على استحياء ونظر حوالَيه وعقد لسانه فلم ينطق ببنت شفة. بدأ رفاقه يُلقون عليه عبارات تشجيعية، وتملَّقَه الخُلد وأثنى عليه. أما الفأر فقد بالغ في تشجيعه وأخذه من كتفَيه وضمه إليه وهزه، ولكن لم يُساعده أيٌّ من ذلك على تخطِّي رهبة المسرح. كانوا جميعًا منشغلين به كما لو كانوا رجال إنقاذ يُطبِّقون تعليمات الجمعية الملكية للإغاثة على إحدى حالات الغرق، عندما سمعوا صوت قرقعة المزلاج ثم فتح الباب وظهر فأر الحقل صاحب القنديل وهو يمشي مُترنِّحًا من ثِقَل سلته التي يحملها.

انقطع الحديث حول تمثيل مشاهد المسرحية عندما قُلبَت السلة وأُفرغت محتوياتها الشهية على الطاولة. وتحت قيادة الفأر البارعة، كان كل واحد من الموجودين قد كُلِّف بإنجاز مهمة ما أو إحضار شيءٍ ما. وفي دقائق معدودة كان العشاء جاهزًا والخُلد يَجلس على رأس الطاولة في مشهد حالم وقد رأى أمامه تلك المائدة المجدبة قد استحالت مائدة عامرة بشتى أنواع الطعام، وشاهد البهجة تشعُّ من وجوه أصدقائه الصغار وتغمُرهم وهم يجلسون إلى المائدة دون تأخير، ثم نفض الكلفة عن نفسه وانقضَّ على الطعام الذي أعد بأعجوبة يَلتهمه — فهو أيضًا كان يتضوَّر جوعًا — وهو يحدث نفسه أن بعد كل ذلك العناء، لقد كان عودًا حميدًا إلى البيت. وأثناء الطعام، تجاذبوا أطراف حديث حول الأيام الخوالي، وأطلعتْه فئران الحقل على جديد أخبار الحي وأجابوا قدر استطاعتهم على ما ألقاه عليهم من مئات الأسئلة. لم يُشاركهم الفأر بالكثير أو ربما لم يَقلْ حرفًا واحدًا؛ فقد كان منشغلًا بتلبية رغبات الضيوف وحصولهم على ما طلبوه وزيادة، كما حرص على ألَّا يشعرَ الخُلد بالقلق أو يُصيبَه همٌّ حيال أي شيء.

انتهَوْا من طعامهم في النهاية وهموا بالرحيل وهم مُمتنُّون ويتبادلون تهاني وأمنيات الفصل الجديد، وجيوب معاطفهم محشوة بالتذكارات ليهدوها إلى إخوتهم وأخواتهم الصغار في المنزل. وعندما خرج آخر فأرٍ منهم وأغلق الباب وخفتت أصوات خشخشة القناديل شيئًا فشيئًا، سعَّر الخُلد والفأر نار المدفأة وقرَّبا مقعديهما منها وأعدَّا وتناوَلا كأسًا أخيرة من الجعة الساخنة قبل أن يناما، ثم أخذا يَسردان مجريات ذلك اليوم الطويل. وفي النهاية، تثاءب الفأر بقوة وقال: «يا خلد، يا صديقي العزيز، أنا مستعدٌّ للدخول في نوم أبدي؛ فكلمة نعسان ليست المفردة المناسبة في هذا السياق. هل هذا مخدعك هناك على هذا الجانب؟ رائع جدًّا، إذن، سأنام أنا في المخدع الآخر هنا. يا له من بيت صغير مُدهِش! كل شيء تحتاجه في متناول يدك!»

صعد إلى سريره في عناء ولف جسده جيدًا بالألحفة وغطَّ في النوم من فوره، كحزمة شعير انسلَّت بين أحضان آلة الحصاد.

كان الخُلد المنهَك هو الآخر سعيدًا أنه سيهجع إلى سريره دون أي تأخير، وسرعان ما أراح رأسه على الوسادة في رضًا واطمئنان. وقبل أن يغمض عينيه، أجالهما في غرفته القديمة التي كانت تحت وهج النار الذي أنار أحيانًا أو تمايل على محتويات المكان المألوفة التي لطالَما كانت لا شعوريًّا جزءًا من روحه، وها هي قد استعادت مكانها عنده دون عتاب أو ضغينة. كان الخُلد في الحالة النفسية التي سعى الفأر الحكيم في صمت لأن

يعيشها. اتَّضح له الآن كيف أن كل شيء كان سهلًا بسيطًا ويسيرًا — بل وحتى صغيرًا — ولكن اتضح له جليًّا أيضًا أهميةُ كل تلك الأمور له، والقيمة الاستثنائية لوجود نقطة ارتكاز مثل هذه في حياة المرء. إنه لم يُرِد أن يتخلَّى عن حياته الجديدة وأماكنها المبهرة، ولم يُرِد أن يولي ظهره للشمس والهواء الطلق وكل محاسنهما، وأن يعود زاحفًا إلى البيت ويبقى هناك؛ فالعالم الخارجي يأسر لبَّه ويُنادي عليه حتى وهو في باطن الأرض. كان يعرف أن عليه أن يعود إلى الأفق الواسع والأرض الرحبة، ولكنه كان يخالجه شعور طيب أن لديه هذا المكان ليرجع إليه؛ هذا المكان الذي كان ملكًا له وكل تلك الأشياء التي كانت ممتنة لرؤيته مجددًا ويَستطيع دائمًا الاعتماد عليها لترحب به دائمًا دون عتاب.

الفصل السادس

السيد عُلجوم

كان صباحًا مشرقًا ليوم في بداية فصل الصيف. كانت قد عادت في هذه الفترة الحياة على ضفاف النهر إلى نحوها الطبيعي ووتيرتِها المألوفة، وبدا أن الشمس بحرارتها المُلتهبة كانت تُحفز كل النباتات الخضراء والأشجار الكثيفة والشائكة أن تنبثق من باطن الأرض باتجاهها كأنها تَسحبها بخيوط. استيقظ الخُلد وفأر الماء منذ الفجر وانشغَلا بأمور متعلِّقة بقاربهما وبداية موسم ركوب القوارب؛ فقد كانا يَطليان قاربهما ويُزيِّنانه، ويصلحان المجاديف ويُجدِّدان المقاعد، ويبحثان عن العصيِّ المفقودة التي تُستخدم في سحب القارب، وغيرها من الأشياء. وكانا في صالتهما الصغيرة على وشك إنهاء فطورهما وهما يناقشان خطط يومهما بحماسٍ عندما سمعا صوت طرق شديد على الباب.

قال الفأر وهو ما يزال يتناول بيضته: «تبًّا! اذهب لترى مَن الطارق أيها الخُلد الطيب طالَما قد انتهيت من فطورك.»

ذهب الخُلد ليرى من بالباب، ثم سمعه الفأر وهو يَصيح مُندهشًا. ثم فتح باب الصالة مندفعًا وأعلن بنبرة فيها تعظيم وإجلال: «السيد غُرير!»

كان هذا أمرًا جلَلًا بلا شك؛ أن يقصدهم الغُرير، أو أن يقصد أي أحد غيرهما، في زيارة رسمية؛ فأنتَ إذا كنت بحاجة ماسة لمقابلة الغُرير، عليك أن تتحيَّنه وهو ينسلُّ في هدوءٍ عبر أحد السياجات في الصباح الباكر أو وقتٍ متأخِّر من الليل، أو أن تذهب في مهمة شاقة وتُفاجئه في منزله بوسط البراري.

تقدم الغُرير بخطوات بطيئة إلى داخل الغرفة، ووقَف ناظرًا إلى الحيوانين بوجه ذي ملامح جادة. هوت مِلعقة البيض من يد الفأر على مفرش الطاولة ونظر إلى الغُرير فاغرًا فاه.

قال الغُرير بعد برهة بنبرةٍ وَقورة: «لقد حان الوقت!»

رد عليه الفأر بارتياب وهو ينظر إلى ساعة الحائط فوق رف المدفأة: «أي وقت؟»

قال الغُرير: «الأحرى أن تقول: وقتُ مَن؟ العُلجوم. لقد حانت ساعة العُلجوم! لقد أخبرتكما أني سأتولى أمر توجيهه حين ينقضي الشتاء، وسأفعل هذا اليوم!»

صاح الخُلد مُبتهجًا: «بالتأكيد إنها ساعة العُلجوم! مرحى! لقد تذكرتُ الآن! سنُعلِّمه كيف يكون عُلجومًا ذا عقل رشيد.»

أكمل الغُرير كلامه وهو يجذب مقعدًا ذا مسندَين: «نما إلى علمي ليلة أمس من مصدر موثوق فيه، أن هذا الصباح، ستصلُ سيارة أخرى جديدة ورائعة على نحو استثنائي إلى منزل العُلجوم ليراها ثم يُوافق على شرائها أو يرفض ذلك. في هذه اللحظات، ربما يكون العُلجوم مشغولًا بارتداء تلك الملابس المحبَّبة إلى قلبه والفريدة في بشاعتها، والتي تحوله من العُلجوم الأنيق نسبيًّا إلى مخلوق يدفع أي حيوان عاقل يراه إلى حافة الغضب والانفعال. علينا أن نفعل شيئًا قبل أن يفوت الأوان. إنكما ستُرافقانني حالًا إلى منزل العُلجوم لنُنجز مهمَّة إنقاذه.»

صاح الفأر: «لا فُضَّ فوك! سنُنقذ هذا الحيوان التعيس والمسكين، وسنجعل حاله أفضل! سيكون في أفضل أحواله بعد أن نَنتهي معه!»

انطلقوا في مهمة الرحمة والإنقاذ هذه، ومضوا في طريقهم والغُرير يقود المسير. عندما يسير الحيوانات معًا في جماعة، يمشون في هيئة منضبطة وواعية؛ في صف واحد بدل أن يمشوا مُبعثَرين بعرض الطريق فلا يستطيعون مساعدة أحدهم الآخر إن وقعت مصيبة أو حدق بهم خطر.

وصلوا إلى مشارف بيت العُلجوم، ووجدوا أمامه، مثلما توقع الغُرير، سيارة جديدة لامعة ضخمة ومطلية بلونِ العُلجوم المفضل؛ اللون الأحمر الزاهي. وعندما اقتربوا من الباب، فُتح باندفاع وخرج منه السيد عُلجوم وهو يرتدي نظارة ويَعتمِر قَلنسوة ويَنتعِل غطاءً قماشيًّا فوق حذائه، ويَلبس معطفًا ثقيلًا، وأخذ يَهبط درجات السُّلم في خيلاء وهو يُدخل يديه في قفاز من جلد متين.

صاح العُلجوم مبتهجًا عندما لَمَحهم وقال: «مرحبًا يا أصدقاء! هلمُّوا، هلمُّوا! لقد وصلتُم في الوقت المناسب، لأصطحبَكُم في أمتع ... لتأتوا معي في ... لتأ... في ... أمتع ...»

تلعثم في كلامه وانطفأ حماس نبرتِه عندما لاحظ النظرة العابسة اليابسة على وجوه أصدقائه الصامتين، فلم يُكمل جملته ولم تكتمل دعوته.

ارتقى الغُرير درجات السُّلم وقال لرفيقَيه في صرامة: «احمِلاه إلى الداخل!» وبينما كان العُلجوم يُدفَع إلى الداخل عبر الباب وهو يُقاوم ويُنازع ويحتج، التفَّ الغُرير إلى السائق المسئول عن تسليم السيارة الجديدة.

وقال له: «أخشى أننا لن نحتاجَكَ اليوم! فالسيد عُلجوم قد بدَّل رأيه ولم يَعُد بحاجة إلى السيارة. رجاءً تأكَّد أن هذا قرار نهائي؛ لذا فأنت لست مضطرًّا للانتظار.» ثم لحقَ بالآخرين داخل المنزل وأغلق الباب.

قال للعُلجوم عندما وقف أربعتُهم في بهو المنزل: «والآن، أولًا وقبل أي شيء، اخلع هذه الأشياء السخيفة عنك!»

ردَّ عليه العُلجوم بكبرياء وقال: «لن أفعل! وهل لي بسؤالكم عن معنى هذا الغضب العارم؟ أريد توضيحًا الآن!»

قال الغُرير آمرًا: «إذن، اخلَعا عنه تلك الأشياء أنتما الاثنان!»

اضطرَّا إلى أن يَطرَحا العُلجوم أرضًا وهو يرفس ويَنهال باللعنات على جميع أهل الأرض، قبل أن يتمكَّنا من الشروع في تنفيذ مهمَّتهما. جلس الفأر على جسده وأخذ الخُلد يَخلَع عنه ملابس القيادة قطعةً قطعة، ثم أوقفاه على قدميه مرةً أخرى. حينها، بدا عليه أن قدرًا كبيرًا من رُوحه المتبجِّحة والصاخبة قد تلاشَى وتبخَّر عندما خُلعَت عنه ملابسُه الأنيقة. والآن وقد أصبح العُلجوم الذي نعرفه، وليس ذلك الحيوان الذي يَنشُر الذعرَ على الطريق السريع، فقد ضحك ضحكةً واهنة ونظر إلى كلٍّ واحد منهم نظرة عطوفة وقد بَدا أنه قد تفهَّم ما يحدث.

أوضَح له الغُرير بقسوة وقال: «لقد كنتَ تعرف أن الأمر سيئول إلى هذا عاجلًا أم آجلًا! لقد تجاهلتَ كل التحذيرات التي وجهناها لك، وأخذتَ تُبدِّد المال الذي ورثتَه عن أبيك وتصرفُه ببذخ، وألصقتَ بنا نحن الحيوانات سمعةً سيئةً في المنطقة؛ بسبب قيادتِك الرعناء واصطداماتك ونزاعاتك مع رجال الشرطة. الحرية رائعة بلا شك، ولكننا نحن الحيوانات لا نسمح لأصدقائنا أن يجعلوا من أنفسهم أضحوكة بعد حدٍّ معيَّن، وأنت قد تجاوزتَ هذا الحد. أنت حيوان صالح يُكَنُّ له الاحترام في العديد من النواحي، ولذلك لا أريد أن أقسو عليك، وسأبذُل قُصارى جهدي مرةً أخيرة لأُسمعَك صوت المنطق ولتَرجِع إلى رشدك. لذلك ستأتي معي إلى غرفة التدخين، وهناك سأُطلعُك على بعض الحقائق عن شخصِك وسنَنظُر أتخرُج من تلك الغرفة بنفس العقلية التي دخلتَ بها أم لا.»

تأبَّط يد العُلجوم بحزم، وقادَه إلى غرفة التدخين وأغلق الباب وراءه.

قال الفأر باستخفاف: «هذا لن يُجديَ نفعًا! الحديث وحده مع العُلجوم لن يُداويه؛ فهو سيقول أي شيء.»

جلس كلٌّ منهما على مقعد ذي مسندَين وانتظَرا في صبر. ومن وراء الباب الموصد، كان يَصل إلى أذنَيهما طنينُ صوت الغُرير المُتواصِل وكلامه الطويل وهو يعلو تارة ويَنخفِض تارة في دفقات من البلاغة والفصاحة. لاحَظا بعد ذلك أن تلك الخطبة العصماء بدأت تُلقَى على فترات يَفصِل بينها بكاءٌ ونشيجٌ طويل من الواضح أنه كان يتردَّد في صدر العُلجوم، ذلك الحيوان الرقيق القلب والعطوف الذي كان — في ذلك الوقت — كريشةٍ في مهبِّ الريح؛ يُمكن إقناعه بأي وجهة نظرٍ مهما كانت.

بعد ما يُقارب ثلاثة أرباع الساعة، فُتح الباب وظهر الغُرير وهو يتقدَّم بجدِّية مُمسكًا بكفِّ العُلجوم الذي كان يبدو عليه الحزن والغم. كان جلده مترهِّلًا حول جسده، ورِجلاه تَرتعشان، ووجْنتاه قد تغضَّنتا من كثرة الدموع التي أجرتْها من مدامِعها محاضرةُ الغُرير المؤثِّرة.

قال الغُرير بلطْف وهو يُشير إلى أحد المقاعد: «اجلِس هناك يا عُلجوم!» ثم أكمل كلامَه وقال: «يا صديقي، إنه لِمن دواعي سُروري أن أخبركما أن العُلجوم قد أدرك أخيرًا ما للأسلوب الذي يتبعه من أخطاء. وهو الآن يشعر حقًّا بالأسف لسُلوكياته غير الرشيدة فيما مضى، وقد تعهَّد بأن يَترك أمر قيادة السيارات كليًّا وإلى الأبد. وقد أخذتُ منه وعْد شرفٍ بذلك.»

قال الخُلد متوجِّسًا: «هذا خبر رائع!»

وعلَّق الفأر بارتياب: «هذا خبر رائع بلا شك! ولكن يا ليت ... يا ليت ...»

كان يُحدِّق بقوة في العُلجوم وهو يقول جملته تلك، ولم يتمكَّن من التغافل عن أن شيئًا غامضًا يُشبه الوميض كان يتلألأ في عينَيْ ذلك الحيوان اللتَين ما تزالان حزينتَين.

أكمل الغُرير الذي رُسمَت على وجهه أمارات الرضا وقال: «يتبقَّى لنا شيءٌ واحد فقط. يا عُلجوم، أريدك أن تُكرِّر أمام صديقَيكَ هنا وعدَكَ الذي قطعتَه لي لتوِّكَ في غرفة التدخين. أولًا، هل أنت آسفٌ على ما اقترفتَه؟ أترى الآن كم كانت تصرفاتُك حمقاء؟»

حلَّت فترة طويلة جدًّا من الصمت. أخذ العُلجوم يتلفَّت يمنةً ويسرة في قنوط، بينما ظلَّ الآخرون مُنتظِرين في صمتٍ تام. وفي النهاية نطق.

قال بنبرةٍ مُستاءةٍ غلب عليها الإصرار: «لا! لستُ آسفًا. ولم يكن ما فعلتُه ضربًا من ضروب الحماقة قطُّ، لكن كان رائعًا بكل ما تحمله الكلمة من معنًى!»

صاح الغُرير في استهجان: «ما هذا الذي تقوله أيها الحيوان الكذاب؟ ألم تَعترِف لي بذلك ونحن في هذه الغرفة قبل ثوانٍ من الآن ...»

ردَّ العُلجوم وقد ضاق صدره: «بلى! هذا صحيح، صحيح تمامًا! في تلك الغرفة كنتُ لأقولَ أيَّ شيء تُريده. يا عزيزي الغُرير، لقد وهبَك الله لسانًا فصيحًا بليغًا، يُحرِّك مشاعر مَن يَسمعه فيَقتنِع، كما أنك قد وضَّحت جميع محاور حديثك توضيحًا جيدًا. كان يُمكنك أن تقودَني إلى أيِّ طريق أردت داخل هذه الغرفة، وأنت تعرف هذا؛ ولذلك كنتُ أمعن التفكير فيما قلتَه بالداخل وأعرضه على عقلي بتأنٍّ، وتبيَّن لي أني لا أشعر بداخلي ولو بحبة خردل من أسفٍ أو ندم؛ لذلك لا خير ولا جدوى من قولي خلاف ذلك الآن، ألا تُوافقني؟»

قال له الغُرير: «إذن، ألم تعدْني أنك لن تمسَّ سيارة أبدًا بعد الآن؟»

رد العُلجوم: «لم أقطع مثل هذا الوعد قط! بل على النقيض، أعدُكَ بكل صدق أن أول سيارة سأراها أمامي سأقفز بداخلها وأقودها!»

علَّق الفأر وقال للخُلد: «ألم أقلْ لك إن الكلام معه لن يُجدي نفعًا؟»

قال الغُرير بحزمٍ وهو يقف على قدمَيه: «لا بأس إذن! ما دمتَ لم تُذعِن بالإقناع، لنرى إذن ما سيفعله الإرغام معك. كنتُ أخشى أن يصلَ الأمر إلى ما نحن فيه الآن. لطالَما ألححتَ علينا بطلبك أن نأتيَ نحن الثلاثة ونسكن معك هذا البيت الجميل خاصَّتَك؛ حسنًا، سنَنتقِل إليه الآن، ولن نرحل عنه قبل أن نُعيدَك من هذا الغيِّ إلى رشدك. خُذاه إلى الطابق العلوي أنتما الاثنان وأوصِدا عليه باب غرفة نومه حتى نُسوِّي الأمورَ فيما بيننا.»

«أنت تعرف أن هذا لمصلحتِك يا عُلجومي!» قال الفأر ذلك بلطف للعُلجوم الذي كان يرفس بقدمَيه ويُصارع بينما كان صديقاه الوفيان يقتادانه صعودًا إلى الطابق العُلوي. ثم أكمل: «تخيَّل مقدار المرح الذي سنَحظى به معًا، تمامًا كما اعتدْنا، عندما تتخلَّص من هذه الغواية الفظيعة التي لدَيك!»

ثم قال الخُلد: «يا عُلجوم، سنَعتني بكل شيءٍ من أجلك حتى تتحسَّن حالتك ونرى أنك لا تُبدِّد مالك، كما كنتَ تفعل في السابق.»

قال الفأر وهو يدفعه ليدخل غرفة نومه: «لا مزيد من تلك المناوَشات المؤسِفة مع رجال الشرطة يا عُلجوم!»

ثم أضاف الخُلد وهو يُوصِد باب الغرفة: «ولا مزيد من أسابيع العلاج في المستشفى وتلقِّي النصائح والتعليمات من المُمرضات.»

هبَطا الدرج والعُلجوم بالأعلى يَنهال عليهم بالسبِّ من ثقْب مفتاح الباب، ثم اجتمع الأصدقاء الثلاثة ليتشاوَروا في هذا الأمر.

قال الغُرير متنهدًا: «أمامنا عملٌ شاقٌّ ومُضجِر. لم أرَ العُلجوم بهذا الإصرار من قبل، ومع ذلك سنُكمِل حتى النهاية. علينا ألَّا نتركَه ولو للحظة واحدة دون رقابة؛ لذلك سنَتناوَب على رقابتِه حتى يبرأ جسده من ذلك السمِّ الزعاف.»

وعلى ذلك، اتَّفقُوا على مناوَباتٍ للمراقَبة. كل حيوان منهم يَبيت ليلةً في غرفة العُلجوم؛ أما النهار، فقد قسَّموه على ثلاث مُدَد فيما بينهم. في بادئ الأمر لم يُطِق العُلجوم حرَّاسَه اليَقِظين وضاق بهم ذرعًا. وعندما كانت تُصيبه تلك النوبة العنيفة التي يتذكَّر فيها شغَفه بالسيارات، كان يُرتِّب مقاعد غرفة النوم ويصفُّها على هيئة سيارة، ثم يجلس على المقعد الأمامي ويَميل نحو الأمام مثبتًا نظره، ويُصدر أصواتًا نكراء تُحاكي ضوضاء محرك السيارة. وكان يظلُّ على تلك الحالة حتى تَصلَ النوبة إلى ذروتها حين ينقلب ويتشقلب في الهواء ثم يَهوي ممددًا وسط حطام المقاعد المبعثَرة وعلى وجهه علامات الرضا والسرور بما حدث، ولكن بمرور الأيام، قلَّت تلك النوبات العنيفة التي تعتريه تدريجيًّا، وكابد أصدقاؤه ليَصرِفوا عقله إلى هوايات جديدة، ولكن يبدو أن شغفه بتلك الهوايات الجديدة لم يحدث أبدًا، وصار ذابلًا فاتر الهمة وحزينًا.

وفي صباح يوم صحو، كان دور الفأر ليَتناوب المراقبة. صعد الفأر الدرَج ليُريح الغُرير الذي وجده يَتململَ ويتوق إلى الانطلاق ليتريَّض في جولةٍ طويلةٍ في البراري ويَخلد إلى بيته وأنفاقه. قال الغُرير للفأر خارج الغرفة: «ما زال العُلجوم نائمًا. لم أستطعْ أن أُحادثَه كثيرًا، اللهمَّ إلا من بعض الجمل مثل: «اتركني وحيدًا؛ أنا لا أريد شيئًا؛ قد أتحسَّن قريبًا؛ سيَنتهِي الأمر في موعدِه؛ لا تُفرِّط في قلقك.» وما شابه. عليك أن تنتبه جيدًا، يا فأر! عندما يكون العُلجوم هادئًا وخاضعًا ويرقُّ طبعه، فما هو إلا ذئب في ثياب الحُمْلان! حينها، من المؤكَّد أنه يُخطِّط لشيءٍ ما. أنا أعرفه جيدًا. أما وقد بلَّغتُك، فيجب أن أمضيَ في طريقي الآن!»

سأل الفأر بمرحٍ وهو يَقترب من جانب سرير العُلجوم: «كيف حالُك اليوم يا صديقي؟»

اضطرَّ إلى أن ينتظر بضع دقائق حتى يَحصل على إجابة عن سؤاله. سمع صوتًا واهنًا يردُّ عليه ويقول: «شكرًا جزيلًا لك على سؤالك يا عزيزي فأرون! لطفٌ منك أن تسأل عني، ولكن أخبرني أولًا، كيف حالك أنت وكيف هو صديقنا الرائع الخُلد؟»

رد الفأر وقال: «نحن بخير.» ثم استرسلَ في كلامه دون حذر وقال: «الخُلد ذاهب برفقة الغُرير لقضاء بعض المهامِّ السريعة، ولن يعودا حتى الغداء؛ لذلك سنَقضي أنا وأنت وقتًا ممتعًا معًا طوال هذا الصباح، وأعدُك أني سأبذُل جهدي لأسرِّيَ عنك. هيا انهض أيها الحيوان الطيب، ولا تَستلقِ حزينًا كئيبًا في صباح مُشرِق كهذا!»

همهم العُلجوم قائلًا: «يا عزيزي الفأر اللطيف. ما أضحلَ عِلمَك بحالتي، وما أبعَدني عن النهوض الآن أو أبدًا. لكن لا تشغل بالك بي؛ فأنا أكره أن أكون عبئًا على أصدقائي، ولا أتوقَّع أن أظلَّ في حالتي هذه طويلًا. آمُل ذلك بكلِّ تأكيد.»

قال الفأر متأثرًا: «وأنا كذلك آمُل هذا! لقد كنتَ تُزعجنا أيما إزعاج طوال ذلك الوقت، وأنا سعيد لعِلمي أن هذا الإزعاج سيَنتهي. في طقس جميل كهذا، وموسم التجديف على وشك أن يبدأ! عيبٌ عليك ما تفعله يا عُلجوم! أنت لست عبئًا لنتذمَّر منه، ولكنك تُضيِّع علينا الكثير من الأشياء الرائعة!»

رد العُلجوم بفتور: «ومع ذلك، أخشى أني أصبحتُ عبئًا تتذمَّرون منه. هذا أمرٌ فطريٌّ أنا أتفهَّمه جيدًا. لقد مللتُ اكتراثكم لأمري، ولهذا، لن أسألك أن تفعل أي شيء بعد الآن. فأنا مصدر إزعاج، أعلم ذلك.»

رد الفأر وقال: «بلا شك أنت مصدر إزعاج، ولكني أؤكِّد لك أني على استعداد لتحمُّل أي عناء على سطح الأرض، شريطة أن تُصبح حيوانًا ذا عقل رشيد.»

همهم العُلجوم بصوت أوهنَ من ذي قبل: «إذا كان الأمر كذلك يا فأرون، فها أنا ذا أتوسَّل إليك، للمرة الأخيرة على الأرجح، أن تذهب إلى القرية لتُحضرَ الطبيب بأقصى سرعة. أخشى أن أوانه قد فات حتى لو كان موجودًا بينَنا الآن. أنا أعلم أن هذا طلب فيه عناء ومشقة، ولعلَّنا نَنتظر حتى تأخذ الأمور مجراها الطبيعي!»

اقترب الفأر منه ليفحصَه وهو يسأله: «لماذا تحتاج إلى طبيب؟» وبالطبع، لم يحرك العُلجوم ساكنًا وظلَّ راقدًا وصوته واهنًا أكثر وقد تغيَّر أسلوبه تغييرًا كبيرًا.

همهم العُلجوم وقال: «بالتأكيد قد لاحظت منذ مدة ... لكن لا، لا! لِم عليك أن تفعل هذا؟ فالملاحظة هي عناء آخر. غدًا، قد تُحدِّث نفسك نادمًا وتقول: «أوه، فقط لو كنت قد لاحظتُ هذا قبل ذلك! لو كنت فعلت شيئًا حيال الأمر!» ولكن لا؛ لا تُرهِق نفسك وتُقاسي عناءً آخر. لا عليك؛ انسَ أني قد طلبتُ منك هذا.»

قال الفأر وقد بدأ يرتاع: «اسمع أيها الحيوان العجوز! سأذهب وأُحضر لك طبيبًا بكل تأكيد إن كنت تظن أنك بحاجةٍ إليه، ولكن لا يُمكن أن تسوء حالتك لتلك الدرجة في هذا الوقت القصير. دعنا نتحدث حول أمر آخر.»

قال العُلجوم وقد ارتسمت على شفتَيه ابتسامة بائسة: «أخشى يا صديقي العزيز أن الحديث لن يُجدي نفعًا في حالتي هذه، وأشكُّ أن الطبيب قد يكون ذا نفع أيضًا. ومع هذا، على المرء ألَّا يتركَ باب أمل إلا ويطرقه. أرى أنك ستَذهب لإحضار الطبيب وأكره أن أُرهقَ كاهلك بعبءٍ إضافي، ولكن الشيء بالشيء يذكر؛ فهلَّا مررتَ على المحامي في طريقِك وأخبرتَه أن يَحضر؟ فهذا هو الوقت المناسب. ففي الحياة دائمًا ما تكون هناك لحظات — ولعلِّي أقول لحظة — حين يضطر المرء أن يتجرَّع كأس المهام المريرة بصدرٍ رحب، ومهما كان ثقلها على النفس المنهكة!»

قال الفأر المذعور محدِّثًا نفسه وهو يهرع خارجًا من الغرفة: «محامٍ! لا بد أن حالته في غاية السوء!» ومع ذلك لم ينسَ أن يُوصِد باب الغرفة بإحكام بعد خروجه.

وخارج الغرفة، وقَف ليُفكِّر في الأمر وحيدًا؛ فصديقاه كانا بعيدَين جدًّا عن بيت العُلجوم، ولا يوجد أحد ليتشاور معه.

قال شاردًا وهو ينعم التفكير: «من الأفضل أن أحتاط وأركن إلى الخيار الآمن. لقد عهدت العُلجوم وهو يُوهم نفسه بأشياء في السابق إيهامًا مُروعًا دون أدنى سبب مطلقًا، ولكني لم أسمع أنه قد طلب محاميًا قط! إن كانت حالته ليسَت بهذا السوء، سيُخبِره الطبيب أنه صار شيخًا عجوزًا وسيَرفع من معنوياته، وسيكون ذلك مكسبًا. من الأفضل أن أُسايرَه فيما يريد وأذهب؛ فلن يَستغرق الأمر وقتًا طويلًا.» وانطلق من فوره إلى القرية مبعوثًا للرحمة.

أخذ العُلجوم، الذي قفز برشاقة من السرير حين سمع صوت المفتاح وهو يدور في القفل، يُراقب الفأر من النافذة باهتمام حتى اختفى في طريقه بعيدًا. ثم ارتدى أحسن حلَّة لديه في ذلك الوقت بأسرع ما يُمكنه وهو يقهقه من الضحك، ثم ملأ جيوبه بالنقود التي حصل عليها من درج صغير في طاولة التزين، ثم أخذ يعقد ملاءات السرير معًا ليَفتِل حبلًا، ثم لفَّ طرف ذلك الحبل المبتكَر حول العمود الأوسط لنافذة الغرفة ذات الطراز التيودوري والتي كانت إحدى معالم غرفة نومه. وبعد ذلك، أخرج جسده من النافذة وانسل بخفة حتى وصل إلى الأرض، ثم سلك طريقًا معاكسًا للطريق الذي سار فيه الفأر، وانطلق فيه مسرعًا خاليَ البال، منشرح الصدر، يُدندن لحنًا سعيدًا.

كان غداءً مغمًّا قابضًا لنفس الفأر حين رجع الغُرير والخُلد بعد وقت طويل. وكان عليه أن يُواجهَهُما على مائدة الطعام بأحداث تلك الواقعة المثيرة للشفقة وغير المقنعة. يُمكن تخيُّل كم كانت تعليقات الغُرير وملاحظاته لاذعة، بل وقاسية، إلا أن الفأر استطاع

تحمُّلها. ولكن ما آلمَ الفأر هو أنه لم يَسلم كذلك من انتقاد الخُلد على الرغم أنه كان يحاول الوقوف في صف صديقه قدر الإمكان، فقال له: «لقد كنتَ أخرقَ بعض الشيء هذه المرة يا فأرون! والعُلجوم من وسط جميع الحيوانات!»

قال الفأر بنبرةٍ حزينةٍ وقد أصابَه الغم: «لقد كان بارعًا براعة لا مثيل لها!»

رد الغُرير عليه بحدة وقال: «بل احتالَ عليك ببراعةٍ لا مثيل لها! على أي حال، الكلام لن يُصلحَ ما فسد من الأمور. من المؤكَّد أنه في الوقت الحالي في مكانٍ ما بعيد كل البعد عن هنا، ولكن أسوَأَ شيء، أنه سيعجب ويتفاخَر بما يظن أنها براعة وسيُقدم على فعل أي حماقة. ولكن سلوانا هي أننا أصبحنا أحرارًا الآن ولسْنا بحاجةٍ إلى تضييع مزيدٍ من أوقاتنا الثمينة في مراقبته. ولكن علينا أن نَبيت في بيت العُلجوم مدة أطول، فلربما يعود في أي وقت، ولا أدري أمصابًا على نقالة أم مقبوضًا عليه من قِبَل رجلَين من رجال الشرطة.»

وهكذا قال الغُرير، جاهلًا بما يُخبئه المستقبل بين طياته، وبمقدار الوقت الذي سيستغرقه العُلجوم ليصفوَ كدر مائه ويعود ليسكن بيت آبائه وأجداده مرة أخرى.

في ذلك الوقت، كان العُلجوم يسير في الطريق السريع، على بُعد عدة أميال عن المنزل، بنشاط وهمة في غاية السعادة مستخفًّا بعواقب الأمور. في أول الأمر، سلك طرقًا جانبية وعبَرَ العديد من الحقول وغيَّر مساره المرة بعد المرة مخافة أن يكون ملاحَقًا، ولكن الآن بعد أن أحسَّ بأنه في مأمنٍ من أن يُدرَك، والشمس تغمره بأشعتها الدافئة الحنونة، وكل الطبيعة من حوله تهلِّل له وتُصفِّق في استِحسانٍ لأنشودة الثناء على النفس التي يُغنيها له قلبه، كاد يرقص على طول الطريق من فرط الرضا والخُيَلاء.

قال مُثنيًا على نفسه وهو سعيد: «يا لها من حيلة ذكية بارعة! عندما يكون الدهاء في مواجهة القوة الغاشمة، دائمًا ما يتفوَّق العقل كما هو مقدَّر له. يا لفأرون المسكين! يا إلهي! ماذا سيفعل عندما يعود الغُرير؟ إنه حيوان جدير بالاحترام ويتمتَّع بالعديد من الصفات الطيبة ولكنَّ له نصيبًا ضئيلًا من الذكاء ولا حظَّ له مطلقًا من التعليم. عليَّ أن آخذ بيده يومًا ولنرى إن كنت أستطيع أن أجعل منه حيوانًا ذا شأن.»

ظل يخطو للأمام في ثقة، وعقله مملوء بكل تلك الأفكار المتعجرفة، حتى وصل إلى قرية صغيرة حيث ذكَّرته لافتة تتأرجح أعلى الطريق في منتصف الشارع الرئيسي ومكتوب عليها «الليث الأحمر»، بأنه لم يتناول فطوره بعدُ وأنه يتضوَّر جوعًا بعد أن قطع كل تلك

المسافة ماشيًا. قصد تلك الحانة وطلب أفضل وجبة غداء يُمكن إعدادُها في وقت قصير، ثم جلس ليتناولَها في غرفة تقديم المشروبات.

كان قد الْتهم نصف وجبتِه عندما سمع صوتًا يعرفه جيدًا يقترب من أقصى الطريق والذي جعل جسده يَنتفِض من منبت شعره إلى أخمص قدميه. كان صوت سيارة — «تووت! تووت!» — والذي أخذ يَقترب أكثر فأكثر حتى كان يمكن سماع السيارة وهي تدخل ساحة انتظار الحانة ثم تقف ساكنة. قبض العُلجوم بيده ممسكًا بإحدى قوائم المنضدة ليُسيطِر ويُخفي انفعاله الجياش. في ذلك الوقت، دخل أصحاب السيارة إلى غرفة تقديم المشروبات وهم جوعى ولكن سُعداء لا تكاد ألسنتهم تسكُت عن الحديث عن مغامراتهم الصباحية والمميزات التي منحتْهم إياها تلك السيارة التي أوصلتْهم إلى هنا دون عناء أو مشقة. أنصت العُلجوم جيدًا واسترق السمع لبعض الوقت، ثم لم يعدْ يَحتمل أكثر. انسلَّ خارجًا من الغرفة بهدوء ودفع ثمن طعامه للساقي، وعندما خرج بدأ يمشي الهوينى باتجاه ساحة الانتظار وقال لنفسه: «لا ضرر إن ألقيتُ نظرة عليها فقط!»

كانت السيارة واقفة في منتصف الساحة مهمَلة دون حراسة؛ ففتية الإسطبل وغيرهم من المُساعدين كانوا يتناولون غداءهم. دار العُلجوم حولها بأناة وأخذ يتفحَّصها ويحدِّد عيوبها ويتأملها بعمق شديد.

تساءل وقال: «يا ترى، أتدور هذه السيارة بسهولة؟»

في اللحظة التالية، وجد نفسه، دون أن يشعر كيف حدث ذلك، ممسكًا بذراع التدوير ويُديره. وعندما ارتفع ذلك الصوت المألوف، استيقظ شغفُه القديم حتى تمكَّن منه وسيطر على جسده وروحه سيطرة كاملة. وكما لو كان يحلم، فقد وجد نفسه بطريقة أو بأخرى، جالسًا في مقعد السائق وسحب ذراع نقل السرعة ودار بالسيارة في الساحة ثم انطلق خارجًا من البوابة ذات القنطرة. وكما في الأحلام، بدا أن بوصلة الصواب والخطأ عنده قد توقَّفت بصفة مؤقَّتة، وكذلك الخوف من العواقب الوخيمة الواضحة. زاد من سرعته، وأخذت السيارة تطوي الطريق من تحتها طيًّا وهي منطلقة للأمام على الطريق السريع وسط الريف. كان واعيًا فقط بحقيقة أنه قد عاد العُلجوم مرةً أخرى، العُلجوم في أفضل حالاته وأوج قوته. عاد العُلجوم الرهيب؛ قاهر القواعد المرورية وملك الدروب الخالية. عاد العُلجوم الذي على الجميع أن يُفسحوا الطريق أمامه، وإلا رضوا بأن يُسحَقوا إلى العدم والفناء الأبدي. كان يُغني وهو يكاد يطير، وشاركته السيارة في لحنه بطنين

رنان. كانت الأميال تُلتهم تحت عجلات السيارة كلما زاد من سرعتها وهو لا يدري إلى أين هو ذاهب، فقد كان يُشبع غرائزه ويعيش اللحظة، غير عابئ بما يخلفه من عواقب.

علق رئيس قضاة الجلسة بابتهاج وقال: «أرى أن الإشكالية الوحيدة التي تَفرض نفسها في هذه القضية الواضحة كوضوح الشمس في كبد السماء؛ هي كيف يتسنَّى لنا أن نوقع أقصى عقوبة بهذا الشقي العنيد والهمجي ذي الرأس الصلب الذي نراه يَنكمِش مرتعدًا في القفص الذي أمامنا. لنَسرد ما لدينا من حقائق: لقد قُبض عليه متلبسًا بالجرم المشهود؛ أولا بسرقة سيارة ثمينة؛ ثانيًا بالقيادة بتهور وتعريض حياة العامة للخطر؛ وثالثًا بالتعامل بوقاحة وسفاهة مع رجال شرطة الريف. أيها الكاتب، هلا أخبرتنا رجاءً ما هي أقصى عقوبة يمكن لنا الحكم بها في كلٍّ من تلك التُّهَم؟ وبالطبع دون إعطاء السجين أي فرصة للتشكيك؛ فلا مجال لذلك أصلًا!»

حك الكاتب أنفه بالقلم ثم علَّق قائلًا: «قد يَعدُّ بعض الناس سرقة السيارة هي الجريمة الأفظع؛ وهم في ذلك مُحِقون. ولكن إهانة رجال الشرطة والتعامل معهم بوقاحة تستحقُّ أقصى عقوبة بلا أدنى شك؛ وهذا ما ينبغي أن يكون. لنفترض أن عقوبة السرقة هي اثنا عشرَ شهرًا، وهي بذلك عقوبة مخففة؛ وعقوبة القيادة المتهوِّرة هي ثلاث سنوات، وهي بذلك عقوبة فيها قدر كبير من التسامح؛ وعقوبة إهانة رجال الشرطة هي خمسة عشر عامًا؛ فقد كانت الوقاحة على نحوٍ لا مثيل له استنادًا إلى شهادة الشهود، حتى إذا صدَّقنا فقط عُشْر ما قالوه؛ فأنا، شخصيًّا، لا أصدق أكثر من ذلك. تلك الأحكام إذا جُمعَتْ معًا جمعًا صحيحًا، فسيكون الناتج تسعة عشر عامًا ...»

قال رئيس القضاة: «كلام لا غُبار عليه!»

قال الكاتب متمًّا كلامه: «... لذلك أرى أن نحتاط من أمرنا ونجعلها عشرين سنة!»

قال رئيس القضاة مستحسنًا: «اقتراح ممتاز!» ثم أكمل: «يا متَّهم! هيا اجمع شتات نفسك وانتصبْ واقفًا. لقد حُكم عليك بالحبس لمدة عشرين سنة. وحاذر أن تقف أمامَنا مرةً أخرى مُدانًا بأي تهمة مهما كانت، وإلا فسنضطرُّ لعقابك بقسوة بالغة.»

أحاط الضباط الشديدو البأس بالعُلجوم المسكين، وغلُّوه بالسلاسل والقيود ثم جرُّوه إلى خارج المحكمة وهو يَصرخ تارةً ويتوسل أو يحتج تارة أخرى. مرُّوا به على السوق حيث انصبَّ عليه العامة الذين مُلئوا نشاطًا بالسخرية وقذفوه بالجزر ونعتوه بالألفاظ والعبارات القبيحة؛ هؤلاء العامة المنافقون الذين دائمًا ما يتعاملون بعنف تجاه من يُضبط بجريمة، وفي الوقت نفسه، هم أشد الناس تعاطفًا ومساعدة عندما يكون

الشخص ممَّن هم مطلوب القبض عليهم. ثم مروا على جمع من طلاب المدارس الذين أخذوا يُطلقون صيحات استهجان وكانت تُضيء وجوههم البريئة تلك السعادة التي لا تكون إلا عندما يشاهدون رجلًا فاضلًا في محنة. ثم عبروا الجسر المتحرك الأجوف ومرُّوا تحت الباب الحديدي المُنزلِق ذي الأسنان المدبَّبة الذي يتدلى من قنطرة عبوسة في قلعة موحِشة وقديمة والتي كانت أبراجها العتيقة ترتفِع عاليًا في السماء. ثم مرُّوا على غرف الحراس المليئة بالجنود المُبتسِمين في فترة الراحة، ثم بالحارس الذي أخذ يسعل في تهكُّم وسخرية؛ لأن هذا هو ما يَستطيع فعله كحارس للتعبير عن ازدرائه واحتقاره للجريمة. صعدوا سلالم ملتفَّة بالية، ثم مروا على جنود يرتدون دروعًا وخوذًا من صلب وفي أعينهم نظرات وعيد وإنذار. ثم عبروا ساحة القلعة حيث الكلاب الضخمة تضرب الهواء بقوائمه وتجذب السلاسل وتُريد أن تكسرها لتنال منه. ثم مرُّوا على السجانين العجائز ومطاردهم مسنودة على الحائط وقد غَفوا في قيلولة بعد أن تناولوا فطيرة وإبريقًا من الجعة البُنية. بعدها مروا على غرفتي التعذيب الواحدة تلو الأخرى؛ غرفة المخلعة ثم غرفة لولب الإبهام، ثم على المنعطف الذي يؤدِّي إلى المشنقة، حتى وصلوا إلى باب أكثر الزنازين رعبًا وترويعًا في قلب هذا الحصن المنيع. وهناك توقفوا أخيرًا حيث كان يقف سجانٌ عجوزٌ يُمسك حلقة من المفاتيح الضخمة بأصابعه.

صاح الرقيب وهو يخلع خوذته ويمسح عرق جبينه: «يا رحيم! قم واقفًا أيها الوغد الأشيَب واستلم منا هذا العُلجوم القذر؛ إنه مُجرم ذو ذنب عظيم ودهاء لا يُضاهيه دهاء وحيلة واسعة. ضعه في زنزانة وراقبه مراقبة صارمة. لا تتهاون في معاملته أيها العجوز؛ فإن حدثت أي مشكلة منه، فستُعاقبان أنتما الاثنان؛ رأسك العجوز أمام رأسه؛ لعن الله ذَينك الرأسَين!»

هز السجان رأسه متجهمًا وهو يحطُّ يده الهزيلة على كتف العُلجوم البائس. دار المفتاح الصدِئ في القفل مُصدرًا صوت صرير، ثم قرقع الباب الضخم وهو يقفل خلفه. وأصبح العُلجوم سجينًا لا حول له ولا قوة في أبعد زنزانة في بطن أشد القلاع حراسة وأعتاها في مشارق إنجلترا الحبيبة ومغاربها.

الفصل السابع

زمار مطلع الفجر

كان طائر النقشارة مختفيًا وراء شفير ضفة النهر المظلم يغرِّد لحنه القصير. ومع أن الوقت قد تخطَّى العاشرة مساءً، كانت السماء ما تزال تتشبَّث وتَحتفِظ ببعض ما تبقَّى من ذيول ضوء النهار المتواري، وانقشعت حرارة ما بعد الظهيرة المُلهبة وتبدَّدت عندما حلَّت نسمات ليالي منتصف الصيف القصيرة الباردة. استلقى الخُلد مسترخيًا على ضفة النهر منتظرًا رجوع صديقه، وما يزال صدره متأججًا من إجهاد ذلك اليوم القائظ الذي لم تشهد سماؤه سحابة ولا غيمة من مطلع الفجر إلى غسق الدجى. كان يتنزَّه مع بعض رفاقه في النهر تاركًا فأر الماء ليَستمتِع بصحبة صديقه ثعلب الماء في جلسة طويلة، ثم عاد ليجد البيت مظلمًا وخاليًا ولا أثر فيه للفأر الذي كان بلا شك ما يزال في جلسة سمر متأخِّرة مع رفيقه القديم. كان الجو حارًّا وخانقًا كفاية بحيث لا يمكن معه البقاء في داخل البيت؛ لذلك قرَّر أن يخرج ويَستلقي على العشب البارد ويسترجع أحداث يومه ونشاطاته، وكيف كانت جميعها مُرضية جدًّا.

كانت خطوات الفأر خفيفة ولكنها مسموعة وهو يقترب ويدب على العشب الجاف. قال وهو يجلس: «يا أللهْ! يا لهذا الهواء البارد المنعش!» ثم صمت ونظر متأملًا في النهر وبالُه مشغول.

بادره الخُلد بسؤال وقال: «بقيتَ حتى موعد طعام العشاء؟ أليس كذلك؟»

رد الفأر وقال: «ببساطة اضطررتُ إلى ذلك! فلم يكن ليسمحوا برحيلي قبل أن أتناول العشاء معهم. أنت تعرف مدى طيبتهم؛ فقد بذلوا ما بوسعهم حرصًا منهم على راحتي وسعادتي منذ حللت عندهم حتى اللحظة التي غادرت فيها، لكني كنت أشعر أني بليد الإحساس طيلة الوقت؛ فقد كان باديًا أن بهم حزنًا شديدًا، مع أنهم كانوا يُحاولون

إخفاءه. أخشى ما أخشاه أن تكون حلَّت بهم مصيبة يا خُلد؛ فصغيرهم كروش اختفى مجددًا، وأنت تعرف مقدار حب أبيه له حتى وإن كان لا يُصرِّح أبدًا بمشاعره هذه.»

قال الخُلد بهدوء: «ماذا؟ ذلك الصغير؟ حسنًا، لنفترض أنه اختفى، فما الداعي إذن للقلق؟ فمن عادته أن يَشرد ويضلَّ طريقه، ثم يعود بعد ذلك؛ فهو حيوان مغامر وجريء، ولم يُصبْه أيُّ أذًى قبل ذلك. إن جميع الحيوانات في هذه المنطقة تعرفه وتُحبه كما يُحبون أباه؛ ثعلب الماء العجوز. ومن المؤكد أن حيوانًا ما سيَجدُه في طريقه ويُعيده إلى البيت سالمًا غانمًا. وقد حدث أن وجدناه بأنفسِنا على بعد أميال من البيت وقد كان سعيدًا وهادئًا!»

رد الفأر بنبرة جادة: «أنت على حق، ولكن هذه المرة الوضع في غاية الخطورة. لقد اختفى منذ عدة أيام، وثعالب الماء بحثَت عنه في كل مكان؛ على التلال وفي الوديان، ولا أثر له. سألوا جميع الحيوانات التي قابلوها على بُعد أميال حول المكان، ولكن لم يره أحد ولم يسمع عنه حيوان. وكان من البين أن ثعلب الماء كان مهمومًا أكثر مما يَعترف. عرفتُ منه أثناء حديثنا أن الصغير كروش لم يُتقِن السباحة بعد، وأرى أنه يفكر في البحث عنه عند السد المائي؛ ففي هذا الوقت من العام، يزداد تيار الماء المنهمر من أعلى السد مما يجذب الأطفال بجماله وروعته. وهناك، كما تعلم، تزداد الفخاخ والمصائد. إن ثعلب الماء ليس ممَّن ينتابهم التوتُّر والقلق دون داعٍ بشأن أبنائهم، ولكنه الآن قلِقٌ ومُضطرِب. وعندما هممتُ بالرحيل، خرج معي مدَّعيًا أنه يريد استنشاق بعض الهواء المُنعِش وتحدَّث عن رغبته في الترِيُّض قليلًا ليُمدِّد قدميه، ولكني كنت أرى في عينيه أنه خرج لسبب غير ذلك، فضغطت عليه واستدرجته حتى باح لي بكل ما في صدره. كان يُفكر بالذهاب للجلوس والمراقبة طوال الليل عند مَخاضة النهر. أتعرف ذلك المكان الذي كانت المَخاضة القديمة موجودةً فيه قبل أن يُبنى الجسر؟»

قال الخُلد: «أعرفه جيدًا! ولكن لماذا اختار ثعلب الماء أن يراقب هذا المكان بالتحديد؟»

أكمل الفأر كلامه وقال: «حسنًا، أظن لأنه المكان الذي تلقَّى فيه كروش أول دروس السباحة؛ هناك حيث الأرض الضحلة الحصباء بالقرب من ضفة النهر. وهناك علمه أبوه أيضًا الصيد، وحيث اصطاد كروش أول سمكة في حياته والتي كان فخورًا بها أشد الفخر. كان الصغير يحبُّ تلك البقعة، وثعلب الماء يظن أن ولده إذا رجع عائدًا من حيثما كان — إن كان حقًّا هذا الصغير المسكين مفقودًا في أي مكان في ذلك الوقت — فلربما يرغب في أن يمر على المخاضة ذات المياه الضحلة التي لطالَما أحبها؛ أو إذا مر عليها

بالصدفة في طريقه، فربما يتذكَّرها جيدًا ويتوقف ليلهو ويلعب بها قليلًا؛ لذلك يذهب ثعلب الماء كل ليلة إلى هناك ويجلس منتظرًا، على أمل أن يذهب صغيره إلى هناك.»

سادت لحظات من الصمت كانا يُفكِّران خلالها في الشيء ذاته؛ ذلك الحيوان الذي يجلس وحيدًا طوال الليل بجانب المخاضة، وقلبه يكاد يَنفطِر حزنًا على ولده، وهو يُراقب وينتظر آملًا أن يعود إليه ولده.

قطع الفأر لحظات الصمت وقال: «حسنًا، أظن أن علينا أن نذهب إلى البيت.» ولكنه لم يُحرك ساكنًا وظل كما هو.

رد عليه الخُلد وقال: «لا أستطيع أن أذهب إلى البيت وأرقد في فراشي لأنام دون أن أفعل شيئًا حيال هذا الأمر يا فأر، مع أنه يبدو أن لا شيء بأيدينا لنفعله. دعنا نُخرج القارب ونجدِّف أعلى النهر، فالقمر سينير السماء في غضون ساعة أو أقل، وحينها سنُفتِّش عنه قدر استطاعتنا؛ فهذا أفضل من أن نذهب للنوم دون أن نفعل شيئًا.»

قال الفأر: «هذا ما كنت أفكر فيه! فلِمثل هذه الليالي لم تُصنع الأسِرَّة، والفجر ليس ببعيد جدًّا، وربما تصل إلينا أخباره ممن استيقظوا مبكرًا ونحن ماضون في طريقنا.»

أخرجا القارب إلى النهر وأمسك الفأر بالمجدافَين مسيِّرًا القارب بحرص وأناة. وفي منتصف النهر، كان هناك مسار ضيق صافٍ تنعكس على صفحته صورة باهتة للسماء، ولكن حيثما ارتمت الظلال على سطح النهر؛ سواء أكانت للضفة أم الأشجار أم الشجيرات، فقد كانت تبدو كأنها امتداد لضفتي النهر، واضطر الخُلد أن يقود القارب مبتعدًا عن تلك الظلال القاتمة. كان الليل كعادته، مظلمًا ومقفرًا، تملؤه ضوضاء خافتة وألحان وهمهمات وخشخشة، تحكي جميعها معًا قصة هؤلاء القلة من الحيوانات المستيقظة الذين يُنجِزون أعمالهم وحوائجهم بهمة ونشاط طوال الليل حتى تتسلَّل أشعة الشمس من بين أجنحة الليل مذكِّرة إياهم بأن قد حان أخيرًا موعد الخلود إلى النوم الذي استحقوه عن جدارة. كانت أصوات مياه النهر هي الأخرى أشدَّ جلاءً ووضوحًا من ساعات النهار؛ فقد كان صوت بقبقة المياه مسموعًا أكثر على غير المتوقَّع، وكان يسترعي انتباههما على نحو أكبر، وعلى حين غرة سَمِعا ما بدا لهما أنه صوت نداء واضح من حيوانٍ ما.

كان خط الأفق واضحًا يفرق ما بين السماء والأرض، وفي أحد أركانه، كان لون السماء الأسود يُقابل وميضًا فضيًّا وهاجًا يَرتفِع شيئًا فشيئًا. وأخيرًا، بدا القمر وأخذ يرتقي في بطء ومهابة فوق حافة الأرض المتعطشة لضيائه حتى ظهر جليًّا فوق الأفق وبدأ رحلة الصعود منطلقًا كسفينة رفعت مِرْساتها من الماء. حينها انكشف كل شيء

برفقٍ وهدوء خاليًا من الغموض وكل ما يبث الذعر في النفس؛ فتمكَّنا من رؤية المروج المبسوطة، والبساتين الوديعة، كما رأيا عرض النهر من الضفة إلى الضفة. كان كل شيء وهاجًا كما كان وقت النهار ولكن شتان بين هذا الوهج وذاك. حيَّتْهما بقاعُهما المحبَّبة مرة أخرى ولكن في حلة جديدة؛ كأنها انسلَّت من ثيابها القديمة وخلعتها عنها ثم ارتدت هذه الحلة الصافية اللون وعادت بهدوء تَبتسِم في خجل وتنتظر أن يتعرَّفا عليها في كسوتها الجديدة هذه.

ربط الصديقان القارب وشدا وثاقه في شجرة صفصاف، وهبَطا إلى أرض تلك المملكة الفضية الصامتة، واستكشَفا بأناةٍ ما حولهما من سياجات شجيرات وأشجار مجوفة، وتفحَّصا جداول الماء ومجاريَها الصغيرة، وفتَّشا الأخاديد وقنوات المياه الجافة. ثم ركبا القارب مجددًا وذهَبا للضفة المقابلة وشرَعا في البحث هناك. هكذا كان الحال طوال طريقهما حتى أعلى النهر، بينما بذل القمر، الذي كان مُنيرًا ووحيدًا في سماء لم يعكر صفوها غمام، ما بوسعه لمساعدتهما في رحلة بحثهما، رغم أنه كان بعيدًا جدًّا، حتى حان وقت رحيله وغاص مُكرهًا وراء الأفق تاركًا إياهما، وعندها حل الظلام بغموضه على النهر وما حوله من حقول مرة أخرى.

ثم طرأ تغيُّر بطيء وأعلن عن نفسه. بدا الأفق أوضح، وظهرت الحقول والأشجار على مرأى البصر مرة أخرى ولكن هذه المرة بحلة أخرى، وبدأ الظلام وما صاحبه من غموض ينقشع ويفر هاربًا. غرَّد عصفورٌ على نحو مفاجئ ثم سكت، ومرت نسمة عليلة هزت البوص وعشب البرك حتى سُمع صوت حفيفهما. كان الفأر في مؤخِّرة القارب بينما الخُلد يجدف، وفجأة اعتدل الفأر في جلسته وأنصتَ في تركيز شديد. نظر إليه الخُلد، الذي كان يحرِّك القارب بضربات رقيقة بالمجدافَين ويفحص الضفاف على جانبَيه فحصًا دقيقًا، في دهشة وذهول.

قال الفأر في حسرة وهو يغوص مرةً أخرى في مقعده: «لقد اختفى! إنه صوت عذب وشجي وغريب جدًّا! لقد اختفى سريعًا قبل أن أشبع من حلاوته، حتى إني أكاد أتمنى لو لم أسمعه قط. إنه قد أضرم في صدري نار الشوق، وهان كل شيء في نظري فلم أَعُد أصبو إلا إلى أن أُطرب أذني به مرة أخرى، ثم أستزيد المرة بعد المرة إلى أبَد الآبدين.» ثم صاح مُنتبهًا مرة ثانية وقال: «كلا، أنا لا أصدِّق! لقد عاد مجددًا!» ثم سكن في صمت طويل مُنتشيًا كأنه مسحور.

ثم قال بعد فترة: «ها هو يختفي من جديدٍ لأفقد أثره! آه يا خُلد، لو تدري كم هو عذب ذلك الصوت! بهجة لحنِه تجعلك تفيض فرحًا، ونداءٌ صافٍ يَكمن في أنغامه البهيجة

القادمة من بعيد! لم أسمع مثل هذا اللحن ولو في أحلامي، والنداء في طياته أقوى وأشد من عذوبة أنغامه! جدِّف بهمة يا خُلد! جدِّف، فهذا النداء وذلك اللحن يَطلباننا!»

أطاعه الخُلد في عجب شديد وقال: «أنا لا أسمع شيئًا إلا صوت الرياح تتخلَّل بين العشب وتلاعب عيدان البوص وعيدان الصفصاف.»

لم يردَّ عليه الفأر مطلقًا، هذا إن كان قد سمعه أصلًا. لقد كان يَهيم في عالمٍ آخر متأثرًا ومُندهشًا. كان هذا الشيء الإلهي المقدس مستحوذًا على جميع حواسِّه بعد أن أمسك بروحِه البائسةِ الضعيفةِ وهدهدَها وجعلها تتمايل. لقد كان كرضيعٍ مغلوبٍ على أمرِه محمول بين قبضتَين محكمتَين، لكنه كان في غاية السرور.

أكمل الخُلد التجديف في صمت وثبات، وسرعان ما وصَلا إلى نقطة ينقسم عندها النهر ويتفرَّع منه نهير طويل ذو مياه راكدة. أشار الفأر، بإيماءة خفيفة برأسه، للمُجدِّف أن يسلك المياه الراكدة، بعد أن كان قد أرخى حبال الدَّفَّة منذ وقت طويل. كان ضوء الصباح الزاحف يسطع رويدًا رويدًا، حتى أصبَحا يُشاهِدان ألوان الزهور المنعكسة على حافة النهر كأنها لؤلؤ منثور.

صاح الفأر في بهجة وقال: «ها هو يَزداد صفاءً ووضوحًا كلَّما اقتربنا منه! أنت تَسمعه الآن بلا شك! أوه ... أخيرًا ... أرى أثره عليك!»

كان الخُلد قد توقَّف عن التجديف بعد أن أسرَتْ لبَّه واستحوذت عليه تمامًا تلك الأنغام المسكرة التي خرجت من مزمار شجي، فتركته حبيس الأنفاس مبهورًا، لا يُحرك ساكنًا. شاهد الدموع تنهمر على وجنتَي رفيقه، فأومأ برأسه ليُبديَ تفهُّمه لما كان يشعر به. ظلَّا على تلك الحالة برهةً من الزمان وأزهار الفرندل الأرجوانية على حافة الضفة تُداعبهما. ثم أحس الخُلد بوقع النداء المُلِحِّ الواضح الذي يُصاحب هذا اللحن الطروب كظله، وانحنى من فوره كأنه آلةٌ وأمسك بالمجدافَين مرة أخرى. كان الضياء يزداد شيئًا فشيئًا في ثباتٍ وقوة، ولكن لا أثر لتغريد الطيور كما اعتادَت عند مطلع الفجر، ولم يكن يسمع صوتًا إلا صوت هذا اللحن السماوي البديع.

في ذلك الصباح كان كل شيء مختلفًا على جانبي القارب وهما ينزلقان إلى الأمام عبر مياه النهر؛ فالعُشب في المروج كان نضرًا زاهيَ اللون في بهاء لم يشهَدا له مثيلًا قط. ولم يُلاحِظا قبلُ الورود وهي مُزهِرة وتَنبِض بقوة بالحياة هكذا؛ ولا نباتات السنفية وهي صاخبة على هذا النحو؛ ولا إكليلية المروج ورائحتها زكية وعِطرُها فواح بشدة هكذا. ثم اقترب صوت هدير مياه السد وبدأ يعلو ويُغطي شيئًا فشيئًا على ما سواه من الأصوات، وحينها شعرَا أن رحلتهما أوشكت على النهاية، أيًّا ما كانت.

احتجز السدُّ العظيم المياه الراكدة من الضفة إلى الضفة، مخلفًا نصف دائرة عريضة من الزَّبَد تتخلَّلها أضواء متلألئة، وعلى جانبيه تراكمت مياه خضراء لها وميض. وقد كان يُثير صفحة المياه الهادئة بالدوامات الدوارة وبقع الزبد الطافية، ويُغطي على جميع الأصوات الأخرى بهدير مياهِهِ المهيب الذي يبعث في النفس الراحة والسكينة. وفي وسط جدول الماء، كانت هناك جزيرةٌ صغيرةٌ يحتضنها السدُّ بين ذراعيه الوضاحتين، وعلى شاطئها نمت أشجار الصفصاف والقُضبان الفضِّي ونباتات جار الماء بكثافة. كانت تُخفي ما في باطنها وراء حجاب في تحفُّظ وحياء له مغزًى عظيم. كانت تُخفيه، أيًّا كانت ماهيته، حتى يحين الوقت المناسب ويَحضر من نُودي ووقَع عليه الاختيار.

ببطء لكن دون أدنى ريب أو تردُّد، خاض الاثنان في ذلك الماء المندفِع العجاج وفي نفسَيهما شيء من ترقُّب وهيبة. ربطا القارب وأوثقاه في الجزء المزهر من تلك الجزيرة، ثم تدلَّيا في هدوء تامٍّ وشقَّا طريقهما عبر الأعشاب والحشائش المتبرعمة ذات الرائحة الزكية التي قادتهما إلى الأرض المستوية حتى وصَلا إلى مرج صغير ذي عشب أخضر بديع ومحاط بأشجار الفاكهة الطبيعية التي لم تَغرِس بذورَها يدٌ قط؛ أشجار تفاح وتوت وبرقوق بري.

همس الفأر وقال مفتونًا بما يرى: «هذا المكان هو مصدر أنغام اللحن البديع؛ هذا المكان هو حيث عُزفت الموسيقى التي تناديني! هنا، في هذا المكان المقدَّس دونًا عن سائر الأماكن، أنا على يقين أننا سنجده!»

فجأة، أصاب الخُلد رَوع ورهبة جعَلا عضلات جسده تخضع؛ ورأسه ينحني لأسفل وقدميه تتسمَّران في مكانَيهما. لم يكن شعورًا مرعبًا، بل على العكس أحسَّ بطمأنينة وسعادة بالغتَين، ولكنها كانت رهبة نزلت عليه، فسلبتْه لبَّه وسيطرت عليه. ودون أن يرى شيئًا، علم يقينًا أن هذا لا يعني سوى أنهما في حضرة شيء مَهيب ذي جلال على بُعد رمية حجرٍ منهما. أدار رأسه بصعوبة ليرى حال صديقه على جانبه، فوجده مذهولًا خاضعًا وجسده يَرتعش على نحو عنيف. وكان الصمت الكامل ما يزال سائدًا وسط الأغصان المُزدحِمة بساكنيها من الطيور، وضوء الفجر يسطع أكثر فأكثر.

ربما ما كان ليَجرُؤ أبدًا على رفع ناظرَيه مستطلعًا، لولا ذلك النداء والاستدعاء الذي كان صداه ما يزال يتردَّد في إلحاح، مع أن أنغام المزمار كانت قد سكتَت فلم تَعُد تُسمع. ربما لم يكن ليخشى أن يكون ملك الموت بانتظاره ليقبض روحه ما إن يرفع بصره لينظر بعينَيه الفانيتين إلى أشياء ظلَّت مخفية ولم يقدر له أن تظهر. لكنه امتثلَ مُرتجفًا ورفع

رأسه الخاشع ليرى الطبيعة من حوله بوضوح، على ضوء الفجر المنبلج، وقد تشبَّعت بألوانٍ نَضِرة لا تخطر على بال أحد، وبدَت كما لو كانت تحبس أنفاسها من هول المشهد. تلاقت عيناه مع عينَي الصديق والنصير. رأى قرنَيه معقوفين إلى الخلف ولهما بريق في ضوء النهار المُتنامي، ورأى أنفه المعقوف والقاسي بين عينيه العطوفتين اللتين كانتا تنظران إليهما نظرة طيبة، بينما ارتسمَت على وجهه ذي اللحية نصف ابتسامة. ورأى أيضًا العضلات المفتولة في ذراعه المنثنية فوق صدره العريض ويده الطويلة الرشيقة التي لا تزال تُمسك بمزمارٍ أبعده لتوِّه من بين شفتَيه، وشاهد المنحنيات الكبيرة لرجلَيه ذواتَي الشعر الكثيف الراقدتَين في يُسرٍ مَهيب على المرج العشبي، ورأى أخيرًا هيئة صغيرة متكوِّرة بين حوافر قدميه تغط في نوم هانئ ووديع؛ هيئة طفولية قصيرة وبدينة كهيئة ثعلب ماء صغير. بصر كل ذلك نابضًا بالحياة تحت سماء الصبح، في لحظة واحدة؛ لحظة حبيسة الأنفاس ومتوقِّدة المشاعر؛ لحظة نظر فيها فتلألأ نابضًا بالحياة؛ وكلما سرَتِ الحياة، ازداد تعجُّبًا ودهشة.

وجد في صدره مقدار ما يسمح له أن يهمس فقال وهو يرتعد: «يا فأر! أأنتَ خائف؟»

همهم الفأر وعيناه تلمعان في إعجاب يعجز عنه الوصف وقال: «خائف؟ أنا خائف منه؟ لا، مُطلقًا، مُطلقًا! ومع ذلك ... ومع ذلك ... أوه يا خُلد، أنا خائف!»

ثم خرَّ الحيوانان إلى الأرض وحنَيا رأسيهما في خضوع وإجلال.

سرعان ما بزغ قرص الشمس الذهبي الرحيب في بهاء فوق الأفق قبالتهما ونفَذت أشعتها الأولى مخترقة المروج المائية المستوية وأصابت أعينهما وتركتهما في انبهار من شدة الضوء. وعندما تمكَّنا من الرؤية مرة أخرى، كان المشهد قد انمحى، وملأت الطيور السماء تغريدًا وصُداحًا تحية لبزوغ شمس الصباح.

بينما ظلَّا يَنظران في شَدهٍ فاغرَي العينَين ولسانهما لا ينطق بكلمة من فرط الشقاء الذي حلَّ عليهما وتعمَّق وهما يُلاحظان ببطء أن كل ما شاهداه وكل ما شعرا به قد رحل واختفى، هبَّ نسيم لطيف متقلب وأخذ يتمايل على صفحة المياه ويتراقَص، وداعب أوراق شجر الحور وهز الورود الندية، ثم لسع وجهيهما لسعًا خفيفًا لطيفًا. ومع لمساته الرقيقة ضربتهما حالة من النسيان ومُحيت ذاكرتهما على الفور. لقد كانت تلك هي العطية الأخيرة التي منحهما إياها هذا الكائن القدسي العطوف كما يفعل مع كل مَن يكشف له عن نفسه ممن يُساعدهم؛ إنها نعمة النسيان. فقد كان يخشى أن تبقى تلك

الذكريات المروِّعة وتتغلغل، فتُفسد على صاحبها متعة الحياة ومرحها، أو أن تطارد تلك الذكريات الحيوانات الصغيرة الذين كانوا في مِحنة وأتتْهم المساعدة وتخرب حياتهم القادمة، ولكي يعودوا سعداء تملؤهم البهجة كما كانوا قبلًا.

فرَك الخُلد عينيه وحدق في الفأر الذي كان ينظر إليه هو الآخر مشدوهًا في ارتباك، ثم سأله: «أستميحُكَ عذرًا يا فأر! ماذا كنت تقول؟»

قال الفأر ببطء: «أظن أني كنت أقول إن هذا هو المكان الوحيد، دونًا عن غيره من الأماكن، الذي كنا لنجدَه فيه. انظر هناك! ها هو ذا، لقد وجدنا ضالَّتَنا؛ ها هو صديقنا الصغير!» ثم هُرع من فوره باتجاه كروش النائم مُصدِرًا صيحةً تنمُّ عن فرحه.

لكن الخُلد ظلَّ ثابتًا في مكانه للحظات مستغرقًا في التفكير؛ كنائم استيقظ فجأة من حلم جميل فأخذ يَعتصِر ذهنه ليسترجع أحداثه، لكن دون أن يحصل على شيءٍ إلا شعورًا خافتًا بجمال ذلك الحلم! الجمال فقط! حتى ذلك الشعور أيضًا يبهَت تدريجيًّا كلما مرَّ الوقت، وعلى الحالم أن يتجرَّع طعم الاستيقاظ المرير والقاسي ويتقبَّل جميع عواقبه؛ لذا بعد أن قضى الخُلد برهة من الزمان يُحاول جاهدًا أن يتذكر حلمه، هز رأسه في حزن لينفضَ عنه ما به، ثم لحق بالفأر.

استيقظ كروش مزقزقًا في سعادة وأخذ يتلوَّى ويمط جسده في سرور لرؤيته صديقَي أبيه اللذَين كانا يَلعبان معه كثيرًا في الماضي. مرت لحظة، وما لبث أن صار وجهه أجوفَ خاليًا من أي تعبير، وأخذ يبحث حوله في دوائر ويتلفَّت يمنة ويسرة في أنينٍ وتوسُّل. كان كطفل نامَ سعيدًا هانئًا بين ذراعَي مربيته ثم صَحا ليجد نفسه وحيدًا في مكان غريب، فأخذ يبحث كل زاوية من زاويا المكان وكل خزانة، ثم يُهرع من غرفة لأخرى واليأس ينخر قلبه في صمت. هكذا كان كروش وهو يُفتش الجزيرة شِبرًا شبرًا في مثابرة دون كلل أو ملل حتى اسودَّت الدنيا في عينَيه ولم يجد بدًّا من الاستسلام، فقعد على الأرض يَبكي بكاءً مريرًا.

هُرع الخُلد ليُهدِّئ من رَوع الحيوان الصغير، بينما ظل الفأر واقفًا في مكانه ينظر طويلًا في شكٍّ وارتياب إلى آثار حوافر غائرة على المرج العشبي.

ثم همهَمَ في تلكُّؤ متفكرًا: «حيوان ... عظيم ... كان ... هنا»، ثم استغرق في تفكير عميق وقد انتابه إحساس غامض وغريب.

نادى عليه الخُلد وقال: «لنمضِ في طريقنا يا فأر! تخيَّل حال ثعلب الماء المسكين وهو يقف منتظرًا عند مخاضة النهر.»

هدَأ كروش بعد قليل على وعد بالحصول على رحلة نهرية في قارب الفأر الحقيقي كمكافأة، واصطحبه الحيوانان إلى ضفة النهر، ثم أجلساه في مكان آمن بينهما في بطن القارب وانطلَقا مُغادِرين المياه الراكدة. كانت الشمس في كبد السماء في ذلك الوقت، وارتفعت حرارتها والطيور تغرد بأعلى صوت ودون قيود، والأزهار تبتسم وتتمايل على ضفتَي النهر؛ ولكنها، هكذا ظن الحيوانان، كانت على نحوٍ ما أقل نضرة وتوهجًا مما يَتذكران أنهما رأوها في مكان ما قبل قليل، والذي أخَذا يتساءلان في نفسَيهما عن موقعه بالتحديد.

وصلوا إلى مجرى النهر الرئيسي مرةً أخرى، وعدل الحيوانان من اتجاه القارب نحو أعلى النهر باتجاه البقعة التي يعرفان أن صديقهما يقف فيها ساهرًا منتظرًا. وعندما وصَلا إلى مخاضة النهر المألوفة، اقترب الخُلد بالقارب من الضفة، ثم أخرجا كروش الصغير من القارب وأوقفاه على قدميه على الطريق الجانبي، ثم أعطياه إرشادات السير وودَّعاه توديعًا ودودًا وربَّتا على ظهره، ثم دفَعا القارب إلى منتصَف النهر مرة أخرى. راقبا الحيوان الصغير وهو يَتهادى على طول الطريق في سعادة ورباطة جأش؛ راقباه حتى رأيا خَطْمه قد ارتفع فجأة وتسارعت خطواته، فصار يُهرول هرولةً خرقاء وهو يصيح عاليًا وتقاسيم وجهه تدلُّ على أنه قد ميَّز شخصًا ما. نظَرا إلى أعلى النهر فوجَدا ثعلب الماء وقد نطَّ، في انقباض دون أن يُبدي أي مشاعر، بعيدًا عن الأرض الضحلة التي كان جاثمًا بها في صبر وصمْت. كانا بإمكانهما سماع صوته المُندهِش والسعيد وهو يَقفز بين أشجار الصفصاف على الطريق. حينها، ضرب الخُلد الماء بمجداف واحد ضربة قوية، ولف القارب وترك التيار يحملهما مرة أخرى إلى أسفل النهر حيثما يَنبغي لهما أن يكونا؛ فقد انتهت الآن رحلة بحثهما نهاية سعيدة.

قال الخُلد وهو يَتكئ متثاقلًا ومتعَبًا على المجدافَين بينما القارب يَنساب في النهر: «أشعر بإرهاق غريب يا فأر. قد تُفسِّر الأمر لي وتقول إنه بسبب السهر طوال الليل، وهذا جائز؛ ولكن نحن لم نفعل الكثير. ففي هذا الوقت من العام، تكون نصف ليالينا كل أسبوع بهذا الانشغال. لا! أنا أشعر أني قد كنت في خضمِّ شيء ما شديد الإثارة ورهيب إلى حدٍّ ما، وأشعر أنه قد انتهى للتو؛ ولكن كما ترى، حتى الآن لم يَحدث أي شيء محدَّد مطلقًا.»

همهم الفأر وهو يتَّكئ إلى الخلف ويُغمض عينيه: «بل قل شيء في غاية الدهشة؛ شيء بديع وخلاب. أشعر مثلك تمامًا يا خُلد؛ أنا في غاية الإنهاك والتعب، ومع ذلك لا

أشعر بأن جسدي مُتعَب. من حسن حظنا أن تيار النهر ينساب في طريقنا ليأخذنا إلى البيت. كم هو جميل أن تشعر بحرارة الشمس مرةً أخرى وعظام المرء تتشبَّع وتنهل منها! وأن تُنصت بانتباه إلى صوت الرياح وهي تُلاعب عيدان البوص!»

رد الخُلد وهو يومئ موافقًا في كسل: «كأنه لحن ... لحن يَنبعِث من مكانٍ قَصيٍّ!»

همهم الفأر وهو حالم فاتر الهمَّة: «كنتُ أفكر في الأمر ذاته. أراه لحنًا للرقص — لحنًا ذا إيقاع مَرِح لا يقف مطلقًا ولا نهاية له — ولكن مع كلمات في أوسطه؛ كلمات تعلو وتعلو ثم تخبت مجددًا. كلمات أسمعها على فترات متباعِدة، ثم يحلُّ محلها لحنُ الرقص مرة أخرى، ثم يسكت كل شيء، فلا أسمع إلا عيدان البوص تَهمِس في صوت رقيق وعذب.»

قال الخُلد بحزن: «سمعك أفضل مني! أنا لا أستطيع تمييز الكلمات.»

قال الفأر بهدوء وعيناه لا تزالان مغمضتَين: «دعني أحاول نقلها لك! ها هي الكلمات تعلو مجددًا؛ خافتة لكنها واضحة.

لئلا يَستحيل المرح همًّا،
وتسكن رهبتي قلبك،
ستُبصِر مقلتاك قُوايَ حقًّا
إذا ما جئت أشفي فيك جرحك،
ولكن سوف يُمحى عنك طَيفي
وتنسى ما رمى بالذُّهل عقلك!

والآن تردد عيدان البوص في حسرة: «وتنسى ما رمى بالذُّهل عقلك! وتنسى ما رمى بالذُّهل عقلَك!» ثم يخفت الصوت شيئًا فشيئًا حتى يَندثِر بين خشخشةٍ وهمسة. ثم تُعاد الكرة ويرجع الصوت مرة أخرى ...

وخشية أن يُمزق منك طرف،
ويُخضب دمُه السيالُ كفَّك؛
أزلتُ مصائدًا نُصبت بليل،
وأشراكًا تُريد الضرَّ حولك!
ستَلمحُني وكفِّي تَنتقيها،
وتُنقِذ من خَفيِّ الغدر سيرك،

ولكن سوف تنسى ذاك حتمًا؛
لأني قد أتيتُ أريد عونك!

جدِّف واقتربْ من عيدان البوص يا خُلد، اقترب أكثر! فلا أستطيع سماع الكلمات وهي تضعُف شيئًا فشيئًا!

يُنادي — مبهجًا — صوتي، ويعلو:
أتيتُ أريد بُرأك ثم نصرَك!
فأُبصرُ من تقاذَفُه خُطاه
إلى الغابات حتى كاد يَهلك،
وأهدي خطوَهُ بعد الشفاء،
ويَغشى عقله النسيان مثلك!

اقتربْ أكثر يا خلد، أكثر! لا، ليس كافيًا، الكلمات تختفي وتموت بين خشخشة عيدان البوص!»

سأله الخُلد متعجبًا: «ولكن ما الذي تعنيه تلك الكلمات؟»

قال الفأر بوضوح: «لا أعرف! أنا أنقلها لك كما سمعتُها. آهٍ! ها هي تعود مجددًا، ولكن هذه المرة بصوت أقوى وأوضح! وأخيرًا، هذه المرة هي بلا شك الكلمات التي أبحث عنها ... الكلمات البسيطة ... الكلمات المفعمة بالمشاعر ... الكلمات التي بلغَت حد الكمال ...»

قال الخُلد بعد أن نفد صبره بعد انتظارٍ لعدة دقائق، والنعاس على وشك أن يغلبه تحت أشعة الشمس الدافئة: «هيا إذن! انقلْ لنا تلك الكلمات هيا!»

ولكنه لم يجد جوابًا لطلبه. نظر إلى الفأر، ففهم سبب الصمت. كان الفأر المنهك قد غطَّ في نوم عميق. كان كأنه ما يَزال مُنصتًا يَستمِع إلى ذلك اللحن، وعلى فمه رسمت ابتسامة فيها سعادة ورضا.

الفصل الثامن

مغامرات العُلجوم

عندما وجَد العُلجوم نفسه سجين جدران زنزانة استوطنتْها الرطوبة وتفوح منها رائحة نتنة، وأيقن أن قلعة العصور الوسطى هذه التي يُوجد بها بكل ما بها من ظلمات موحشة تقف بينه وبين أشعة شمس العالم الخارجي وطرقِه السريعة المُمهَّدة حيث كان في أوج سعادته مؤخرًا تاركًا العنان لنفسه وكأنه استحوذ على كل طريق في إنجلترا، طرح جسده كاملًا على الأرض، وأخذت تذرف عيناه الدموع في مرارةٍ وحزنٍ وترك نفسه لتهوي إلى قاع اليأس المظلم. وكان يقول: «هذه هي نهاية كل شيء! أو على الأقل نهاية مسيرة العُلجوم؛ مما يعني الشيء ذاته. هذه نهاية العُلجوم الشهير والأنيق والثري والمضياف، العُلجوم العاشق للحرية وللتهوُّر وللبهجة والمرح!» ثم يُكمل: «من تراه يُخلِّصني مما أنا فيه ويُطلقني مرة أخرى؛ أنا الذي قد سُجنتُ عدلًا لسرقة سيارة جميلة بتهوُّر، ولوقاحتي الصارخة وإهانتي البارعة التصوير التي انهلتُ بها على عدد من رجال الشرطة الغاضبين ذوي الأجساد اللحيمة؟» ثم يقول بعد أن تخنقه الدموع: «كم كنت حيوانًا غبيًّا! فها أنا الآن عليَّ أن أتعفَّن هنا في هذه الزنزانة، حتى يُمحى اسم العُلجوم من ذاكرة الحيوانات التي كانت يومًا ما فخورة بأنها تعرفه! ما أحكم الغُرير العجوز! وما أبرع ذلك الفأر الذكي والخُلد الرشيد! وما أعقل نظرة هؤلاء للأمور، وكم لديهم من علم في جوهر الرجال والأشياء! ويا لتعاسة العُلجوم المنبوذ!» قضى العُلجوم أيامه وبات لياليَه نائحًا في عويل كهذا، حتى انقضت عدة أسابيع ولا يَزال يرفض الطعام الذي يقدَّم له أو الوجبات الخفيفة التي تُعرض عليه. كان هذا بالرغم من أن السجان العجوز والعبوس الذي كان يعلم أن جيوب العُلجوم مكتظَّة بالنقود كان يُلمِّح إليه في غير ذات مرة أن الكثير من سبل الراحة — بل والرفاهية بلا شك — يُمكن استقدامها من الخارج إلى الزنزانة ببعض الترتيبات؛ ولكن كل شيء له ثمن.

كان لذلك السجان ابنة؛ فتاة طيبة ورقيقة القلب تُساعِد أباها في المهام اليسيرة من عمله. كانت تحبُّ الحيوانات حبًّا جمًّا؛ وإلى جانب عصفور الكناري خاصتها — الذي كان قفصه يُعلَّق طيلة ساعات النهار على مسمار بحائط ضخم داخل القلعة فيُزعج السجناء إزعاجًا شديدًا؛ أولئك الذين يَحصلون على قيلولة ما بعد الغداء، وفي المساء كان يُغطَّى بغطاء ويوضع على طاولة الردهة — كانت تُربِّي بعض الفئران المرقَّطة وسنجابًا مُشاكسًا لا يهدأ. أشفقَت تلك الفتاة الرقيقة القلب على العُلجوم البائس، فقالت لوالدها في يوم من الأيام: «أبي! أنا لا أطيق رؤية ذلك الحيوان المسكين تعيسًا هكذا، وقد تضعضع حاله حتى صار جلدًا على عظم! اسمح لي أن أعتني به؛ فأنت تعلم كم أحبُّ الحيوانات. سأطعمه بيدي، وأجعله يعود لحالته الطبيعية، وسأتولى جميع مهامِّ العناية به.»

أجابها والدها بأنها يُمكنها أن تفعل به ما أرادت. فقد فاض به الكيل وضجر منه ومن خُيلائه وزهوه بنفسه وبخله. وفي ذلك اليوم، مضت في مهمتها الخيرية تلك وقرعت باب زنزانته.

قالت متملِّقة وهي تدلف إلى الداخل: «طِب نفسًا يا عُلجوم، هيا! اجلس وجفِّف دمعك وكن حيوانًا رشيدًا. حاوِل أن تأكل لقمة أو لقمتين من طعام الغداء. انظر، لقد أتيتُ لك ببعضٍ من طعام غدائي الخاص، طازجًا وساخنًا من الفُرن مباشرة إليك!»

كان الطعام عجَّة بطاطس باللحم والكرنب، وقد وُزِّعت على صحنين، وكانت رائحتها تفوح في أرجاء الزنزانة الضيقة. دغدغت رائحة الكرنب أنف العُلجوم الذي كان طريح الأرض يندب حظه في شقاء، فجالت بباله خاطرة بأن الحياة ربما ليست بذلك السواد والبؤس الذي تخيَّله، لكنه رفض أن يتنعَّم بتلك الوجبة، وأخذ ينوح ويرفس بكلتا قدميه. فابتعدت الفتاة الحكيمة وخرجت على إثر ذلك، ولكن خلَّفت آثارَ رائحة قوية للكرنب الساخن وراءها في الزنزانة. وبينما كانت تفوح تلك الرائحة أرجاء المكان، والعُلجوم غارقٌ وسط دموعه، أخذ يشهق ويُفكر مليًّا. وشيئًا فشيئًا، بدأت تأتيه أفكار جديدة ومُلهِمة: عن تجارب ما تزال تَنتظره ليعيشها، وعن نظم الشعر والفروسية؛ عن المروج الفسيحة التي ترعى الماشية فيها وتمشطها الرياح وتتخلَّلها أشعة الشمس؛ وبساتين الخضر المنزلية وحوافها المزروعة بالأعشاب العطرية وأزهار حنك السبع ذات الألوان الزاهية والنحلُ يلتفُّ حولها؛ والصوت المُريح لقرقعة الصحون وهي ترتب على المائدة في قصر العُلجوم، وصوت صرير المقاعد عند احتكاكها مع الأرض عندما يسحب الجالسون أنفسهم للداخل مقتربين أكثر من المائدة ليبدءوا وليمتَهم. استحالت الدنيا من حوله في تلك الزنزانة

فصارت كأن هواءها به مسحة من لون وردي؛ فأخذ يُفكِّر في أصدقائه، وأنهم بلا شك سيُقدمون على إيجاد حلٍّ ما؛ ثم فكر في المحامين وإلى أيِّ مدًى كانوا سيَستمتِعون بالترافع عنه في قضيته، ويا له من أحمق لأنه لم يستعِن ببعضهم. ثم ذكَّر نفسه أخيرًا بدهائه وحيَلِه الواسعة، وكل ما يمكن أن يفعله لو أعطى عقله الرائع فرصة للتصرف. وهكذا شُفي العُلجوم وطابت نفسه.

عندما عادت الفتاة بعد بضع ساعات، كانت تحمل صينية عليها كأس شاي ذي رائحة زكية يتصاعَد البخار منه، وبجانب الكأس كانت شرائح الخبز الساخنة جدًّا والسميكة مكوَّمة بعضها فوق بعض؛ كانت محمَّصة تحميصًا جيدًا على كلا جانبَيها، ومحشوة بالزُّبد حتى سال من الشقوق كقطرات ذهبية كأنها قطرات عسل تتساقَط من قرص نحل. كانت رائحة شرائح الخبز تتحدَّث مع العُلجوم بوضوحٍ ولكن دون صوت؛ ذكَّرتْه بالمطبخ الدافئ وبطعام الفطور في صباح صافٍ ومُثلج؛ وبالجلسة المريحة الهانئة بجانب نيران المدفأة في ليالي الشتاء، عندما ينتهي المرء من جولته بالخارج ويضع قدميه في نعليهما عاليًا على سياج المدفأة؛ ذكرته بخرخرة القطط السعيدة، وبزقزقات عصافير الكناري الناعسة. انتصب العُلجوم قائمًا مرة أخرى وجفَّف مقلتَيه ثم احتسى الشاي والْتَهم شرائح الخبز، وما لبث أن استرسل بأريحية في الكلام عن نفسه وعن البيت الذي كان يعيش فيه وعن أفعاله هناك وعن مدى عُلوِّ منزلته الاجتماعية وآراء أصدقائه الطيبة في شخصيته.

أدركت ابنة السجان أن ذلك الموضوع يُنعشه كما يُنعشه الشاي تمامًا، وبالطبع كانت في ذلك محقة، فشجعتْه على الاسترسال في الكلام.

قالت له: «حدثني عن قصرك يا عُلجوم! إنه يبدو رائع الجمال!»

قال العُلجوم بفخر واعتزاز: «قصر العُلجوم! هو مسكن رائع ومستقل يليق بسيد نبيل. إنه بيت فريد لا نظير له؛ يعود تاريخ تشييده إلى القرن الرابع عشر، ومع ذلك فهو مجهَّز بجميع وسائل الراحة الحديثة، وبه نظامُ صرف صحي حديث. وهو يبعد خمس دقائق عن الكنيسة وعن مكتب البريد وملاعب الجولف. ويَصلُح تمامًا لـ...»

انفجرت الفتاة في الضحك وقالت: «اللهمَّ بارك واحفظ هذا الحيوان! أنا لا أرغب في شراء ذلك البيت. قل لي فقط شيئًا مميَّزًا عنه، ولكن دعني أولًا أُحضر لك مزيدًا من الشاي وشرائح الخبز المحمص.»

خرجت الفتاة ثم عادت محمَّلة بصينية مليئة بالشاي وشرائح الخبز، وبينما كان العُلجوم يَلتهِم ما قُدم له بشراهة وشهية مفتوحة، ارتفعت معنوياته وعادت لحالتها

الطبيعية، فأخبرها عن مَرفأ القوارب وعن بركة السمك وعن بستان الخضر العتيق المسوَّر؛ وحدَّثها عن زرائب الخنازير وعن الحظائر وبيت الحمام وبيت الدجاج؛ وعن مكان صناعة منتجات الألبان والمغسلة وعن خزانة آنية الخزف؛ وعن خزانة البياضات، وقد راق لها هذا الجزء تحديدًا. ثم أخبرها عن قاعة الولائم، وعن مقدار ما كان يَحظى به من المرح هو وأصدقاؤه هناك عندما يجتمعون حول المائدة، ويكون هو في أبهى وأفضل حالاته؛ يُغني الأغاني ويحكي القصص وغير ذلك من الأمور المُبهِجة. أرادت بعد ذلك أن تعرف المزيد عن أصدقائه من الحيوانات، وكانت متشوِّقة لسماع كل ما لديه من قصص وحكايات عنهم وعن حياتهم وكيف يَقضون أيامهم. لم تُخبره قطعًا بأنها كانت مغرَمة بالحيوانات كحيوانات أليفة يُحتفظ بها في المنزل؛ لأنها أحست أن العُلجوم كان سيَستاء من ذلك استياءً شديدًا. وعندما ودعته وتمنَّت له نومًا هنيئًا بعد أن ملأت له إبريق الماء، ونفشَت له سريره من القش، كان العُلجوم يشعُّ تفاؤلًا ومغتبطًا بنفسه تمامًا كما كان في قديم عهده. أنشد أغنية أو اثنتين من تلك الأغاني التي اعتاد ترديدها أثناء ولائم العشاء، ثم استلقى في فراشه من القش جامعًا رجليه إلى صدره وحصل على قسط كافٍ من الراحة في ليلته وحلم بأسعد الأحلام وأكثرها بهجة.

رغم استمرار الظروف الصعبة التي كان يعيش في كنفها العُلجوم، فقد حظيَ مع الفتاة بعد ذلك بالعديد من المحادثات الشيقة، وقد ازدادت شفقة ابنة السجان ورقَّت بشدة لحال العُلجوم، وتراءى لها أنه من الخزي والعار أن يظلَّ ذلك الحيوان الصغير المسكين حبيس السجن لاقترافه، حسبما رأت، خطأً تافهًا. وظن العُلجوم، بالطبع، في كبرياء وخُيلاء، أن اهتمامها به قد نبع من عاطفة متأجِّجة، ولم يستطع أن يكبح نفسه عن الأسف ولو قليلًا؛ لأن الفجوة الاجتماعية بينهما واسعة وعريضة عرض السماء والأرض؛ فهي فتاة حسناء ومن الواضح أنها قد وقعَت أسيرة لحبه.

في صباح أحد الأيام، كانت الفتاة شاردةً مُستغرِقة في التفكير، وكانت تُجيب عليه بإجابات عشوائية، ولم يرَ العُلجوم أنها تُولي ما يقوله من عبارات ظريفة وتعليقات رائعة اهتمامًا كافيًا.

ثم قالت: «يا عُلجوم! اسمعني، رجاءً! لي عمَّة تعمل في غسل الملابس.»

قال العُلجوم في لطف ودماثة: «لا بأس! لا عليك؛ لا تهتمِّي كثيرًا بهذا الأمر! فلي عمَّات كثُر عملن مُضطرات في غسل الملابس.»

قالت الفتاة: «أطبق فمك ولو دقيقة يا عُلجوم! أنت ثرثار مِكثار، وهذه نقيصتك الكبرى. أنا أجتهد في التفكير وأنت تُصيب رأسي بالصداع. كما كنت أقول؛ لي عمَّة تعمل

في غسل الملابس، وتغسل ملابس جميع المسجونين في القلعة هنا؛ فنحن نُحاول أن نُبقيَ أي عمل مُربِح من هذا القبيل داخل إطار عائلتنا، أظنُّكَ تفهم ما أرمي إليه. إنها تجمع الملابس صباح كل اثنين، وتعود بها مساء الجمعة. واليوم هو يوم الخميس؛ لذلك طرأتْ على بالي فكرة وسأُخبرك بها. أنت حيوان غني، كما تتغنَّى بذلك أمامي دائمًا، وهي امرأة فقيرة جدًّا. وبضعة جنيهات منك لن تنقص مالك، ولكنها ستفرق معها فرقًا شاسعًا. الآن، أظن إذا نُوقش هذا الأمر معها على نحوٍ مناسِب — أو كما تقولون أنتم الحيوانات، على نحوٍ نزيه وعادل — فيُمكنُك أن تصل معها إلى اتِّفاق بأن تَحصُل على ثوبها وقلنسوتِها وما شابه، وبعدها يمكنك الهرب من القلعة متخفيًا في زي غسالة الملابس كأنك هي. فأنتما مُتشابهان من نواحٍ عديدة إلى حدٍّ كبير، وبالأخص من ناحية القوام.»

رد العُلجوم وهو يَستشيط غضبًا وقال: «لسنا متشابهَين! فقوامي رشيق ورائع — إذا ما قورنتُ بغيري من العلاجيم.»

ردَّت الفتاة وقالت: «هكذا هي عمتي أيضًا إذا ما قُورنَت بغيرها! ولكن تجرَّع تلك الحقيقة كيفما شئت، أيها الحيوان المزعج المتكبِّر والجاحد. أهذا جزاء شفقتي؟! أهكذا تردُّ على مَن حاولَتْ مساعدتك؟!»

عاجلها العُلجوم بردِّه وقال: «لا، لا! لا بأس بذلك. شكرًا جزيلًا على مساعدتك بكل تأكيد. لكن لنَنظُر للأمر بعين العقل! أنتِ لا ترضَين بلا شكٍّ أن يتجوَّل السيد عُلجوم، مالك قصر العُلجوم، في نواحي البلد متخفِّيًا في زي امرأة تغسل الملابس!»

ردَّت الفتاة وقالت بمعنويات عالية: «لتبقى هنا إذن على هيئتِك كالسيد عُلجوم! أتصوَّر أنك تُريد الخروج من هنا في عربة تجرُّها من الخيول أربعةٌ.»

كان العُلجوم الصادق مع نفسه مستعدًّا دومًا للاعتراف بأخطائه، فقال: «يا لكِ من فتاة طيبة، رقيقة القلب ذات ذهْن حصيف، أما أنا، فعُلجوم غبي ومتكبِّر. قدِّميني إلى عمتكِ الفاضلة، إذا تكرَّمتِ. ولا يُساورُني شكٌّ أني سأصل إلى اتفاق مع هذه السيدة المبجَّلة يُرضي كلينا!»

في مساء اليوم التالي، قادَت الفتاة عمَّتها العجوز إلى زنزانة العُلجوم وهي تَحمِل ثيابه الأسبوعية النظيفة ملفوفة في منشفَة، وقد جُهزت للمقابلة سلفًا. أما تلك العملات الذهبية التي وضعها العُلجوم متعمدًا على الطاولة في موضع واضح للعيان، فقد أنهت الصفقة تقريبًا تاركة أقل القليل من الأمور لتناقش. ومقابل ذلك المال الذي عرَضه، حصل العُلجوم على ثوبٍ قُطني مزركش، ومئزر وشال، وقلنسوة سوداء مُهترِئة. ولكن

كان هناك شرط وحيد أصرَّت عليه السيدة العجوز، وهو أن تُكمَّم ويُوثَق رباطها وأن تُلقى في أحد الأركان. وقالت بأنها تأمُل، عن طريق تلك الحيلة غير المقنعة على نحو كبير، والتي ستدعمها بقصةٍ تصويريةٍ من وحي خيالها، أن تنأى بنفسِها عن الشبهات، رغم كل الملابَسات المثيرة للشكوك.

سُرَّ العُلجوم لذلك الاقتراح. فهكذا سيُغادر السجن بأسلوب لافت ودون أن تتضرَّر سمعتُه بأنه حيوان متهوِّر وخطير. وقد ساعد ابنة السجان، عن طيب نفس، قدرَ الإمكان على إظهار عمتها كضحية لظروف أقوى منها لم تستطعْ تحت وطأتها أن تحرِّك ساكنًا.

قالت الفتاة: «والآن، حان دورك يا عُلجوم! انزع عنك ذلك المعطف وتلك الصدرية. فأنت سمين كفاية في وضعك الحالي!»

ثم بدأت تُلبسه، وهي ترتجف من الضحك، الثوب القطني المزركش ذي الأزرار الخطافية، ووضعَت الشال حوله بطريقة احترافية، ثم أحكمت رباطي القلنسوة المهترئة تحت ذقنه.

ثم قالت ضاحكة: «كأنك هي! أنت صورة منها. أنا متأكدة أنك لم تبدُ ولو حتى بنصف تلك الأناقة قط في حياتك. والآن، وداعًا أيها العُلجوم وحظًّا موفقًا. توجه إلى الأسفل مباشرة وتتبَّع الطريق التي قدمت منه. وإذا ما بادرَكَ أي أحد بالحديث، وهو ما سيفعلونه على الأرجح؛ فهم رجال وأنت من المُفترض سيدة، فيُمكنك بالطبع أن تردَّ عليهم متهكمًا ولكن لا تَسترسِل، وتذكَّر أنك أرملة تعيش وحيدة في هذا العالم، ولديكَ سُمعة لتحافظ عليها.»

بقلب يَخفق خفقانًا متلاحقًا ولكن بخطوات عازمة ثابتة على قدر الاستطاعة، شرع العُلجوم بحرصٍ في تنفيذ ما بدت أنها أخطر مهمَّة وأكثرها تهورًا على الإطلاق، ولكن لم يلبث أن تفاجأ بمدى سهولة الأمور وكيف يُسِّر له كل شيء، وفي الوقت ذاته، شعر بالإهانة قليلًا عند التفكير في أن تلك الشعبية التي كان يَحظى بها، والجنس الذي يبدو أنه زكى نيرانها، كانا في الحقيقة ملكًا لشخص آخر. كانت الهيئة القصيرة لغسَّالة الملابس في ثوبها القطني المزركش المألوف بمنزلة تَصريحٍ بالمرور عبر كل الأبواب المغلَقَة والبوابات الكئيبة الموحِشة، حتى إنه عندما ضلَّ الطريق ولم يدرِ أيها يسلك، وجد حارس البوابة التالية يُساعده في محنتِه هذه، وهو يتوق للذهاب لاحتساء كوبٍ من الشاي معه، ويُخبره بأن يحضر في موعدِه وألَّا يتركه منتظرًا مكانه طوال الليل. كانت تلك الدعابات المباغِتة والتعليقات المتهكِّمة التي كان عليه أن يُقاسيَها، والتي كان عليه أن يعدَّ لها ردودًا فورية

وفعالة، هي بلا شك خطر كبير محدق بالعُلجوم؛ فقد كان حيوانًا شديد الحساسية تجاه كل ما يجرح أو يمسُّ كرامته. كان يرى أن الدعابات في معظمها رديئة وغير مناسبة، وأن التعليقات المتهكِّمة التي من المفترض أن تُضحك كانت مُفتقرةً لحسِّ الفكاهة تمامًا. ومع ذلك، حافظ العُلجوم على هدوء أعصابه بصعوبة بالغة، وأخذ يُجاريهم في ردوده متقمصًا شخصيتَه المزيفة، باذلًا جهدًا جهيدًا لكيلا يتخطَّى حدود الذوق المقبول.

مرَّ الوقت عليه ثقيلًا كأنه دهر قبل أن يعبر الساحة الأخيرة رافضًا الدعوات اللحوحة من آخر غرفة استراحة للحراس، متفاديًا ذراعَي الحاجب الأخير المبسوطتين وهو يتوسَّل في رغبة مصطنعة أن تعانقَه عناق وداع واحد. وفي النهاية سمع أخيرًا صوت خوخة الباب الخارجي العظيم وهي تُغلَق وراءه. داعب الهواء المنعش للعالم الخارجي جبينه القلق وعرف أنه صار حرًّا طليقًا!

ترجَّل بسرعةٍ باتجاه أضواء البلدة وهو ما يزال مشدوهًا من ذلك النجاح السهل لمغامرتِه الجريئة. كان لا يدري بتاتًا ما هي خطوته التالية، ولكنه كان يعلم شيئًا وحدًا علم اليقين، وهو أن عليه الرحيل بأسرع ما يُمكن عن ذلك الحي الذي تُعرف فيه هذه السيدة التي أجبر على التنكُّر في ملابسها، ويذيع صيتها.

وبينما هو يسير متفكرًا إلى الأمام، جذبت انتباهه أضواء حمراء وخضراء تنبعث من بعيدٍ على أحد جوانب البلدة، وأصوات نفيخ المحركات وصليلها وقرقعة العربات المتلاحِقة وصلت إلى مسامعه. فكر وقال: «رائع، هذا حظ من السماء! محطة قطار هي جلُّ ما أريده من هذا العالم في هذه اللحظة. والأروع أني لن أحتاج إلى أن أذرع البلدة لأستقلَّه، ولن أضطر إلى أن أزيد الطين بلة، وأنا متخفٍّ في هذا الزي المهين، بالتفوُّه بالردود التي رغم فعاليتها، لا تساعد الواحد منا على الشعور باحترام ذاته.»

شقَّ طريقه إلى المحطة ووجد أن أحد القطارات سيمرُّ على مقربةٍ من بيته بنحوٍ أو بآخر وسيتحرَّك في غضون نصف ساعة. قال العُلجوم لنفسه وقد لامسَت معنوياته عَنان السماء: «مزيد من الحظ!» ثم توجه إلى مكتب الحجز لشراء تذكرته.

أعطى المسئول اسم المحطة التي يعلم أنها الأقرب إلى القرية التي مَعْلمها الرئيسي هو قصر العُلجوم، ثم أدخل أصابعه تلقائيًّا إلى حيث جيب صدريته باحثًا عن ثمنِ التذكرة، ولكن اعترض طريقها الثوب القطني الذي ظلَّ يُخفي هويته طوال ذلك الوقت بنبْل وشهامة، ولكن العُلجوم أنكر فضله ذاك ونسيَه، ثم حاول أن يُدخل يده من خلاله ولكن ضاعت جهوده سدًى. وفي مشهد أشبه بكابوس مروِّع، ظل يصارع ذلك الشيء

الغريب الذي كان كأنه مُمسك بيده، وبدَّد كل جهده العضلي حتى تصبَّب عرقًا من الذعر، ثم أخذ يَسخر منه ضاحكًا طيلة الوقت، بينما كان المسافرون المصطفون خلفه ينتظرون في تململٍ وأخذوا يُقدِّمون اقتراحاتٍ لا فائدة منها تقريبًا، ويُبدون تعليقاتٍ أقرب للصرامة والحدة بنحوٍ أو بآخَر. وأخيرًا وبطريقةٍ ما لم يُدرك كيفية حدوثها قط، تجاوز كل العقبات ونال مُبتغاه ووصلت يده إلى حيث توجد دائمًا جيوب صدريته؛ ولكنه لم يجد مالًا ولا جيبًا يحمله ولا صدرية ليشقَّ فيها الجيب.

تذكَّر في فزعٍ أنه ترك معطفه وصدريته في الزنزانة، وترك معهما نقوده ومفاتيحه وساعته، وأعواد ثقابه، ومفكرته وحافظة أقلام الرصاص خاصته، وكل ما يعطي لحياة المرء قيمة يحيا من أجلها. فقَد كل ما يُميز الحيوان المتعدد الجيوب، أعلى المخلوقات رتبة ومنزلة، عن باقي المخلوقات الوضيعة وأرذلِها ممن يَملكون جيبًا واحدًا أو لا يَملكون جيوبًا أصلًا؛ تلك المخلوقات التي تُفني حياتها بين القفز هنا والتنزُّه هناك دون وعيٍ وهم غير مجهَّزين لخوض صراع الحياة الحقيقي.

في خضمِّ معاناته وشقائه، أقدم على محاولةٍ أخيرةٍ لربما كلَّلت مساعيه بالنجاح بعدها. عاد إلى طباعه القديمة، مزيج من سيد إقطاعي نبيل وعميد إحدى الكليات، ثم قال: «استمع لي! لقد تبيَّن لي أني قد نسيتُ نقودي! هلَّا أعطيتَني تلك التذكرة لو سمحت، وسأُرسل لك ثمنها غدًا؟ فأنا شخص ذو سمعة ومعروف في هذه الأنحاء.»

حدَّق الموظف المسئول لوهلة فيه وفي القلنسوة السوداء المهترئة ثم ضحك وقال: «أنا متأكِّد من أنكِ معروفة في تلك الأنحاء، إن كنتِ قد مارست تلك الحيلة مرات ومرات. أما هنا، فرجاء تنحي جانبًا، يا سيدتي، عن شباك التذاكر؛ فأنتِ تُعطِّلين غيركِ من المسافرين.»

دفع العُلجوم بعيدًا رجلٌ عجوز كان ينكزه من الخلف منذ مدة، والأسوأ من ذلك أنه نعَتَه بالمرأة الصالحة، مما جعَل العُلجوم يَستشيط غضبًا ويثور لذلك أكثر من أي شيء آخر حدَث له تلك الليلة.

بعد أن بُهت وغرق في بحر من اليأس، أخذ يتجوَّل هائمًا على وجهه في رصيف المحطة حيث يَنتظر القطارُ ركابه واقفًا. كانت الدموع تنهمر من عينيه وتتساقط على الأرض من جانبَي منخارِه. فكر في حاله وقال في نفسه إنه لشَيءٌ قاسٍ أن تكون على شفير النجاة وعلى مقربة من البيت، ثم تقف حفنة من الشلنات الحقيرة وسوء ظن وضيع لأحد الموظفين بينَكَ وبين مأربك ذاك. قريبًا سيُكتشَف هروبه وسيبدءون بالبحث

عنه، وسيُمسَك ويُنهال عليه بالسباب واللعن والتحقير، وسيُجرُّ مغلولًا بالقيود ليعود إلى السجن مرة أخرى حيث الخبز والماء وسرير القش، وستُضاعَف عقوبته ويزداد حراس زنزانته. وآهٍ من التعليقات الساخرة التي ستَنهال الفتاة بها على أذنيه! ما الذي كان في جَعْبته ليفعله؟ لم يكن سريعًا رشيق الخطوات، وكان لسوء حظه ذا هيئة مميزة. ألم يقدر على حشر نفسه تحت أي مقعد في إحدى عربات القطار؟ لقد رأى قبل ذلك طلاب المدارس يَنتهجون مثل تلك الحلول، عندما يحولون مسار نقود الرحلات التي أعطاهم إياها آباؤهم العطوفون، لتُصرَف في مصرف آخر أجدر بها وأنفع. وبينما هو غارق في التفكير، وجد نفسه أمام قاطرة القطار التي كان سائقها العطوف يعتني بها ويشحمها ويُنظفها. كان هذا السائق رجلًا قوي البنيان، ويُمسك في إحدى يديه قنينة زيت وفي الأخرى كومة من بواقي قطن مُهمَل.

بادره سائق القطار قائلًا: «مرحبًا يا أمي! ما خطبكِ؟ أرى الحزن يكتنفكِ.»

رد عليه العُلجوم وقد بدأ يَذرف دموعًا من جديد: «عطفك يا سيدي! فأنا غسَّالة ملابس حزينة ومسكينة، وقد فقدتُ كلَّ مالي ولا أملك ثمن تذكرتي. وعليَّ أن أكون في البيت هذه الليلة بأي طريقة، ولكن لا أدري ماذا أفعل! رحماكَ يا ألله! رحماك!»

قال سائقُ القطار متأثِّرًا: «هذه حال لا تَسرُّ أبدًا بالفعل. فقدتِ مالَكِ ... ولا تستطيعين الرجوع إلى البيت ... وأظن أن أطفالكِ ينتظرونكِ أيضًا، أليس كذلك؟»

نشَج العُلجوم ثم قال: «لي من الولد عشرة! سيَبيتون ليلتَهم جياعًا ... يلعبون بأعواد الثقاب ... ويُفسِدون المصابيح، يا لهؤلاء الأبرياء المساكين! ... وسيَتشاجرون ويضرب بعضُهم بعضًا حتى الصباح. الطُفْ بهم يا رحيم!»

قال له سائق القطار الطيب: «إليكِ ما سأفعله إذن. لقد قلتِ إن صِنعتكِ هي غسل الملابس. حسن إذن، ليكن الأمر كذلك! وأنا سائق قطار، كما سترين، ولا سبيل إلى إنكار أن مهنتي هذه مهنة بها ما يكفي من الشحوم والأوساخ. أنا أستهلك عددًا هائلًا من القمصان حتى كلَّت زوجتي وتعبَت من غسلها؛ لذلك إن كنتِ تُوافقين على غسل بعض قمصاني عندما ترجعين إلى بيتكِ وتُرسلين إياها لي بعد ذلك، فمرحبًا بكِ وسأُوصِّلكِ على متن قاطرتي. أعلم أن هذا مُخالِف لقوانين الشركة، ولكن في هذه المناطق النائية تقلُّ الرقابة والتفتيش.»

استحالَ حزن العُلجوم وبؤسه فرحة عارمة وهو يُكوِّم نفسه داخل كابينة قاطرة القطار. إن العُلجوم بالطبع لم يغسل قميصًا في حياته قط، وحتى إن همَّ بذلك، فلن

يستطيع. على أي حال، هو لم يَنتوِ أن يفعل، ولكنه فكَّر وقال لنفسه: «عندما أصل إلى بيتي سالمًا، وأضع يدي على مالي مرة أخرى وأرتدي ملابس ذات جيوب لأضع فيها ذلك المال، حينها سأُرسل إلى سائق القطار ما يكفي لتُغسَل قمصانُه مرات ومرات. أظن أن ذلك هو الشيء نفسه، بل لعمري إنه لأفضل.»

لوَّح حارس المحطة بالعلم، فاستجاب له سائق القطار بصفير بهيج وتحرَّك القطار بعيدًا عن المحطة. وكلما زادت سرعة القطار، كان العُلجوم يرى على جانبي القطار حقولًا وأشجارًا وسياجات شجيرات وأبقارًا وخيلًا، تَطير جميعها بعيدًا إلى الوراء. وعندما تأمَّلَ كم كانت كلُّ دقيقةٍ تُقرِّبه أكثر إلى قصر العُلجوم، وأصدقائِه الودودين، وصوت رنين النقود العذب في جيبه، وسريره الوثير الذي يَهجع إليه، والْتهام ما لذَّ وطاب من ألوان الطعام، وعبارات المدح ونظرات الإعجاب وهو يقصُّ مغامراته ويحكي عن مهاراته وحذاقته التي لم يعهد لها مثيل، أخذ يَقفز ويتراقص ويُغني مُقتطَفات من أغانٍ على مرأى ومسمع من السائق المذهول الذي خالط من قبل الكثير من النسوة اللائي يَعملن في غسل الملابس على مدى فترات طويلة، ولكن لم تكن إحداهن قطُّ مثل تلك.

كانا قد قطعا أميالًا وراء أميال، وكان العُلجوم يُفكر ماذا سيأكل على طعام العشاء عندما يصل إلى البيت عندما لاحظ السائق تَعتلي وجهَه نظرةٌ فيها ارتباك وحيرة، وقد أمال رأسه إلى أحد جانبي القاطرة وأخذ يُنصت مستمعًا بإمعان. ثم رآه يتسلَّق أعلى كومة الفحم وينظر محدِّقًا من أعلى القطار، ثم تدلَّى وقال للعُلجوم: «ما أغرب ذلك! نحن كنا آخر قطار يَخرج من المحطة الليلة في هذا الاتجاه، ولكني أكاد أقسم أني سمعتُ صوت قطار آخر يلحق بنا!»

كفَّ العُلجوم عن رقصه وعبثه في الحال، ونزلت به حالةٌ من الهم والغم، وسرى ألمٌ ثقيلٌ من أسفل عمودِه الفقري إلى رجلَيْه، فطرحه جليس الأرض وحاول عبثًا تجنُّب أي محاولة للتفكير فيما قد تئول إليه الأمور.

في ذلك الوقت، كان القمر منيرًا ساطعًا، واستطاع سائق القطار بعد أن وازن نفسه على كومة الفحم أن يرى بوضوح القضبان التي يسير عليها قطاره على مدى مسافة بعيدة خلفه.

ثم صاح من فوره وقال: «أستطيع أن أرى هذا الشيء الآن بوضوح! إنه قطار يسير وراءنا في نفس الاتجاه وبسرعة رهيبة! يبدو وكأنه يُلاحقُنا!»

كان العُلجوم التعيس يربض وسط غبار الفحم ويُحاول بقوةٍ أن يفكِّر في حلٍّ ما وصدرُه مقبوض يَستسقي ولو قطرة من التوفيق.

صاح سائق القطار قائلًا: «إنهم على وشك اللحاق بنا! والقطار مُكدَّس على بكرة أبيه بأصناف غريبة من الناس! رجال كحراس العصور القديمة يُلوحون بالفئوس في وعيد؛ رجال شرطة يَعتمرون خوذاتهم ويُلوِّحون بعصيِّهم في إنذار وتهديد؛ ورجال عليهم ثيابٌ باليات وفوق رءوسهم قبَّعات مُستديرة، وهم بوضوح ودون أدنى شك، حتى من ذلك البُعد، مُحققون مُتَخفون في ملابس مدنية يُلوحون بمسدساتهم وعكاكيزهم. الجميع يُلوِّحون ويصيحون بالكلمة ذاتها: «توقَّف! توقف! توقف!».»

خرَّ العُلجوم على ركبتَيه صاغرًا بين قطع الفحم ورفع يدَيْه وقد قبضت كل واحدة منهما على الأخرى في تضرُّع واسترحام، ثم قال باكيًا: «أتوسَّل إليك أن تُنقذني أيها السيد الكريم سائق القطار! أنقِذْني وسأعترف أمامك بكل شيء! أنا لستُ تلك المرأة البسيطة التي تعمل في غسل الملابس وأتنكَّر في ثيابها! ليس لي أطفال يَنتظرون قدومي؛ لا أبرياء ولا غير ذلك! أنا عُلجوم؛ السيد عُلجوم المشهور الذائع الصيت وصاحب الأملاك والأراضي، وقد هربتُ لتوِّي مستعملًا دهائي وفطنتي من زنزانةٍ كريهةٍ مُستقذَرةٍ طرَحني فيها أعدائي. وإذا تمكَّن هؤلاء الرجال من اللحاق بي والقبض عليَّ، فسيكون مصيري مغلولًا بالسلاسل وطعامي خبزًا وماءً، وفراشي كومة من القش، ولأعيشنَّ حياة الكدر والشقاء مرة أخرى، وأنا عُلجوم بريء!»

نظر إليه السائق في غلظة وقال له: «أخبِرْني الحقيقة! ما الذي فعلته ليُزجَّ بك في السجن؟»

رد عليه العُلجوم البائس وهو يتصنَّع ببراعة: «لم أفعل سوى أمرٍ من سفاسف الأمور! استعرتُ سيارةً بينما كان أصحابها يتناولون الغداء؛ لم يكونوا بحاجةٍ إليها في ذلك الوقت. وأنا لم أنوِ قط سرقتَها وليشهد الله على ذلك، ولكن الناس، وبالأخص القضاة، يَنظرون لمثل هذه التصرُّفات الطائشة والحماسية نظرةً قاسيةً وجافة.»

بدا سائق القطار جادًّا وعابسًا وهو يقول: «أخشى أنك كنتَ بلا شك عُلجومًا شريرًا ومفسدًا، وحقيق عليَّ أن أُسلمك إلى العدالة التي أهنتَها بهروبك، ولكن يبدو عليك جليًّا أنك في بلاء عظيم وألم شديد؛ ولذلك لن أخذلَك وأتخلَّى عنك، لسببين؛ أولهما أنني لستُ من مُناصري ولا محبي السيارات، وثانيهما أني لا أرتضي أن أؤمر من رجال الشرطة وأنا على متن قطاري. كما أني دائمًا ما يرقُّ قلبي على نحو غريب لزفرات حيوان تعيس

اغرورقَت عيناه بالدموع. هيا! كُفَّ عن البكاء يا عُلجوم! سأبذل قصارى جهدي؛ فما تزال فرصتنا سانحة لنتفوَّق عليهم!»

أخذا يُكومان المزيد من الفحم ويجرفانه داخل الفرن حتى تأجَّجت ناره واستعرَت وتطاير الشرر وثارت القاطرة واشتدَّ دورانها، ومع ذلك، كان مطاردوهما ما يزالون في إثرهما. مسح سائق القطار عرق جبينه بملء يده من بواقي القطن وهو يزفر متحسِّرًا ثم قال: «أخشى أن هذا لن يجدي نفعًا يا عُلجوم! فكما ترى، قاطرتهم أفضل من قاطرتنا، بالإضافة إلى أنهم يطاردوننا بقطارٍ خاوٍ. هناك شيء أخير متبقٍّ لنا، وهو أيضًا فرصتك الوحيدة، لذا أَعِرْني سمعك وعِ ما سأقوله جيدًا. أمامنا بمسافة قصيرة، سنمرُّ عبر نفق طويل، وتقع خلف ذلك النفق غابة كثيفة الأشجار. أنا الآن سأزيد من سرعة القطار إلى الحد الأقصى بينما نمرُّ داخل النفق، ولكن هؤلاء الذين في القطار الآخر سيُبطئون من سرعتهم على نحو طبيعي مخافة الاصطدام بنا. وعندما نعبر النفق، سأُطفئ المحرك وأستخدم المكابح بكل ما أوتيت من قوة، وفي اللحظة التي يكون فيها أمر القفز آمنًا، عليك بالقفز والاختباء في تلك الغابة قبل أن يعبروا النفق هم أيضًا ويروك. بعدها سأنطلق بالسرعة القصوى مرة أخرى، وليُطاردوني إن أرادوا. ليطاردوني أنَّى شاءوا ولأي مسافة مهما طالت. والآن، جهِّز نفسك واستعد للقفز حين أقول لك!»

كوَّما المزيد من الفحم، ومرَق القطار في النفق كسهم نافذ، وأخذت القاطرة تزأر وتدور وتؤزُّ حتى قذفوا خارج الجهة الأخرى للنفق إلى الهواء الطلق وتحت ضياء القمر الهادئ. كانت الغابة تقبع أمامهما على جانبي السكة الحديد في ظلام دامس، وخيرًا فعلَت. أطفأ السائق المحرك وأعمل المكابح، ووقف العُلجوم ممسكًا بسلالم العربة، وعندما بَطُؤَت سرعة القطار بشدة، سمع السائق وهو يصيح ويقول: «اقفز! الآن!»

قفز العُلجوم وتدحرج إلى أسفل حاجز ترابي قصير، ثم نهض ولا جرح به، واندفع داخل الغابة ليتوارى عن الأنظار.

اختلس النظر فرأى قطاره قد بدأ يزيد من سرعته مرةً ثانية حتى اختفى بسرعة. ثم اندفع القطار المطارِد خارجًا من النفق كطلقة رصاص وهو يزأر مُطلِقًا صافرته، والركاب على متنه بمختلف ألوانهم يُلوِّحون بأسلحتهم المتنوعة ويصيحون: «توقَّف! توقَّف! توقَّف!» عندما مرُّوا بعيدًا، أخذ العُلجوم يضحك من قلبه حتى القهقهة، وذلك لأول مرة منذ أن زُجَّ به في ذلك السجن.

ولكنه سرعان ما كتم ضحكه حيث تذكر أن الليل البهيم قد نشر أجنحته وتسرب البرد وعمَّ الظلام المكان. وكان هو في غابة مجهولة دون مال أو طعام للعشاء، وما يزال بعيدًا كل البُعد عن بيته وأصدقائه. كان الصمت المطبق على كل شيء بعد أن اختفى زئير القطار وأزيزه أمرًا أشبه بالصدمة. لم يجرؤ على مغادرة غطاء الأشجار وسترها، لذلك شق طريقه داخل الغابة وفي رأسه فكرة واحدة فقط؛ أن يبتعد عن السكة الحديدية قدر الإمكان.

بعد عدة أسابيع وراء جدران السجن، وجد العُلجوم الغابة مكانًا غريبًا غير ودود ويميل إلى السخرية منه، بحسب ظنه. كانت طيور السبد، وهي تُصدِر مُكَاءها الشبيه بصوت الآلة، تجعله يظن أن الغابة قد مُلِئَت بالحراس الذين يبحثون عنه وقد أوشكوا على الإيقاع به. طارت بومة بخفَّة ورشاقة باتجاهه دون صوت يُسمع ومسَّت كتفه بجناحها، فانتفض فزعًا ظنًّا منه أن ذلك كان يدًا أطبقَت على كتفه، ثم رفرفت بجناحَيها وطارت كالعُثَّة وهي تسخر منه ضاحكة مصدرة نعيقًا خفيضًا، وكانت تلك سخرية رديئة في نظر العُلجوم. ثم قابل ثعلبًا في طريقه، والذي توقَّف وأخذ ينظر إليه بازدراء وتهكُّم من أعلاه إلى أسفله، ثم قال: «مرحبًا بغسَّالة الملابس! هذا الأسبوع أضعتِ إحدى فردتَي جورب، وغطاء وسادة! انتبهي المرة القادمة!» ثم مضى في حال سبيله مختالًا وهو يَضحك ويُقهقه. بحث العُلجوم عن حجَرٍ حوله ليَقذفه به، ولكنه لم يجد أي أحجار حوله فاستثار ذلك غضبه أكثر من أي شيء آخر. وفي النهاية، أوى، جائعًا شاعرًا بالبرد وقد أنهكه التعب، إلى شجرة مجوفة كملجأ حيث أعدَّ لنفسه سريرًا وثيرًا قدر الإمكان من الأغصان ونفض الأشجار، ونام في هدوء حتى الصباح.

الفصل التاسع

كلنا عابرو سبيل

كان فأر الماء قلقًا ضيِّق الصدر دون سبب يعرفه. كل شيء حوله يُوحي بأن موكب الصيف واحتفالاته البهيجة ما يزال في أشده وعنفوانه. ومع أن لون الحقول المحروثة الخضراء قد استحال مذهَّبًا وكانت أشجار السمن تزداد حمرة بثمارها، وخُطَّت آثارٌ بُنيةٌ ذات صفرة البراري في نواحٍ متفرقة، فإن الضياء والدفء والألوان الزاهية كانت لا تزال حاضرةً على نحو طاغٍ ولا توجد أي مؤشراتٍ على أن العام على وشك الانتهاء، لكن أناشيد البساتين وسياجات الشجيرات المنتظمة خفتَت واستحالت لأغنية مسائية عرضية يشترك فيها عددٌ قليلٌ من المنشدين لكنهم مُفعَمون بالحماس؛ فقد بدأت طيور أبو الحناء تسعى للفتِ الأنظار إليها مرةً أخرى وكان يفوح في الهواء شعور بالتغيير والرحيل. لم يُسمَع صوتٌ لطيور الوَقْواق منذ وقت طويل، وكذلك العديد من الأصدقاء الآخرين ذوي الريش كانوا مُفتقَدين أيضًا، بعد أن كانوا لشهور جزءًا لا يتجزَّأ من المشهد المألوف للطبيعة وما تنطوي عليه من مجتمع صغير، وبدا أن أصناف الطيور كانت تتضاءل بثباتٍ يومًا بعد يوم. ورأى الفأر الذي كان مولَعًا بحركة الطيور في السماء ومراقِبًا لها أن تلك الطيور تتَّجه إلى الجنوب في حركة يومية، وحتى إنه حين يكون راقدًا في فراشه بالليل، كان يظنُّ أنه إذا خرج وراقب السماء المظلمة، فسيرى خفقات أجنحة الطيور التي لا تطيق الانتظار طاعة وإذعانًا لذلك النداء الذي لا يقبل الرد.

كسائر الأنزال، كان لنُزُل الطبيعة المهيب موسمٌ يزدحم فيه. وبينما النزلاء يَحزمون أمتعتَهم ويُسددون حسابهم ثم يَرحلون الواحد تلو الآخر، والمقاعد حول مائدة الطعام تقلُّ عددًا الوجبة بعد الوجبة على نحو محزن، وبينما يُسرَّح الخدم، وتُغلق الأجنحة والغرف وتُطوى البُسُط، لا يسعُ النزلاء المقيمين حتى يحين موسم العام المقبل إلا أن يَتأثَّروا ولو قليلًا بكل تلك النقاشات الحماسية للخطط والطرق والربوع الجديدة، وأن

تهتزَّ مشاعرهم لهذا الكمِّ من الراحلين والمودِّعين، وذلك الانحسار اليومي لزمرة الرفاق والأصدقاء. وينتابهم القلق والغمُّ ويبدءُون في التذمُّرِ والتساؤل. لماذا هذا السعي للتغيير؟ لمَ لا يمكثون هنا مثلنا بين يدَي نعيمٍ مقيم؟ إنهم ليس لديهم أدنى تصوُّر عن حال هذا النزل بعد انقضاء موسم ازدحامه، وعن كمِّ المرح والبهجة التي نحظى بها نحن الذين نبقى لنشهد جميع أيام السنة المُثيرة. دائمًا ما يردُّون عليهم أنهم على حقٍّ بلا شك وأنهم يَغبطونهم على ما هم فيه، وربما يُفكِّرون في أمر البقاء في عامٍ مقبل، لكن هذا العام لديهم ارتباطات ومواعيد؛ ها هي ذي الحافلة تَنتظرهم عند الباب، ولقد حانت ساعة الرحيل. وهكذا يرحلون بابتسامة على وجوهم وإيماءة برءوسهم، ويَفتقدونَهم هؤلاء النزلاء المقيمون ويستاءون لغيابهم. كان الفأر حيوانًا مُكتفيًا بذاته، يَنتمي إلى باطن الأرض في رسوخ؛ يبقى في مكانه أيًّا كان من يرحل. ومع ذلك، لم يلحظ إلى وقتِنا هذا ما الذي يتخلَّل الهواء حتى إنه بدأ يشعر ببعض آثاره تَسري في عظامه.

كان من العويص أن يعهد إلى أي خطة جدية وسط موجة الرحيل هذه. ترك جانب النهر حيث نباتات الأسل تقف قوية وطويلة في مجرى أوشك ماؤه أن يجفَّ وصار راكدًا، ثم انحدر متجولًا باتجاه الريف، ومرَّ بمرعًى أو اثنين كان الكلأ فيهما جافًّا ويعلوه التراب، ثم شق طريقَه شقًّا وسط عباب حقل من القمح الذهبي الموج الذي يتهادَى برقةٍ ويَهمس مغمغمًا بصوتٍ خفيض. هنا، في هذا المكان، كان يحبُّ التجول؛ وسط حَرجةٍ من السيقان القوية اليابسة التي تحمل فوق رأسه سماءً ذهبية خاصة بها؛ سماءً دائمٌ تبخترُها، لازبٌ بريقها، ورقيق حديثها؛ أو تتمايل بقوة مع الريح المارة ثم تَئوب راجعة إلى وضعها في ضحك مرِح طروب. هنا أيضًا حيث كان له من الأصدقاء الضئيلي الحجم كثيرٌ؛ مجتمع متكامل بذاته يعيش أفراده حياة نشيطة وزاخرة، ومع ذلك فدائمًا لديهم بعض الوقت لينهمكوا في القيل والقال وتبادل الأخبار مع الزوار. أما اليوم، فعلى الرغم من أن فئران الحقل وفئران الحصاد كانوا مهذَّبين كعادتهم، فقد بدَوْا مشغولي البال قلقين. كان العديد منهم منهمكًا في الحفر وبناء الأنفاق، والبعض الآخر يلتفُّ في مجموعات صغيرة ويفحص خططًا ورسومات لشقق صغيرة يقال إنها جذابة ومتراصَّة، وتقع على بُعد خطوات من السوق. وكان فريق منهم يجرُّ حقائب كبيرة وسلال ملابس يكسوها الغبار، بينما فريق آخر قد شمَّر وانهمك في حزم مُمتلكاته. وفي كل مكان كانت تُرى حزم وأكوام من القمح والشوفان والشعير وجوز أشجار الزان والبندق والتي كانت مرصوصة بعضها جنب بعض تمهيدًا لنَقلها.

صاحوا بمجرد أن رأوه: «ها هو فأرون؛ صديقنا القديم! لا تقف عندك متكاسِلًا، وتعالَ مُدَّ لنا يد العون يا فأر!»

قال لهم الفأر بنبرة حادة: «أي شيء هذا الذي تُخططون له؟ ما يزال الوقت مبكرًا للتفكير في الاستعداد لفصل الشتاء؛ فما يزال أمامنا وقت طويل!»

رد عليه فأر حقل مفسرًا على استحياء: «أجل، نحن نعلم ذلك! ولكن من الأفضل دائمًا أن نبدأ مبكرًا، ألا تُوافقنا الرأي؟ علينا أن نَحزم متاعَنا وأثاثَنا ونُفرغ مخازننا وأن نَبتعد عن هنا قبل أن تأتيَ تلك الآلات البغيضة وتبدأ النقر والحفر في الحقول. وكما تعلم، في الآونة الأخيرة أصبحَت الشقق الجيدة تُحجز سريعًا، وإذا تأخَّرنا فعلينا أن نرضى بالمتاح منها حينها، مما يتطلَّب الكثير من العمل أيضًا حتى تكون صالحة للسُّكنى والانتقال إليها. بالطبع نحن نعرف أن الوقت مبكر جدًّا، ولكننا قد استهلَلنا بخطوةٍ أولى كبداية.»

قال الفأر: «تبًّا للبدايات! هذا يوم بديع. تعالوا إلى جولة بالقارب أو تريض بطول سياجات الشجيرات أو نزهة في البراري أو أي شيء آخر.»

ردَّ عليه فأر الحقل في عجلة وقال: «شكرًا لك، ولكن لا أظن ذلك اليوم. ربما في يوم لاحق ... عندما يكون لدينا متسعٌ من الوقت ...»

نخر الفأر نخرة ازدراء ثم لفَّ جسده ليمضي في طريقه، ولكنه تعثَّر في حقيبة قبعات وسقط، فأخذ يُطلق اللعنات.

قال أحد فئران الحقل بنبرة جافة: «لو أن الحيوانات يَنتبهون أكثر وينظرون بحرص إلى طريقهم، فلن يُصيبوا أنفسهم بأي أذى — ولن ينسوا أنفسهم. انتبه لتلك الحقيبة يا فأر! أظن أنه من الأفضل أن تقعد في مكانٍ ما، وفي غضون ساعة أو اثنتين سيكون لدينا متسعٌ من الوقت للتمتُّع بصحبتك.»

رد الفأر ردًّا حاسمًا متكدرًا وهو يشقُّ طريقه خارج الحقل: «أرى أنكم لن تحظَوا بمتَّسع من الوقت حتى حلول أعياد الكريسماس!»

رجع وفي نفسه شيء من يأس إلى ضفة النهر؛ صديقه القديم والوفي الذي ما فتئ محافظًا على طباعه وعاداته؛ صديقه الذي لم يُفكر يومًا في حزم أمتعته والرحيل، أو الذهاب بعيدًا في أشهر الشتاء.

وعند شجر الصفصاف النامي على حافة الضفة، رأى أحد طيور السنونو يقف على أحد الأغصان. وما لبث أن جاء طائر ثانٍ، ثم ثالث، وأخذ الثلاثة الذين كانوا يتململون وهم يقفون على غصنهم، يتحدَّثون معًا بهدوء في موضوع جدِّي.

قال الفأر وهو يمشي باتجاههم: «ماذا؟ أبهذه السرعة؟ لمَ العجلة؟ هذا ما أدعوه ببساطة قرارًا سخيفًا.»

رد عليه طائر السنونو الأول وقال: «لم يَحِن موعد رحيلنا بعد، إن كان هذا ما تقصده. نحن ما نزال نضع الخطط ونُرتِّب الأمور. فكما تعلم، نحن نتشاور في أي طريق نسلُك هذا العام، وأين سنقف، وهلمَّ جرًّا. فهذا هو نصف متعة الرحلة!»

رد الفأر وقال: «متعة؟ أي متعة هذه التي لا أفهمها؟ إذا كان عليكم أن تُغادروا هذا المكان الساحر، وتُخلِّفوا أصدقاء سيَفتقدونكم، وبيوتًا دافئة لم تلبثوا فيها إلا قليلًا، أنا واثق أنكم، عندما يَأزَف الوقت، سترحلون بإقدام وتُواجِهون كل تلك الصعاب والمشقة والتغيير والتجديد ولن تشعروا بتعاسة كبيرة، ولكن أن تَرغبوا في الحديث عن الأمر أو حتى في التفكير فيه حتى تحتاجوا حقًّا إلى ذلك ...»

قال الطائر الثاني: «لا! أنت لا تفهم الأمر بالتأكيد. في بادئ الأمر نَشعر بأن بداخلنا اضطرابًا خفيفًا. ثم تطوف الذكريات عائدةً الواحدة تلو الأخرى كالحمام يعود إلى موطنه، فتُقلِقل أحلامنا بالليل، وتُحلِّق معنا في طوافِنا بالنهار. فنُهرع سائلين بعضَنا بعضًا ونُقارن ما نذكره من أحلامنا حتى تطمئنَّ قلوبنا إلى أن هذا هو النداء الحق. فتُرفرف أسماء الأماكن وأصواتها وروائحها التي صارت نسيًا منسيًّا عائدةً شيئًا فشيئًا حتى تُرشدنا.»

اقترح الفأر عليهم بنبرةٍ ملأها الحزنُ: «ألا يُمكنكم البقاء هذا العام فقط؟ سنَبذل جميعًا قصارى جهدنا لتشعروا بالراحة. فأنتم لا تتصوَّرون مقدار المرح والأوقات السعيدة التي نحظى بها هنا بينما أنتم غائبون بعيدًا.»

قال طائر السنونو الثالث: «جرَّبتُ «المكوث» هنا عامًا من الأعوام بعد أن افتُتنتُ بالمكان وشغفت به حتى إذا حانت ساعة الرحيل تخلَّفتُ عن أقراني ومضوا هم دوني. كان كل شيء في أسابيعي الأول رائعًا وخلابًا كفاية، لكن بعد ذلك، كنت أتجَّرع كئوسًا من الليالي الطويلة المُضجِرة، ومن الأيام الغائمة التي لا تطلُّ فيها شمس وتملؤها الرجفات. كان الهواء نديًّا رطبًا يَحمل بين نسماته القارصة فتورًا وتثبيطًا، ولا توجد ولو حشرة واحدة على امتداد فدان من الأرض! كلا، لم يكن المكوث مُمتعًا قط؛ فقد خارت شجاعتي. وفي ليلة عاصفة باردة، أطلقتُ جناحيَّ وشرعتُ في الطيران بعيدًا عن السواحل إثر عاصفة شرقية هوجاء. كان الثلج يَنهمِر بقوة كلما أوغلت في شعاب الجبال الشاهقة؛ كنت أُصارع بضراوةٍ للنجاة. ولن يُمحى من ذاكرتي أبدًا ما شعرتُ به من نعيم عندما لفحَت أشعة

الشمس الدافئة ظهري مرةً أخرى وأنا أحلِّق باسطًا جناحيَّ فوق البحيرات التي كان يقبع ماؤها رائقًا في زرقة فيروزية ناصعة، أو مذاق أول حشرة سمينة دسمة تناولتُها حينها. كان ما مضى كأنه كابوس مزعج، وما ترامى أمامي من مستقبل كان يَمتلئ أسبوعًا بعد أسبوع بتباشير عطلة سعيدة وهانئة كلما اتجهتُ جنوبًا في خمول وتسكُّع ودون عناء قدر ما استطعت، ومع ذلك كنتُ أُصغي بانتباه إلى النداء! كلا! فلقد وقعتُ في المَحظور مرة، ولن أفكِّر أبدًا في عصيان النداء مرة أخرى.»

غرد العصفوران الآخران وقالا بنغمة حالِمة: «أجل، أجل! نداء الجنوب ... نداء الجنوب! يا إلهي! أتذكر أنغامه وألوانه ودفء هوائه ...؟» نسيا أمر الفأر وانغمَسا في استرجاع الذكريات بعاطفة متأجِّجة، بينما كان هو يستمع إليهما في ولَهٍ وفُتون وقلبه الذي خلف ضلوعه يتحرَّق شوقًا. كان يشعر بداخله هو الآخر أن شيئًا ما قد اهتز أخيرًا؛ ذاك الوتر الذي ظلَّ مستكينًا حتى هذه اللحظة ولم يكن في الحسبان. محض ثرثرةٍ لطيور تعزم الرحيل إلى الجنوب وتَسرد قصصًا ركيكةً تلوكها الألسنة حتى اهترَأت، كان لها من القوة ما أيقظ بداخله ذلك الشعور الجامح وألهب حماسه وأجَّجه. فما بالك بعمل لحظة يعيشها هناك في نفسه؟ لحظة يُعانق فيها أشعة شمس الجنوب وينساب في أريج هوائه. وبعينين مغمضتَين، أطلق العنان لخياله ليحلمَ حلمًا جسورًا بلا قيود، وعندما فتح عينيه مرةً أخرى، بدا النهر باهتًا وكأن زهوته قد انطفأت، والحقول الخضراء قد يَبست وأظلمت. وحينها أخذ قلبه الوفي يَستصرخ نفسه الهشة الذاوية مستنكرًا غدرها.

تحدَّى طيور السنونو في غيرة وقال: «لماذا ترجعون إلى هنا إذن؟ ما الذي تجدونه جذابًا في هذه البلدة البائسة الصغيرة؟»

رد الطائر الأول وقال: «أتظن أن النداء في الفصول الأخرى ليس لنا أيضًا؟ نداء حشائش المروج الغناء، والبساتين الرطبة، والبرك الدافئة المسكونة بالحشرات؛ نداء قطعان الماشية المسوَّمة، وحش الكلأ وتجفيفه، وكل أبنية المزرعة التي تتجمَّع حول البيت ذي الإفريز المثالي؟»

سأله الثاني: «أتظن أنك الكائن الحي الوحيد الذي يتوق شوقًا ويتلهَّف لسماع تغريد طائر الوقواق مجددًا؟»

قال الثالث: «في الوقت المحدَّد سيملؤنا الحنين إلى الديار مرة أخرى؛ سنَشتاق لرؤية زنابق الماء تتمايل على صفحة مياه نهر إنجليزي. ولكن في الوقت الحاضر، كل ذلك يبدو باهتًا واهنًا وبعيدًا. فقلوبنا الآن تطرب لألحان الجنوب وتتراقَص على أنغامه!»

انخرطوا في الحديث معًا مرة أخرى، وهذه المرة كانت ثرثرتهم العذبة تدور حول البحار البنفسجية، والصحارى ذات الصفرة النحاسية، والجدران التي تسكنها السحالي.

سار الفأر قلقًا مُضطربًا على غير هدى مرة أخرى، وارتقى الربوة التي بدأت تعلو علوًّا طفيفًا من جانب ضفة النهر الشمالية حتى انتهت مطلَّةً على سلسلة التلال المهيبة التي أعاقت رؤيته لمسافة أبعد باتجاه الجنوب؛ كان ذلك هو خط أفقه البسيط في هذه اللحظة من حياته؛ أقصى ما نزعت إليه نفسه وأبعد ما ترامى إليه بصره؛ حده الفاصل حيث لا يهتم لرؤية أو معرفة أي شيء يقبع وراءه. واليوم، بينما كان يُحدِّق جنوبًا وقلبه مهتاجٌ برغبة وليدة وملحَّة، بدت السماء الصافية والمطلة على أفق تلك التلال المنخفض الممتد وكأنها تنبض بالوعود؛ فاليوم بدا ذلك المجهول الذي يقبع وراء الأفق هو الدنيا بأسرِها؛ أصبح ذلك المجهولُ هو الحقيقة الوحيدة في الحياة. صار هذا الجانبُ من التلال الآن عنوانًا للرتابة المطلَقة، أما على الجانب الآخر فقد كان يرى بوضوح بعين بصيرته مشاهد مفعمة بألوان من المباهج والأحداث. يا ترى، أي بحار زرقاء ضاربة إلى الخضرة تقبع هناك وتتناطح أمواجها الهادرة! وأي سواحل مُشمسة تصطف البيوت البيضاء بطولها متألقة أمام أحراج أشجار الزيتون! وأي مرافئ هادئة مكتظة بالسفن الباسلة التي أسدلت أشرعتها منطلقة في رحلة البحث عن الجزر الأرجوانية الغنية بالنبيذ والبهارات؛ الجزر الصغيرة المنبثقة في مياه هادئة!

صعد وهبط الربوة باتجاه النهر مرة أخرى، ثم غير رأيه وقصد حافة الطريق الترابي. رقَد هناك شبه غارق في العشب الكثيف والرطب الذي نما حول سياج من الشجيرات حيث يُمكنه التفكير في الطريق وفي كل ما يمكن أن يقود إليه من عالم مليء بالعجائب، وفي كل عابري السبيل الذين مروا به والثروات التي سعوا لتحقيقها والمغامَرات التي حلموا بها، وخُطا الآيبين الذين رجعوا دون تحقيقها؛ هناك، بعيدًا وراء الأفق!

تَهادى إلى أذنيه صوت وقع أقدام، ثم ظهرت هيئة حيوان يمشي مشية واهنة بعض الشيء تبيَّن بعدها أنه فأر وأنه أشعث أغبر. عندما اقترب منه عابر السبيل ذاك، حياه بإيماءة احترام كانت تدلُّ على أنه غريب عن المكان. تردد لوهلة ولكن ما لبث أن رسم على فمه ابتسامة ومال عن الطريق وجلس إلى جانبه على العشب الندي. بدا مرهَقًا، فتركه الفأر يستريح بلا سؤال، متفهِّما بعضًا مما كان يَعصف في رأسه من أفكار، ومدركًا القيمة التي توليها الحيواناتُ للصحبة الصامتة في بعض الأوقات؛ حين تتراخى العضلات المُنهَكة ويحصل العقل على بعض الراحة.

كان عابر السبيل رفيعًا وذا ملامح حادة، وكان مقوَّس الكتفين بعض الشيء. وكانت كفاه نحيلتيْن وطويلَتَيْن، وكان جانِبا عينيه متغضِّنين بشدة، وكان يزين أذنيه ذواتا السمت الحسن والموضع الجميل بقرطَين صغيرين من ذهب. وكان قمصيه الصوفي المُحاك ذا لون أزرق فاتح، وكان سرواله المرقَّع والملطَّخ يُوحي بأنه كان أزرق اللون أيضًا. وكان يضع أمتعتَه القليلةَ في صرةٍ من منديل قطني أزرق.

عندما استجمَّ ذلك الغريب ونال قسطًا من الراحة، زفر وتنسَّم الهواء حوله ثم أخذ ينظر حوله.

علق قائلا: «زهرة البرسيم! كانت تلك النفحة الدافئة في الهواء هي زهرة البرسيم. وما نسمعُه خلفنا من جز للعشب هو صوت الأبقار تقضم مِلء فيها وتنخر بهدوء ما بين القضمة والأخرى. هناك صوتٌ قصي لآلات حصاد، وهنالك يتصاعد عمود دخان أزرق من بيت ريفي قبالة أرض الغابة. هناك نهر يشقُّ الأراضي قريبًا منا، فأنا أسمع قرقرة دجاج الماء، وأُخمِّن من هيئتك أنكَ ملاح نهري. كل شيء يبدو هادئًا، ولكن الأمور تسير على قدم وساق دون توقُّف. ما أجملها من حياة تلك التي تعيشها يا صديقي! إنها بلا شك الأفضل في هذا الكون، إن كنت على قدر كافٍ من القوة لتحياها.»

رد عليه فأر الماء حالِمًا، ولكن دون إيمانه الصادق المعهود، وقال: «صدقت! إنها الحياة المثلى، والوحيدة، التي يُمكن أن يحياها المرء.»

رد عليه الغريب بحذر: «لم أقصد ذلك بالتحديد. ولكن دون شك إنها الحياة الأفضل. لقد عشتُها يومًا، وأعرف متعتَها. ولأني قد جربت هذه الحياة طوال ستة أشهر وأعرف أنها الأفضل، فها أنا ذا أفر منها، مُقرَّح القدمين خاوي البطن، وأنشد الجنوب متتبعًا النداء العتيق، راجعًا إلى الحياة القديمة؛ حياة أحياها كيفما شئت؛ حياة لن تتخلَّى عني أو تَنقلِب عليَّ!»

عجب الفأر وقال: «عجبًا! أهو حيوان آخر من محبِّي الجنوب؟» ثم سأله: «ومن أين قدمتَ إذن؟» ولم يجرؤ على سؤاله عن وجهته، فقد كان يعلم الإجابة علم اليقين.

أجابه عابر السبيل باقتضاب: «مزرعة صغيرة وسعيدة بعيدًا في ذلك الاتجاه ...» ثم أومأ باتجاه الشمال. أردف وقال: «دعك منها! كنت أحظى هناك بكل ما يمكن أن أتمناه؛ كل شيء حسن يحقُّ لي أن أنتظره من هذه الدنيا، بل وأكثر. وها أنا ذا! ممتن لوجودي هنا الآن كامتناني لحياتي هناك! لقد قطعت أميالًا طوالًا من طريقي، وأقترب رويدًا رويدًا مما يصبو إليه قلبي!»

رمقت عيناه اللامعتان الأفق في ثبات وعزيمة. كان كأنه يُنصت إلى صوتٍ ما كان مفتقدًا في مزرعته البعيدة عن السواحل؛ كان صوتًا يصدح بالغناء مصحوبًا بألحان المراعي وساحات المزارع العذبة الطروب.

قال فأر الماء: «أنت غريبٌ ولست تُشبهنا! وإن كنتُ مُدليًا بدلوي في هذا الأمر، لقلتُ إنك لست بالمزارع ولا حتى من أهل بلدنا هذا.»

قال الغريب: «صدقت! أنا فأر بحر؛ ومسقط رأسي هو ميناء القسطنطينية. ومع ذلك، فأنا غريب عن أهلها أيضًا، إن جاز التعبير. أظن أنك قد سمعت عن القسطنطينية يومًا ما يا صديقي. إنها مدينة جميلة وعتيقة ومجيدة. كما أنك ربما تكون قد سمعت عن سيجرد ملك النرويج وعن رحلته إلى القسطنطينية في أسطول من ستين سفينة، وكيف امتطى هو ورجاله الجياد في الشوارع وعليهم حلَّة من الفخر والمجد وثياب ذهبية وأرجوانية؛ وكيف خرج الإمبراطور وزوجته من القصر وذهَبا للغداء معه على متن سفينته. وعندما هم سيجرد بالرحيل، قرَّر العديد من رجاله المكوث وانضموا إلى حراس الإمبراطور، وقد بقي جدي الكبير؛ وهو فأر نرويجي الأصل، هو الآخر مع السفن التي أهداها سيجرد للإمبراطور. ومنذ ذلك الحين ونحن نجوب البحار، ولا عجب في ذلك؛ أما فيما يتعلَّق بي، فإن المدينة التي وُلدتُ فيها لم تعد وطنًا لي، بل هي كغيرها من الموانئ الساحرة التي أجوبها في الطريق بين هناك ونهر لندن. فأنا أعرفها جميعًا وهي تعرفنُي. أوصلني إلى رصيف أو شاطئ أي مرفأ منها، وهكذا أكون قد عدت إلى وطني!»

قال له فأر الماء بحماس مُتزايد: «أظن أنك تُبحر في رحلات مُمتعة، تمرُّ خلالها الأشهر وراء الأشهر دون أن تلمح أثرًا لليابسة، ويقلُّ الزاد وتشحُّ المياه فيُصرفان في حصص يومية، ويُناجي عقلك ذلك المحيط الجبار ذا البأس الشديد، وكل هذه الأشياء، أليس كذلك؟»

قال فأر البحر في صراحة: «لا شيء من هذا مُطلقًا! مثل تلك الحياة التي ذكرتها لن تُناسبني مطلقًا. فأنا أكون في سفن التجارة الساحلية، ونادرًا ما تَغيب اليابسة عن ناظري. ما يروقني ويروق أي بحار آخر هي الأوقات المرحة التي نقضيها على الشواطئ. يا أله! ما أروع المرافئ الجنوبية! رائحتها وأضواء سفنها الراسية ليلًا، إنها السحر بعينه!»

قال فأر الماء متشككًا في كلامه بعض الشيء: «حسن! ربما اخترت الطريق الأفضل للعيش! هيا قص عليَّ إذن بعضًا من رحلاتك هذه إن شئت، وما الذي يُمكن أن يجنيَه

حيوان شجاع مقدام ويأمل أن يعود به إلى بيته ليُدفئ أيامه الآتية بحرارة الذكريات وزهوها وهو يجلس قرب المدفأة. فلا أخفيك سرًّا، أصبحت أشعر أن حياتي الحالية صارت محصورة ومملة بعض الشيء.»

بدأ فأر البحر يقص عليه ويقول: «آخر رحلة بحرية لي، تلك التي رسَت أخيرًا على شاطئ هذا البلد وأوصلتْني مُفعمًا بالآمال متطلعًا للذهاب إلى مزرعتي البعيدة عن السواحل، أظن أنها تُعد مثالًا جيدًا لتلك الرحلات، وهي بلا شك ستُعطيك انطباعًا وصورة موجزة عن حياتي الزاخرة بألوان المباهج والمرح. أشعلَت المشاكل العائلية فتيل الأمر كالعادة. بدأت مشكلة عائلية كبيرة فالتحقتُ بسفينة تجارية صغيرة كانت ستَنطلِق من ميناء القسطنطينية إلى الجزر اليونانية وبلاد الشرق متَّخذةً طريق البحار القديم حيث كل موجة تعلو هادرة تتركُ في المرء ذكرى لا تنسى. يا لروعة وجمال تلك الأيام والليالي! كان داخل المرفأ وخارجه يعجُّ طوال الوقت بالأصدقاء القدامى؛ الذين كانوا نيامًا إما في أحد المعابد ذات الهواء اللطيف أو في أحد صهاريج المياه الأرضية القديمة خلال قيظ النهار، ويُنشِدون الأناشيد ويقيمون الولائم بعد الغروب تحت سماء مخملية تُرصِّعها نجوم ساطعة. ومن هناك تحركنا وأبحرنا بطول سواحل البحر الأدرياتيكي، التي كان لون مياهها خليطًا من اللون الكهرماني واللون الوردي واللون الزمردي. رسَونا في موانئ يحيط بها البر من كل اتجاه، وطُفْنا بين المدائن القديمة والفخمة، حتى سطعت الشمس من ورائنا في إجلال ذات صباح ونحن نَمضي نحو مدينة البندقية وسفينتُنا تشق عباب بحر من ذهب. ما أجمل البندقية! وما أحلاها من مدينة! هناك حيث يتجوَّل الفأر على مهل ويستمتع بوقته في هدوء. وإذا يحلُّ عليه التعب من التجوال فله أن يجلس ليلًا على ضفة القناة الكبرى ويولم مع أصدقائه على ألحان عذبة تملأ الهواء ونجومٍ براقة تُزين السماء، والأضواء تومض وتلألأ على المقدمات اللامعة المصنوعة من الصلب للجناديل المتمايلة، والتي كانت مُكدَّسة بعضها بجوار بعض حتى إنك يُمكنك الانتقال عبرها من أحد جانبي القناة إلى الجانب الآخر. ثم دعني أحدثك عن الطعام ... هل تحبُّ المحار؟ حسنًا، حسنًا، دعْنا لا نُسهب في الحديث عن هذا الآن.»

صمت لوهلة وصمتَ فأر الماء هو الآخر متيَّمًا بما سمعه من أحداث طافيًا فوق قنوات صوَّرها له عقله وأذناه تلتقطان لحنًا خياليًّا يصدح عاليًا فوق جدران رمادية يَكسوها الضباب وتتكسَّر الأمواج على سطحها.

استرسل فأر البحر وقال: «ثم أبحرنا جنوبًا بعد ذلك بمحاذاة السواحل الإيطالية حتى وصلْنا أخيرًا إلى باليرمو. وهناك توقَّفتُ لفترة طويلة وهانئة. فأنا لا أُطيل المكوث في

سفينة واحدة؛ فهذا يُضيِّق أفق المرء ويحمله على التعصب والتحيُّز. وفوق ذلك، صقلية هي أحد الأماكن المحبَّبة إلى قلبي؛ فالجميع هناك يَعرفني وطرق عيشهم تلائمني. قضيت أسابيع عدة على تلك الجزيرة ملئت مرحًا وبهجة مع الأصدقاء بعيدًا عن الشاطئ، وعندما تمكَّن مني الملل مرة أخرى وضاق صدري بالمكان، اغتنمت سفينة كانت مبحرة إلى جزيرتي سردينيا وكورسيكا في رحلة تجارية. حينها شعرت بالسعادة مرة أخرى عندما داعب نسيم الهواء المُنعِش وجهي وبلَّله رذاذ مياه البحر.»

سأله فأر الماء: «ولكن أليس الجو خانقًا وحارًّا بالأسفل في ذلك المكان ... الذي تُسمونه على ما أعتقد مخزن السفينة؟»

نظر إليه فأر البحر وغمزه بعينيه أو هكذا هُيِّئ لي، ثم قال في نبرة بسيطة: «أنا فأر محنَّك! قمرة القبطان تكفيني.»

غمغم الفأر وقد غرق في بحر أفكاره: «إنها، بكل المقاييس، حياة شاقة.»

رد عليه فأر البحر بنبرة جادة، وعينه على وشك أن تجود بغمزة: «هي حياة شاقَّة ولكن لطاقم السفينة!»

ثم استكمل سردَه وقال: «ومن جزيرة كورسيكا، ركبتُ على متن سفينة تحمل النبيذ إلى سواحل البر الرئيسي دون الجُزُر. وصلْنا إلى بلدة ألاسيو في المساء وأوقفنا السفينة بالقرب منها. ثم أخرجنا براميل النبيذ وألقينا بها إلى البحر من على ظهر السفينة، وشددْنا وثاقها معًا بحبل طويل. ثم ركب البحارة قواربهم وجدَّفوا باتجاه الشاطئ وهم يُغنون وصفٌّ طويل من البراميل المتقارعة يتبعهم كأنه قطيع من خنازير البحر. وعلى رمال اليابسة كانت الجياد تنتظرهم، التي جرَّت مهرولة البراميل على طول الشارع المنحدر لتلك البلدة الصغيرة ومخلفة صوت قرقعة والبراميل تتصادم بعضها ببعض. وعندما حُمل آخر برميل، ذهبنا واستعدْنا نشاطنا وارتحْنا وجلسنا في جلسة سمر استمرت لساعة متأخِّرة من الليل نحتسي الشراب مع الأصدقاء. وفي صبيحة اليوم التالي، قصدتُ حرج أشجار الزيتون العظيم لأنعم ببعض النوم والراحة. في ذلك الوقت كنتُ قد ضقت ذرعًا بالجزر، وكانت الموانئ كثيرة وسفن الشحن وفيرة؛ لذلك عشت حياة كسولة بين القرويِّين، أستلقي بينما أشاهدهم يكدُّون في العمل، أو أتمدَّد على رأس التل المنحدِر فأرى زرقة البحر المتوسط قابعة بعيدًا تحتي. وعلى هذا الحال مضى وقتٌ طويلٌ، تنقلتُ فيه على رِسْل وتمهُّل ما بين مترجِّل أو على متن السفن حتى وصلتُ إلى مارسيليا حيث قابلتُ أصدقاء البحر القدامى، وزرتُ السفن الضخمة التي تشقُّ مياه المحيطات، وأقمْنا الولائم

والاحتفالات مرة أخرى. وهذا يدفعُني للحديث عن المحار! عجبًا، إني أحلم في بعض الليالي بمحار مارسيليا وأقوم من نومي باكيًا!»

قال فأر الماء دمث الخلق والكريم: «حديثك هذا قد ذكرني بأنك قد قلت بأنك جائع. كان عليَّ أن ألتفتَ إلى هذا الأمر قبل الآن. أنت ستحلُّ عندي ضيفًا وسنتناول الغداء معًا، ما رأيك؟ فجُحري قريب من هنا؛ لقد تجاوزنا الظهر بقليل، وأنت مرحب بك أيًّا كان ما هناك.»

رد فأر البحر وقال: «هذا ما أدعوه لطفًا وكرمًا وأخوة منك. كنت فعلًا أتضور جوعًا عندما جلست، ولكن منذ أن ذكرت المحار سهوًا عن غير قصد، زادت تقلُّصات معدتي ازديادًا رهيبًا. ولكن، ألَا يمكنك أن تجلب الطعام هنا؟ فأنا لستُ من محبي المكوث في الأماكن المغلَقة إلا إذا اضطررتُ لذلك. وبينما نحن نأكل هنا، يمكنني أن أقص عليك مزيدًا من أحداث رحلاتي وحياتي الماتعة التي أعيشها؛ على الأقل، أنا أجد فيها متعتي، كما أرى أنها تروق لك أيضًا، مما هو بادٍ عليك من الإصغاء والانتباه. أما إذا ذهبنا لنأكل في البيت، فإني أعلم يقينًا أني سأغطُّ في النوم على الفور.»

قال فأر الماء: «هذا اقتراح رائع بلا شك!» ثم أسرع إلى بيته حيث أخرج سلة الغداء وملأها بوجبة بسيطة مراعيًا تفضيلات ذلك الغريب وبلد نشأته؛ إذ حرص أن يُضمِّن الوجبةَ رغيفًا طويلًا من الخبز الفرنسي، وسجقًّا تفوح منه رائحة الثوم، وبعض الجبن ذي الرائحة القوية، وقارورة يُغطيها القش طويلة العنق تمتلئ بمشروبٍ تشبَّع بضوء الشمس وخُزِّن بعيدًا على المنحدرات الجنوبية. ثم رجع سريعًا محمَّلًا بما لذَّ وطاب، واحمرَّت وجنتاه فرحًا وهو يتلقَّى استحسان البحَّار المحنَّك الذي أخذ يمدح ذوقه واختياراته بينما كانا يُفرغان محتويات السلة معًا على عشب جانب الطريق.

وبمجرد أن هدأ جوع فأر البحر بعض الشيء، أكمل رواية أحداث رحلته البحرية الأخيرة، آخذًا مُستمعَه البسيط من ميناء إلى آخر حول إسبانيا، ثم انتقل به إلى لشبونة وبورتو وبوردو. ثم عرفه على مرافئ كورنوول وديفون الساحرة، ثم أبحرَ به إلى القناة الإنجليزية حتى وصَل إلى رصيف الميناء الأخير الذي رسا فيه وقد أنهكَه الجو وقذفتْه الرياح المعاكسة بعد أن ضربتْه طويلًا. وحينها وقعَت عيناه على التباشير والآثار الساحرة لفصل ربيع آخر، فانطلق متحمِّسًا في رحلة طويلة على قدمَيه داخل البلاد ونفسه تتوق لتجربة العيش في مزرعة هادئة؛ بعيدًا كل البعد عن تقلبات البحار المهلكة والكئيبة.

رافق فأر الماء، وهو مفتون يرتعش من فرط الإثارة، المغامر في رحلاته فرسخًا بفرسخ؛ على طول الخلجان العاصفة، وبين المرافئ التي تعجُّ بالسفن، وعبر الأرصفة

الرملية يَدفعهم المد المتسارع، وعبر الأنهار المتعرِّجة الملتوية التي تُخفي قراها الصغيرة النشطة بين انعطافاتها غير المتوقَّعة، ثم تركَه أخيرًا بزفرة ندمٍ عند مزرعته المُملَّة البعيدة عن السواحل؛ تلك المزرعة التي رغب عن سماع أي شيء عنها.

في ذلك الوقت كانوا قد انتهَوْا من تناوُل طعامهم، واسترجع البحار عافيته وقوته وصار صوته نابضًا أكثر بالحياة، وتلألأت عيناه بضياء بدا كنور منارة لبحر بعيد. ثم ملأ كأسَه بشراب الجنوب الأحمر المتوهِّج والمُعتَّق ومال إلى فأر الماء حتى سلبه بصره وملَك عليه جسده وروحه بينما يتكلم. كان لون عينيه يشبهان اللون الفيروزي المائل للرمادي لمياه بِحار الشمال الهائجة والمزغبة. وصفا الكأس فسطَع ما فيه كياقوتةٍ حمراء تراءَت كأنها قلب الجنوب النابض يتحرَّق شوقًا للقائه، وقد كان لديه من الشجاعة ليستجيب لتلك الخفقات. أسَرَ هذان اللونان؛ الرمادي المتقلب والأحمر الراسخ، لبَّ فأر الماء وفتَناه وسلَبا قُواه وإرادته فصار كالمسحور. تقهقر العالم الهادئ الذي يقبع خارج سلطة أشعتهما بعيدًا واختفى من الوجود. أما الحديث العجيب، فقد أخذ يتدفق، ولكن كان لا يدري أكان كلامًا في مجمله أم استحال في بعض أجزائه إلى أغنية؛ كأغنية يُردِّدها البحارة وهم يرفعون المرساة التي تقطر ماءً؛ كأزيز رنان جادت به حبال صاري السفينة أثناء هبوب رياح شمالية شرقية عاصفة؛ كأغنية شعبية للصيادين الذين يسحبون شباكهم وقت الأصيل والسماء فوقهم قد صار لونها كلون المشمش؛ كصوت أوتار جيتار أو مندولين على متن جندول أو زورق صيد. هل تغيَّر إلى صوت قصف الرياح وهي حزينة محتجة في البداية، ثم غاضبة مزمجرة كلَّما اشتدت، ثم ارتفع حتى صار صفيرًا يصمُّ الآذان ثم انخفض حتى استحال لصوتٍ ذي نغمٍ موسيقي لنسمة هواء خفيفة وهي تضرب الحافة الخلفية لشراع منتفخ؟ بدا أن المستمع المشدوه كانت تصل إلى أذنيه كل تلك الأصوات ومعها نعيق النوارس الجائعة وهدير تكسُّر الأمواج الهادئة وصرخات حصباء الشواطئ الرافضة. رجع إلى الحديث مرة أخرى وأصغى بقلبٍ خافق وحماس شديد إلى العشرات من مغامرات المرافئ والشجارات وخطط الهروب والحشود المجتمعة والصحبة والرفاق والمهام الخطيرة، أو مغامرات البحث عن الكنوز المفقودة في الجزر والصيد في البحيرات الراكدة والنوم طوال النهار على الرمل الأبيض الدافئ. قَصَّ عليه رحلات الصيد في البحار العميقة وقصص الأسماك الفضية اللامعة وهي تملأ الشباك الطويلة؛ وحكى له عن الأخطار المفاجئة، وعن ضوضاء الأمواج المتكسِّرة في ليالي المحاق، وعن المقدمة الطويلة لبواخر الركاب الكبيرة وهي تخترق الضبابَ شيئًا فشيئًا. حدَّثه عن بهجة العودة للأوطان

عندما ترى اليابسة وقد تقوَّست كلسانٍ بحريٍّ وأضواء الميناء وهي تبدو في الأفق، وجموع الناس بهيئاتهم الضبابية وصياحهم المرحِّب، والرذاذ الناتج عن ارتطام حبال الإرساء بالماء، وحدَّثه كذلك عن المشي بتثاقل في ذلك الزقاق المنحدِر الصغير باتجاه وهج ضوء النوافذ المغطَّاة بالستائر الحمراء الذي يبعث في النفس الراحة والطمأنينة.

وفي نهاية حلمه الذي طاف فيه وهو مُستيقظ، بدا له أن المغامر قد نهض واقفًا على قدميه، لكنه كان لا يزال يتحدَّث ولا يزال يأسر لبَّه بعينيه اللتين تُضاهيان البحر في لونه الرمادي.

كان يقول بصوت رقيق: «أما الآن، فأنا سأمضي في طريقي نحو الجنوب متمسِّكًا به لأيام طوال مغبرة حتى أصل إلى تلك البلدة الصغيرة المطلَّة على البحر الرمادي التي أحفظها وتفاصيلها عن ظهر قلب، والتي شُيدَت على منحدَر طويل بجانب المرفأ. هناك ترى وأنت تخترق الظلمة مجتازًا مداخل البيوت درجات السلالم الحجرية المنسدلة التي تعانقها أجمات كثيفة من أزهار النارديين ذات اللون الوردي وتُفضي إلى مساحةٍ متلألئةٍ من المياه الزرقاء. إن الزوارق الصغيرة الراسية، التي ربطت في حلقات حائط صد الأمواج القديم وأوتاده، مطليَّة بألوان زاهية مُبهِجة تمامًا كتلك التي اعتدتُ تسلُّقها والقفز منها أيام طفولتي؛ وأسماك السلمون تتقافَز خارج الماء عندما يَصل المد أشدَّه؛ وأسراب أسماك الماكريل تُومض وتمرُق على جوانب المرسى وصدر الشاطئ في لعب ومرح؛ وإذا نظرت من النوافذ، ترى البواخر العظيمة ليلًا ونهارًا وهي تنساب على الماء عائدة إلى أحضان الميناء أو تشرع في شقِّ عباب البحر الواسع مرةً أخرى. وهناك عاجلًا أم آجلًا، ترسو السفن من جميع البلدان التي تجوب البحار؛ وهناك في الوقت المقدَّر، ترفع السفينة التي أختارها مرساتها وتنطلق. أتريَّث وأتلكَّأ وأنتظر حتى تأتي السفينة المناسبة وتقبع في انتظاري؛ تكون حمولتها خفيفة وتُجرُّ إلى وسط تيار البحر وصاري المقدمة باتجاه المرفأ. حينها أتسلل إلى سطحها عبر قارب أو أتسلق قَلْسًا من أقلاسها، ثم أفيق ذات صباح على صوت أغاني البحارة ووقْع أقدامهم، وطنين آلة الرفع وجلجلة سلسلة المرساة الحديدية وهي تُسحب لأعلى في جوٍّ من المرح والسرور. ثم ها نحن ذا، نُنزل شراع الصاري الأمامي، والقلع الأمامي الصغير، وما تلبث المنازل البيضاء على جانب المرفأ أن تختفيَ ببطءٍ خلفَنا بينما السفينة تبحر في طريقها، وهنا تكون الرحلة البحرية قد بدأت! وبينما السفينة تشقُّ طريقها إلى الأمام باتجاه اللسان الساحلي، تُسدَل كافة الأشرعة كأنما تُكسى بالثياب. وحين

نجاوز ذلك اللسان البحري، تَخضع السفينة تحت وطأة صفْق رياح البحار الخضراء العظيمة متَّجهة إلى الجنوب!

وأنت ستأتي أيضًا يا صديقي الصغير! فكما ترى، الأيام تمضي ولا تعود أبدًا، والجنوب ما يزال في انتظارنا. خُضِ المغامرة واتبع النداء، تحرَّك الآن قبل أن تمضي هذه اللحظة فلا تعود أبدًا! كل ما يتطلَّبه الأمر هو أن تُغلق باب بيتك خلفك ثم تأخذ خطوة واحدة للأمام تَنشُد بها سعادتك، حينها ستُصبح حرًّا من قيود حياتك القديمة وتنغمس في الحياة الجديدة! ثم يومًا ما بعد فترة طويلة، عندما يجفُّ نبع حماسك وتفرغ من مغامراتك، تعود إلى بيتك إن أردت وتجلس على ضفة نهرك الهادئ محمَّلًا بمخزونٍ ضخم من الذكريات لتقصَّها على رفاقك. أنت يُمكن أن تتخطَّاني وتسبقني بسهولةٍ على الطريق؛ فأنت شابٌّ وأنا هرم أمشي رويدًا رويدًا. سأمضي في طريقي وسأتلكَّأ، وعندما أنظر خلفي، أنا واثق أني سأراك قادمًا يملؤك الحماس والشغف وتضيء وجهَك أشعةُ شمس الجنوب!»

خفَت الصوت وتضاءل حتى اختفى تمامًا كما يتضاءَل طنين حشرة صغيرة بسرعة حتى يسودَ الصمت. أما فأر الماء فقد كان جسدُه عاجزًا عن أي حركة وعيناه تُحدِّقان في تلك البقعة السوداء البعيدة على ظهر الطريق الأبيض.

نهض الفأر تلقائيًّا وبدأ في جمع محتويات سلة الغداء بحرص وعلى مهل. ثم عاد إلى بيته دون تفكير وجمع بعض الأشياء الضرورية وبعضًا من كنوزه القريبة إلى قلبه ووضَعَها في حقيبة. كان يتصرَّف في تُؤَدة وهدوء ويذرع الغرفة هائمًا على وجهه منصتًا لشيء ما فاغرًا فاه كأنه يسير وهو نائم. وضع الحقيبةَ على كتِفه واختارَ بعنايةٍ عصًا غليظةً يتوكأ عليها في ترحاله وسار باتجاه عتبة الباب دون تسرُّعٍ ودون أن تُساورَه ذرة تردُّد، ثم ظهر الخُلد فجأة أمام الباب.

سأله الخُلد وهو في دهشة عظيمة وقد أمسك بذراعه: «إلى أين أنت راحل يا فأرون؟»

لم يَنظر الفأر إليه وهمهم بصوتٍ حالمٍ رتيبٍ وقال: «إلى الجنوب! مع البقية. سأمضي باتجاه البحر أولًا، ثم سأُكمل طريقي على ظهر سفينة إلى أن أصلَ إلى الشواطئ التي تُناديني!»

ثم اندفع إلى الأمام دون عجلة أو تردُّد وبثبات وإصرار واضعًا غايته نصب عينَيه. ذعر الخُلد فوقف أمام الفأر سادًّا طريقَه ثم نظرَ إلى عينيه فرآهما متأهبتَين فيهما بريق

لامع وقد استحال لونهما رماديًّا متقلبًا. هاتان ليستا عيني صديقه، بل عينَي حيوان آخر لا يعرفه! دفعه إلى داخل البيت بعد صراع عنيف ثم ألقى به أرضًا وثبَّته.

نازعه الفأر بيأسٍ لعدة دقائق، ثم بدا عليه أن قواه قد خذلتْه وخارتْ فجأة، فرقد على الأرض لا يُحرِّك ساكنًا منهكًا مغمَض العينين وهو يرتعش. ساعده الخُلد ليقف وأقعده على كرسي حيث جلس منهارًا ومُنكمشًا. كان جسدُه ما يزال يرتعش رعشاتٍ شديدةً ومع الوقت أخذ ينتابه الهلع ويَبكي دون أن يذرفَ دموعًا. أحكمَ الخُلد قفل الباب، وقذف بالحقيبة داخل دولاب وأغلقه ثم جلَس هادئًا إلى جانب صديقه على الطاولة منتظرًا ذهاب تلك النوبة الغريبة عنه. بدأت سِنة من النوم تأخذ الفأر شيئًا فشيئًا، يقطعها غمغمات مضطربة بأشياء غريبة وجامحة وغير مألوفة للخلد قليل الخبرة. بعد ذلك غطَّ الفأرُ في سباتٍ عميق.

ترك الخُلد صديقه نائمًا لبعض الوقت وانهمك في الأعمال المنزلية وقد اكتنفَه قلقٌ شديد. كان الظلام يُسدل ستائره عندما رجع إلى صالة البيت ليجدَ الفأر في مكانه الذي تركه فيه. كان مستيقظًا لكنه فاتر الهمة وصامت وحزين. ألقى نظرة خاطفة على عينيه فوجَدهما صافيتَين بُنِّيتَين مرة أخرى كما كانا مما أسعده كثيرًا. ثم جلس بجانبه وحاول أن يسري عنه وأن يحمله على سرد ما حدث له.

بذل الفأر المسكين قُصارى جهده لشرح الأمور له شيئًا فشيئًا؛ ولكن أنى له أن يصيغ بعبارات باردة جامِدة ما كان في معظمه حلمًا جال برأسه وهو شارد؟ كيف يستعيد من أجل غيره أصوات البحر المتلاحِقة وأناشيده التي غنَّت له؟ كيف يَنسخ سحر مئات من ذكريات البحار وهي تُقصُّ عليه؟ حتى بالنسبة إليه، بعد أن فكَّ السحر وذهب البريق، كانت هناك صعوبةٌ في تفسير ما بدا قبل ساعات أنه الشيء الأوحد والمحتوم. فلا عجب إذن أنه قد عجز عن نقل فكرة واضحة للخلد عما مرَّ به طوال ذلك النهار.

أما الخُلد، فكان يرى بوضوحٍ أن قبضة ذاك الشيء الذي كانت تلبسه أو تلك النوبة التي أصيب بها قد ارتخت، وقد عاد للفأر رشده من جديد. لكنه كان ما يَزال يرتجف مطرق الرأس منكسِر الخاطر. كان باديًا عليه أنه في وقته الحاضر قد فقَد الرغبة كليًّا ولم يعدْ يكترث لكل تلك الأشياء التي كانت تُشكل لَبِنات حياته اليومية. كما فقدَ شغفه في تداول التوقُّعات اللطيفة والتنبؤ بما سيَعتري الأيام المقبلة وما بها من نشاطات من تغيير يبشر بقدومه ذاك الموسم الذي يهم بالرحيل.

حوَّل الخُلد مجرى كلامه، دون تكلُّف ثم بلامبالاة، إلى موسم الحصاد الذي بدأ يهلُّ عليهما والعربات المحمَّلة حتى ليراها المرء برجًا مشيدًا والعاملين بكدٍّ عليها؛ وأكوام القش التي تعلو شيئًا فشيئًا؛ والقمر وقد ازداد حجمًا وهو يطلُّ على الحقول العارية وحزم القش تُرقِّطها. حدثه عن التفاح الذي نضج هنا وهناك؛ وعن الجوز الذي اسمرَّ لونُه؛ وعن المربات والمعلَّبات وعمليات تقطير أنواع الشراب المختلفة. تابع السردَ قافزًا برشاقةٍ من محطةٍ إلى أخرى حتى وصل إلى وقت مُنتصَف الشتاء وما فيه من بهجةٍ تشرح الصدور وحياة منزلية دافئة وثيرة. ثم تابع فكان كلامه نابعًا من عاطفته كأنما يعزف على أوتار قيثارة.

سرعان ما اعتدل الفأر في جلسته وانخرط في الحديث؛ لمَعَت عيناه الخاملتان وقطع صمت استماعه شيئًا فشيئًا.

انسلَّ الخُلد اللَّبِق بعيدًا ثم رجع ومعه قلم رصاص وبضع ورقات صغيرة، ثم وضعهما على الطاولة بجانب مرفَقِ ذراع صديقه.

ثم قال: «مرَّ وقتٌ طويلٌ وأنت لم تَنظِم بيت شعر واحدًا! ما رأيك أن تُحاول كتابة بيت أو بيتين هذا المساء بدل أن تُمضي وقتك وأن تُطيل التفكير في تلك الأشياء؟ أشعر بأنك ستَشعُر بتحسُّنٍ كبير عندما تُمسك يدك القلم وتخط به على الورق؛ حتى إن دوَّنتَ القوافي فقط.»

نحَّى الفأر الورق جانبًا بوهن، فانتهز الخُلد الحكيم الفرصة وغادر الغرفة. وعندما اختلَسَ النظر بعد قليل، كان الفأر منهمكًا في الكتابة كأنه يَهيم في عالمٍ آخر؛ كان تارة يُخربش بالقلم على عجلٍ ثم يضع رأس القلم بين شفتيه ليُفكِّر. والحق يُقال؛ كان يمصُّ القلم بين شفتَيه أكثر مما يُخربش، ولكن كان الخُلد في غاية السعادة عندما رأى الدواء وقد بدأ أثره في الظهور.

الفصل العاشر

مزيد من مغامرات العُلجوم

كانت الفتحة الأمامية لجُحر الشجرة المجوَّفة باتجاه الشرق؛ لذلك استيقظ العُلجوم في ساعةٍ مبكرة؛ فقد غمرتْه الشمسُ المشرقة بأشعَّتها من جانب ومن جانب آخر زادَت بشدةٍ برودة أصابع قدميه مما جعله يحلم بأنه كان في بيته نائمًا في سريره بغرفته الأنيقة ذات النافذة التي على الطراز التيودوري في ليلة شتوية باردة، وفجأة أخذت ألحفة السرير وأغطيته تتذمَّر وتحتج وتشتكي إليه بأنها لا تستطيع تحمُّل هذا البرد بعد الآن، ثم ركضَت وهبطَت الدرجَ ذاهبةً إلى مدفئة المطبخ لتُدفئ نفسها، وتبعها العُلجوم حافيَ القدمين وهو يخطو أميالًا بعد أميال من الممرات ذات البلاط الحجري المثلَّج ويُخاطبها تارة ويتضرَّع إليها تارة أخرى بأن تنظر للأمر بعين العقل. كان على الأرجح سيَستيقِظ قبل ذلك بمدةٍ طويلةٍ لولا أنه قضى عدة أسابيع ينام على سرير من القش على بلاط حجري حتى كاد يَنسى الشعور اللطيف للحاف سميك يُغطي جسده تغطية محكمة حتى الذقن.

اعتدل جالسًا وفرَك عينيه ثم دلَّك أصابع قدميه التي تئنُّ من الألم. تعجَّب لوهلة وتساءل أين هو، وأخذ ينظر حوله يبحث عن الجدار الحجري والنافذة الصغيرة ذات القضبان المألوفة، لكن انتابه شعور مفاجئ بالغبطة ذكَّرَه بكل شيء؛ ذكره بهروبه وبفراره من مُلاحِقيه، وذكره بأحلى وأهم شيء وهو أنه حرٌّ طليق.

حر طليق! كان وقع هاتين الكلمتين والشعور الذي تُضفيانه وحدهما يساوي خمسين لحافًا. شع جسده حرارة من رأسه إلى أخمص قدمَيه عندما تخيَّل العالم الخارجي وما به من مباهج وهو يَنتظره على أحر من الجمر ليقدم في موكب النصر وهو على استعداد لخدمته وتملُّقه، وفي شوق لمساعدته وصُحبتِه، كما كان الحال دومًا في الأيام الخوالي قبل أن يُصيبَه سوء الحظ. نفض جسده وخلَّل بأصابعه بين شعره فأزال أوراق الأشجار

الجافة منه. وعندما اكتمل هندامه، خَطا بهمَّةٍ تحت أشعة شمس الصباح الدافئة. كان يرتجف بردًا لكنه كان واثق الخُطا؛ كان يتضوَّر جوعًا لكنه كان مفعمًا بالأمل، وبدَّد نور الشمس الساطع والمشجِّع بعد قسط النوم والراحة كلَّ هلع وذعر انتابه بالأمس.

في ذلك الصباح الصيفي الباكر، ملك العالم كله وآثر به نفسه. كانت الغابة الندية ساكنة وخالية وهو يشق طريقه فيها بحذر، والمروج الخضراء التي أعقبت الأشجار كانت ملكًا له يفعل بها أيما شاء. حتى الطريق، عندما وصَل إليه والوحدة القاتلة مُتفشية في كل مكان، بدا كالكلب الضال الذي يبحث بلهفة عن رفقة، لكن العُلجوم كان يبحث عن كائن يستطيع أن يتكلم ليُخبره بوضوح أي طريق عليه أن يسلك. لا بأس للمرء، الذي يكون ذا قلب طروب وخالي البال ومرتاح الضمير والنقود تملأ جيوبه ولا أحد يفتش البلدة بحثًا عنه ليجرَّه إلى السجن مرة أخرى، أن يتبع الطريق إلى حيث يقوده ويوجهه غير عابئ بالعواقب. أما العُلجوم العملي، فلم يكن كذلك، وكان يودُّ لو يُعاقِب الطريق على صمته وتخاذُله عن نصرته حين كانت كل دقيقة مهمة بالنسبة إليه.

سرعان ما انضمَّت إلى الطريق الريفي المتحفِّظ أخت له صغيرة وخجولة عبارة عن قناة مائية، أخذت بيده وسارت الهوينى بجانبه في ثقة تامة. كانت القناة كأخيها في صمته وسلوكه المتحفِّظ تجاه الغرباء. قال العُلجوم مناجيًا نفسه: «سحقًا لهما! على أي حال، تبقى حقيقة واحدة واضحة كالشمس، وهي أنهما يَبدآن في مكانٍ ما ويَنتهيان في مكان ما. وهذا ما لا يُمكنك تغييره يا عُلجوم يا ولدي!» ثم تابع سيره في صبر بجانب حافة الماء.

من وراء منعطَف للقناة، أتى جواد وحيد يتهادى في مشيتِه وقد طأطأ رأسه كأنه غارق في التفكير. ومن وراء الحبال المعلَّقة في طوقه، امتدَّ حبل طويل مشدود، لكنه كان يَتراخى كلما مشى الحصان. وكان الطرف البعيد من هذا الحبل يقطر ماءً يراه الرائي كأنه لؤلؤ. ترك العُلجوم الحصان يمرُّ ثم وقف منتظرًا ليعرف أي هدية أرسلها له القدر.

انزلق الزورق مُقتربًا منه ومقدمته العريضة تتقدَّم مخلِّفة حراكًا لطيفًا في الماء الراكد. كانت الحافة العليا من جانب الزورق مَطلية بلونٍ زاهٍ وفي مستوى الطريق الترابي، وراكبته الوحيدة امرأة ضخمة بدينة تَعتمِر قلنسوة شمسية من الكتان، وإحدى ذراعيها القويتين تمتدُّ فوق ذراع دفة الزورق.

قالت للعُلجوم وقد أبطأت من الزورق لتُسايره في مشيته: «يا له من صباح جميل، يا سيدتي!»

ردَّ العُلجوم بأدب وهو يسير بجانبها على الطريق الترابي: «صدقت! إنه صباح جميل يا سيدتي! صباح جميل لهؤلاء الذين لا تحوم المصائب فوق رءوسهم كما تحوم فوق رأسي! فلقد استلمتُ خطابًا من ابنتي المتزوِّجة تستحثُّني فيه للذهاب إليها في أسرع وقت، وها أنا ذا في طريقي إليها. لا أعرف ماذا حدث أو ما الذي سيَحدث، وأخشى ما أخشاه أن تكون قد وقعت في مشكلة كبيرة، أظنُّكِ ستتفهَّمين الأمر إن كنتِ أمًّا مثلي يا سيدتي! خلفتُ عملي بلا راعٍ؛ فأنا كما تلاحظين يا سيدتي أعمل في مجال غسيل الثياب وكيِّها، وتركتُ أطفالي الصغار ولا مولى لهم؛ ولا أعلم يا سيدتي من أطفال على وجه الأرض يُماثلونهم في شغبهم وجلبهم للمتاعب! وقد فقدتُ كل نقودي يا سيدتي وضللتُ طريقي، ولا أطيق أن أفكر في حال ابنتي المتزوجة وما آل إليه مصيرها!»

سألت المرأة التي تقود الزورق: «وأين تعيش ابنتك المتزوِّجة هذه يا سيدتي؟»

رد العُلجوم: «تعيش قرب النهر يا سيدتي! قرب قصر بهيٍّ في مكان بهذا الجوار يُسمى قصر العُلجوم. ربما قد سمعتِ به من قبل يا سيدتي!»

ردت المرأة صاحبة الزورق: «قصر العُلجوم؟ سأمرُّ على ذلك الطريق في رحلتي! فهذه القناة ستَلتقي بالنهر بعد عدة أميال من هنا، قرب قصر العُلجوم. وهناك من السهل عليكِ أن تسيري هذه المسافة. هيا اصعدي إلى الزورق معي وسأُوصِّلك إلى هناك.»

وجهت الزورق قرب الضفة، وتقدم العُلجوم فصعد بخفَّةٍ على متنِه وهو يتفوَّه بعبارات الامتنان والشكر، وجلس في ارتياحٍ شديد ثم قال مُحدثًا نفسه: «ها هو حظ العُلجوم يبرق من جديد ويضعه في المقدمة كالعادة!»

قالت المرأة صاحبة الزورق بأدب وهما ينسابان بالزورق إلى عرض القناة: «إذن، أنتِ تعمَلين في مجال غسيل الملابس يا سيدتي، أليس كذلك؟ يا له من عمل مُثمِر ذاك الذي تعملين. أستميحُكِ عذرًا إن كنتُ قد تماديت في قولي هذا!»

قال العُلجوم بحيوية: «أفضل عمل في البلد كله! عِلية القوم جميعهم يطلبون خدماتي، ولن يُفكِّروا بالذهاب إلى أي شخص آخر حتى ولو دفع لهم مالًا؛ فهم يعرفون جودة خدماتي! فأنا أفهم عملي وأقوم به بدقةٍ وإحكامٍ وأرعاه بنفسي. الغسيل والكي وتنشية الملابس وتجهيز أفضل ثياب السادة ليرتدوها في أمسياتهم. كل شيء يُنفَّذ تحت إشرافي!»

سألتها المرأة بأدب: «ولكن مؤكَّد أنك لا تُنجِزين كل تلك الأعمال بنفسكِ يا سيدتي، أليس كذلك؟»

رد العُلجوم بلطْف: «لديَّ فتيات يساعدنني. عشرون فتاة تقريبًا يقضون جلَّ وقتهم في العمل! ولكنكِ تعرفين طباع الفتيات يا سيدتي! هؤلاء البذيئات الوقِحات الصغيرات؛ هذا ما أدعوهنَّ به دائمًا!»

ردت المرأة صاحبة الزورق بحماس وقالت: «أجل! أنا أيضًا أدعوهنَّ بذلك! ولكن أظن أنك قد قوَّمتِ بناتك؛ هؤلاء الكسولات القذرات، وأرشدتهن إلى الطريق الصحيح! ولكن أتُحبِّين مجال غسيل الملابس؟»

أجاب العُلجوم: «نعم! فأنا شغوفة به حد الجنون. أسعد لحظات حياتي هي حين أغمس ذراعي الاثنتين في حوض الغسيل. وحينها يكون كل شيء سهلًا وبسيطًا! لا عناء مطلقًا، بل متعة حقيقة! أنا أؤكد لكِ ذلك يا سيدتي!»

ردَّت المرأة بتمعن: «أنا محظوظة أني قابلتكِ! ضربة من ضربات الحظ السعيد لكلتَينا!»

سألها العُلجوم في ارتباك: «لماذا؟ ما الذي تقصدينه؟»

ردت المرأة وقالت: «حسن، استمعي إليَّ! أنا أحب غسيل الملابس مثلكِ تمامًا، ولكن في حالتي أنا؛ فسواء أحببتُه أم لا، عليَّ أن أُنجز كل شيء بيدي هاتين، وبالطبع بينما أنا أتنقَّل بالزورق كما أفعل الآن. أما زوجي، فيا له من رجل حقير؛ فهو يتهرَّب من عمله ويدع أمر هذا الزورق لي، فلا أجد وقتًا ولو دقيقة لأهتم بشئوني الخاصة. من المفترض أن يكون معي الآن هنا، إما يقود القارب أو يَعتني بالجواد، ولكن لحسن الحظ أن الجواد لديه ما يكفي من العقل ليَعتنيَ بأمر نفسه. وعِوضًا عن ذلك، انطلق مع الكلب ليرى إن كان بمقدورهما أن يَصطادا أرنبًا للعشاء من مكانٍ ما، وقال إنه سيلحق بي عند الهويس المقبل! قال ذلك وهو يقصد ربما يَلحق بي؛ فأنا لا أثق به عندما يخرج مع ذلك الكلب الذي هو أسوأ منه. ولكن في الوقت الحالي، كيف لي أن أنتهي من غسيل ملابسي؟»

قال العُلجوم وهو يحاول تغيير الموضوع: «انسي أمر غسيل الملابس هذا! وصبِّي كل تركيزكِ على ذلك الأرنب. أكاد أجزم أنه سيكون أرنبًا سمينًا وصغير السن. هل عندك بصل؟»

قالت له المرأة: «لا أقدر على التفكير في أمرٍ سوى غسيل ملابسي! وأتعجب كيف تتحدَّثين عن الأرانب وأمامكِ متعة لا تفوَّت. ستَجدين كومة من ثيابي هناك في ركن من أركان القمرة. فهلا تكرَّمتِ وانتقيتِ قطعة أو قطعتين من الملابس الأساسية ثم تضعينهما في حوض الغسيل بينما نحن في طريقنا؛ ولن أجرؤ أن أصف لسيدة في مثل خبرتكِ أي

ثياب أحتاج؛ فبالتأكيد ستتعرَّفين عليهما فور رؤيتهما. وهكذا ستكونين في غاية سعادتكِ وأنتِ تغسلين تلك الملابس كما ذكرت قبلًا، وفي الوقت نفسه تمدِّين يد المساعدة لي. ستَجِدين حوض الغسيل في متناول يدكِ والصابونة وقدرًا من الماء أعلى الموقد، ودلوًا لترفعي به الماء من القناة. هكذا سأطمئن أنكِ تَستمتِعين بوقتكِ بدلًا عن الجلوس بلا عمل وإضاعة الوقت بالتحديق في هذه المناظر الطبيعية والتثاؤب.»

قال العُلجوم وقد ارتعدت أوصاله من الخوف: «إذن، دعيني أوجه الزورق! وبذلك يُمكنكِ أن تتفرَّغي لغسل ثيابكِ بالطريقة التي تفضلينها؛ فأنا قد أفسدها أو أغسلها غسيلًا لا يرضيكِ. فأنا معتادة على غسل ملابس الرجال؛ فهذا هو تخصُّصي المحبب!»

ردَّت المرأة صاحبة الزورق وهي تضحك: «أدعكِ تُوجِّهين القارب؟ يتطلَّب توجيه زورق كهذا توجيهًا جيدًا بعض التدريب، كما أنه عمل رتيب ومُمل، وأنا أريدكِ أن تَستمتِعي بوقتكِ. لا! ستعملين العمل الذي تُحبِّينه وهو الغسيل، وسأبقى أنا هنا أباشر العمل الذي أبرع فيه وهو توجيه الزورق. لا تُحاولي أن تحرميني شرف أن أمنحكِ هذه الهدية الصغيرة!»

وجد العُلجوم نفسه في مأزق. بحث عن مهرب هنا أو هناك، ولكنه رأى الضفة بعيدة جدًّا ليُحاول أن يثب وثبة طائرة، فأذعن لمصيره المحتوم مقطِّبًا جبينه في عبوس. قال لنفسه في يأس: «إن كنتُ لا بدَّ فاعلًا، فأظن أن أي أحمق يُمكنُه غسل الملابس!»

أحضر الحوض والصابونة وجميع ما يحتاجه من القمرة، ثم اختار عدة قطع من الثياب عشوائيًّا وحاول أن يتذكَّر ما رآه في لمحة عارضة ذات مرة عندما نظر خلال نوافذ أماكن الغسيل. ثم جلس وبدأ الغسل.

مرَّت نصف ساعة، وفي كل دقيقةٍ من دقائقها كان العُلجوم يزداد ضيقًا. لا شيء مما في جَعْبته يبدو أنه كان يُرضي تلك الثياب أو يجدي معها. حاول مرة بالملاطفة، ثم لجأ إلى الصفع والضرب واللكم، لكنها كانت تتبسَّم في وجهه من داخل حوض الغسيل سعيدة بحالها القذرة ولم تتغير فيها كسرة واحدة. حاول مرة أو مرتين أن ينظر في قلق من فوق كتفه إلى الخلف باتجاه صاحبة الزورق، لكنها كانت تحدِّق في شيء ما أمامها ومنهمكة في توجيه الزورق. بدأ ظهره يؤلمه ألمًا مبرحًا، ثم لاحظ في رعبٍ أن أنامل كفَّيه بدأت كلها تتجعَّد. كان العُلجوم فخورًا بكفيه قبل الآن. نبست شفتاه كلمات لا يجدر بأن تخرج من فم امرأة تغسل الملابس ولا عُلجوم، ثم انزلقت الصابونة من بين أصابعه للمرة الخمسين.

أفزعه صوت ضحك عالٍ فجعله ينتصب وينظر خلفه. وجد المرأة تميل إلى الخلف وهي تَنفجِر من الضحك حتى دمعتْ عيناها وسالت دموعها على خدَّيْها.

قالت المرأة لاهثة: «كنتُ أراقبكِ طيلة الوقت. ظننتُ أنكِ محتالة بلا شك بعد طريقتكِ المُتعجرِفة التي تحدثتِ بها، ولكن يا لكِ من غسالة ملابس مُذهِلة! أقسم أنكِ لم تغسلي شيئًا في حياتكِ ولو حتى منشفة صحون!»

انفجر العُلجوم واستشاط غضبه الذي كان يكظمه بداخله لمدة طويلة، ففقد السيطرة على نفسه تمامًا.

صاح منفجرًا: «أيتها المرأة السوقية السمينة الوضيعة! كيف تجرؤين على الحديث مع أسيادكِ بهذه الطريقة؟! تظنِّينني غسالة ملابس؟ إذن، آن لكِ أن تعرفي أني أنا العُلجوم! عُلجوم مُبجَّل ذائع الصيت ويحترمه القاصي والداني! ربما أكون موضع شبهاتٍ في الوقت الحالي، ولكن لن أسمح بأن تسخر مني سائقة زورق!»

اقتربت المرأة أكثر وحدَّقت به عن كثب من تحت قلنسوته تحديقًا ثاقبًا، ثم صاحت: «ها أنت ذا! يا إلهي، كيف لي أن أفعل هذا! إنه عُلجوم مقرف وبشع مروِّع! وفي زورقي النظيف والجميل! هذا شيء لا يُمكنني السكوت عليه!»

تخلَّت عن ذراع دَفَّة الزورق لوهلة، ثم امتدَّت يد ضخمة قذرة وقبضت على العُلجوم من إحدى ساقيه الأماميتين، بينما امتدت اليد الأخرى وأمسكت بإحكام بإحدى ساقيه الخلفيَّتين. وهكذا قُلب العالم فجأة رأسًا على عقب، ورأى العُلجوم الزورق كأنما يرفرف برشاقة في السماء وصفير الرياح يدوي في أذنيه، ثم وجد العُلجوم نفسه يطير في الهواء ويدور حول نفسه بسرعة.

عندما ارتطم بالماء في النهاية مُصدرًا صوتًا عاليًا، تبيَّن له أن الماء بارد جدًّا ولا يُناسبه، ومع ذلك لم تكن برودته كافية لتطفئ نار كبريائه المستعرة أو تخمد حرارة ثورته الغاضبة. صعد إلى سطح الماء وهو يغمغم وعندما أزاح حشائش عدس الماء عن عينيه، كان أول شيء وقع عليه نظره هو تلك المرأة البدينة صاحبة الزورق وهي تنظر إليه من مؤخرة الزورق المنسحب وهي تضحك. حينها أقسم العُلجوم وهو يَسعل ويكاد يختنق أن يردَّ لها الصاع صاعين.

أخذ يَضرب الماء باتجاه الشاطئ، لكن الثوب القطني أعاق جهوده بشدة. وعندما وصل بعد جهد ولمس اليابسة بيديه، كان من الصعب عليه أن يتسلق الضفة المنحدرة دون مساعدة، فارتاح دقيقة أو اثنتين استعاد فيهما أنفاسه ثم تسلق. بعد ذلك، جمع

أطراف تنورته المبلَّلة ورفعها لأعلى ثم أخذ في الركض خلف الزورق بكل ما تبقى في قدمَيه من قوة، وشرر الغضب يتطاير من عينَيه وحلقه متعطِّش للانتقام.

كانت صاحبة الزورق ما تزال تضحك عندما وصَل بمحاذاتها. نادت عليه وقالت: «اذهبي وجفِّفي نفسكِ في آلة التجفيف يا غسالة الملابس، ثم اكوي وجهكِ وجعِّديه وحينها ربما تبدين كعُلجوم ذي مظهر حسن!»

لم يتوقف العُلجوم عن الركض ليرد عليها؛ فقد كان يُريد انتقامًا يَشفي غليل صدره، لا انتصارات كلامية تافهة لا قيمة لها مع أنه كان يدور في رأسه جملة أو جملتان يود لو قالهما لها. كان يرى انتقامه الذي أراده أمام عينيه. ركض سريعًا حتى أدرك الجواد، ففكَّ حبل الجر وطرحه ثم قفز قفزة رشيقة اعتلى بها ظهر الجواد وضربه في جانبَيه بقوة ليحثه على العدْو. ترك الطريق الجانبي واتجه إلى الحقول الواسعة ثم قاد حصانه عبر حارة ضيقة متعرجة. ألقى نظرة خلفه فرأى أن الزورق قد رسا على الجانب الآخر للقناة وأخذت المرأة تصيح وتشير بيدَيها بعنف وهي تقول: «توقف! توقف! توقف!» سمعها العُلجوم فقال ضاحكًا: «سمعتُ هذه الأغنية من قبل!» ثم أكمل نكز حصانه ليُكمِل انطلاقته الجامحة.

لم يكن جواد صاحبة الزورق قادرًا على بذْل مجهود مُتواصِل لمدة طويلة، وسرعان ما بدأ عدْوُه يضعف شيئًا فشيئًا حتى صار خببًا، ثم صار الخبب مشيًا خفيفًا، لكن العُلجوم كان راضيًا عن ذلك؛ فقد كان يعرف أنه مهما كانت السرعة، فعلى الأقل هو يتحرَّك، أما الزورق فلا. كان قد استعاد رباطة جأشِه استعادةً شبه كاملة؛ فقد فعل ما كان يَحسبه شيئًا بارعًا. وكان مسرورًا بالتريض تحت الشمس في هدوء، وهو يقود الجواد على طول الطرق الفرعية وممرات الخيل ويُحاول أن يتناسى كم مر من زمن منذ أن تناول آخر وجبة مشبعة، حتى ابتعد عن القناة وترامت وراءه بعيدًا.

كان قد قطع بعض الأميال هو وجواده وأخذ يغشاه النعاس تحت لهيب أشعة الشمس، حين توقف الجواد وحنى رأسه وبدأ يقضم من حشيش الأرض. استيقظ العُلجوم وأخذ يُحاول جاهدًا أن يحافظ على توازنه كي لا يسقط. نظر حوله فوجد نفسه في حقل فسيح تتناثر فيه نباتات ثمرة العليق والجولق على مد بصرِه. وعلى مقربة منه، كانت تقف مقطورة قديمة وبجانبها يجلس غجريٌّ على دلوٍ مقلوب وكان منهمكًا في التدخين والتحديق في العالم الفسيح أمام ناظرَيه. بجانبه، كانت هناك كومةٌ مشتعلة من الأغصان وفوقها قدر حديدي تخرج من فوهته فقاقيع الغليان وبقبقته، وبخار ذو رائحة

غريبة ومثيرة. كانت تفوح منه روائح دافئة وغنية ومتنوعة، والتي امتزجَت معًا واختلطَت ثم اندمجَت لتصير في النهاية رائحة واحدة تُبهج الحواس وتُدغدغ المشاعر؛ رائحة ذكية كانت كأنها روح الطبيعة الأم التي تتجسَّد وتظهر لأولادها؛ كأنها إلهة حقة؛ أم تواسيهم وتخفِّف عنهم. أدرك العُلجوم الآن جيدًا أنه لم يَجُع قبل اليوم قط، وما كان يشعر به من جوع خلال أيامه الخوالي كان مجرد إحساس تافه. كان ذاك هو إحساس الجوع الحقيقي بلا شك، وكان عليه أن يسدَّه سريعًا وإلا حاقت المتاعب بأحدٍ ما أو بشيء ما. نظر إلى الغجري نظرة متفحِّصة وتساءل بشرودٍ عمَّا إذا كان من الأسهل أن يُصارعَه أم يداهنه. وهكذا جلس مكانه يشتم ويستنشق عبق الرائحة ويحدِّق بالغجري؛ أما الغجري فقد ظلَّ جالسًا يُدخن وقد أخذ ينظر إليه.

أخرج الغجري غليونه من فمه ثم قال بلا اكتراث: «أتبيعيني ذلك الجواد الذي تملكين؟»

ذُهل العُلجوم وانتابتْه الدهشة من ذلك الطلب. لم يكن يعرف أن الغجر مولعون جدًّا بتجارة الخيل ولا يُفوِّتون أي فرصة لعقد الصفقات، فلم يلحظ أو يُفكر أن مقطورات الغجر كانت دائمة الترحال وتتطلَّب مقدارًا ضخمًا من الجر. لم يخطر بباله من قبل أن يُبادل المال بالحصان، لكن العرض الذي قدمه الغجري بدا أنه قد سهل الطريق ومهَّده أمام الشيئين اللذين أرادهما العُلجوم على نحو ملحٍّ؛ النقود والفطور الشهي المشبع.

قال العُلجوم: «ماذا؟ أتريدني أن أبيعَك جوادي الشاب الجميل؟ كلا، هذا مستحيل! فما الذي سيُرجع الملابس إلى منازل زبائني كل أسبوع؟ هذا إلى جانب أني أحبُّه حبًّا جمًّا وهو متعلِّق بي بشدة.»

رد الغجري: «جرِّبي أن تُحبِّي حمارًا! الكثير من الناس يفعلون ذلك.»

أكمل العُلجوم كلامه وقال: «يبدو أنك لا تُدرك أن حصاني هذا أفضل نوعًا وأنقى سلالةً منكم جميعًا. فهو ذو سلالةٍ ونسب عريقَين جزئيًّا، وهذا هو الجزء الذي لا تراه عيناك بالطبع. حصاني هذا فاز بجائزة أحصنة الهاكني أيضًا في مقتبَل عمره، وهذا قبل أن تراه الآن، ولكن يُمكنك أن ترى ذلك باديًا عليه من أول لمحةٍ إن كنتَ تَعرف ولو أقل القليل عن الأحصنة. لا يا سيدي، لا يُمكنني التفكير في عرضك هذا ولو لوهلة. ولكن فرضًا أني سأبيعُك إياه، فكم تُعطيني مقابل جوادي الكريم الشاب هذا؟»

تفحَّص الغجري الجواد ثم نظر إلى العُلجوم بنظرة متفحصة مماثلة، ثم أمال بصره إلى الجواد مرة أخرى. وقال باقتضاب وهو يُشيح بوجهه مستكملًا تدخين غليونه

ومحاولًا أن يحدِّق في الفضاء الرحب المترامي أمامه ليتفادى أي إحراج: «سأُعطيكِ شلنًا لكل رِجْل!»

صاح العُلجوم: «شلنًا لكل رِجْل؟ إذا سمحت، عليَّ أن آخذ وقتي لأحسب المجموع وأرى كم يساوي عرضك هذا.»

تدلى العُلجوم من فوق الجواد وتركه يرعى، ثم دنا من الغجري وجلس بجواره. حسب المجموع على أصابعه ثم قال عندما انتهى: «شلنًا لكل رِجل؟ هذا يعني أربعة شلنات بالضبط. أوه، لا؛ لم يخطر ببالي قطُّ أني سأرضى بأربعة شلنات لقاء جوادي المليح الشاب هذا!»

رد الغجري وقال: «إليكِ قولي إذن. سأزيد السعر إلى خمسة شلنات، وهذا أكثر من قيمة الحيوان بثلاثة شلنات وستة بنسات. هذا هو عرضي الأخير.»

جلَس العُلجوم ودخل في تفكير طويلٍ وعميق؛ فقد كان يتضوَّر جوعًا ومفلسًا لا يملك بنسًا واحدًا، وكان طريقه إلى بيته ما يزال طويلًا، لكنه لم يعرف كم تبقَّى تحديدًا كي يصل إليه، والأعداء يتربصون به من كل جانب. كانت الخمسة شلنات لحيوان في مثل موقفه تبدو كثروةٍ من المال، ولكن من جهة أخرى، كان مبلغًا زهيدًا جدًّا في مقابل حصان. فكر في الأمر مرة أخرى ليجد أن الحصان لم يُكلفه بنسًا واحدًا؛ لذلك أي مبلغ من المال يحصل عليه كان ربحًا صافيًا له. قال أخيرًا بنبرةٍ حازمة: «اسمعني جيدًا أيها الغجري! إليكَ تفاصيل الصفقة، ولتعتبرها كلمتي الأخيرة. ستُعطيني ستة شلنات وستة بنسات نقدًا في يدي، بالإضافة إلى ذلك، ستُقدِّم لي فطورًا ليوم واحد وسآكل حتى تمتلئ بطني من ذلك القدر الحديدي الذي ما فتئ يبعث تلك الروائح التي تدرُّ اللعاب وتفتح الشهية. وفي المقابل، سأُسلِّمك حصاني الشاب النشيط والمفعم بالحياة، وكل ما عليه من لجام وسرج وأحزمة مجانًا. وإن لم يُعجبك عرضي هذا، فأخبرني وسأمضي في طريقي. فأنا أعرف رجلًا على مقربةٍ من هنا لطالَما أراد شراء جوادي هذا.»

غمغم الغجري ممتعضًا وقال إنه لو عقد عدة صفقات مثل هذه، فلسوف يُفلس. ولكن في النهاية رضخ وأخرج كيسًا قماشيًّا قَذِرًا من أعماق جيب سرواله وأعطى العُلجوم ستة شلنات وستة بنسات في كفه. ثم اختفى داخل مقطورته للحظات وعاد بصحن حديدي كبير وملعقة وسكين وشوكة. أمال القدر فتدفَّق سيل من اليخني الساخن الدسم يبقبق في الطبق. كان ذلك هو اليخني الألذ طعمًا في العالم بأسره؛ فكان مطهوًّا من الدجاج وطيور الحجل والديوك البرية والأرانب البرية والداجنة وإناث الطاووس والدجاج الحبشي

وشيء آخر أو شيئين. أخذ العُلجوم الصحن في حجره والدموع تكاد تفر من عينيه، فأخذ يأكل ويَلتهم ويحشو معدته، ثم يطلب المزيد والمزيد، ومع ذلك لم يضنَّ الغجري عليه بما طلب. شعر العُلجوم حينها أنه لم يتناول فطورًا بمثل هذه اللذة والطيب في حياته قط.

عندما الْتهم العُلجوم ما استطاع من اليخني حتى لم يجد مسلكًا لملعقة أخرى، نهض وودَّع الغجري ثم ودَّع الحصان وداعًا حنونًا، ولما كان الغجري يعرف طرق ضفة النهر جيدًا، وصف له الطريق وأي اتجاه يسلك ثم انطلَق في رحلته مجددًا وهو في أفضل حالاته المزاجية. كان العُلجوم يبدو للناظر حيوانًا مختلفًا تمامًا عما كان قبل ساعة مضت. كانت أشعة الشمس ساطعة وجفت ملابسه المبتلَّة مرة أخرى وامتلأ جيبه بالنقود كسابق عهده. وكان يدنو من بيته وسلامته ويقترب من أصدقائه، والأعظم من ذلك أنه تناول وجبة كبيرة وساخنة ومُغذِّية. وكان يشعر بمدى عظمته وقوته، وحريته وثقته بنفسه.

كان يتفكَّر وهو يَمشي مغتبطًا سعيدًا في مغامراته وهروبه، وكيف كان يتمكَّن دائمًا من العثور على مخرج مهما كانت الظروف حالكة؛ فبدأ غرور نفسه وكبرياؤه يتعاظمان بداخله. ثم قال مناجيًا نفسه وهو يمشي رافعًا ذقنه في الهواء: «نِعمَ العُلجوم أنا! ما أبرعني! أنا بلا شك لا يُضاهيني حيوان في البراعة على وجه الأرض! حبسني أعدائي في سجن محاط بالحراس ويُراقبني الخفر ليلًا ونهارًا؛ فخرجتُ من وسطهم جميعًا بفضل سعة حيلتي وشجاعتي. طاردوني بالقطارات ورجال الشرطة والأسلحة؛ فاختفيتُ من أمامهم ببراعة شديدة وأنا أضحك. لسوء حظي، قُذف بي في قناة من قِبَل امرأة بدينة ولئيمة النفس. فماذا فعلت حيال ذلك؟ سبحت حتى الشاطئ واستوليت على حصانها وامتطيته منطلقًا، ثم بعتُ الحصان بمبلغٍ كبيرٍ وفطورٍ ملكي! نعمَ الحيوان أنا! فأنا العُلجوم الوسيم والناجح والذائع الصِّيت!» انتفخ زهوًا حتى إنه نظَم قصيدة وهو سائر يمدح فيها نفسه وأنشدها بأعلى صوتٍ له مع أنه لا أحد حوله ليستمع إليها. تلك القصيدة التي ربما كانت أكثر القصائد التي نُظمت من بني الحيوان فخرًا وغطرسة.

في معرض الأبطال والعظماء
كم يَحفل التاريخ بالأسماء!
لكنهم لم يَبلُغوا عُلجوم إذ
هو غرَّة في معشر النبهاء
من أكسفورد وليس يبلغ قدرَه

أو نصفَه حيٌّ من الأحياء
عُلجوم يعرف كل سرٍّ مختف
أو قُلْ: يحيط بجملة الأشياء
كان الحيوانات فوق سفينة
كسفينِ نوح، أجهشوا ببكاء
عُلجوم بشَّرهم بأنهمُ نجوا
قد أنعش الآمال في البؤساء
فمضى وحيَّاه الجنود جميعهم
بكثير إجلالٍ وفرط ثناء
وتساءلوا ملكًا يرَون معظَّمًا
أم قائدًا أم ذا من الرؤساء؟
بل ذلك العُلجوم فاعترِفُوا له
أجدِرْ بصاحب جرأة وذكاء
إن المليكة إذ تُخاط ثيابها
وتحاط بالخُدَّام والخلفاء
من شُرفة نظرتْ رأته تساءلت:
مَن رَبُّ تلك الطلعة الحسناء؟
فأجبْنَها في لوعةٍ وتأوُّه:
«عُلجوم مازج حُسنَه ببهاء.»

لم تكن هذه نهاية القصيدة، بل أنشد أبياتًا فيها من الغطرسة ما يندى لها الجبين ويعجز المرء عن كتابتها من فرط غرورها؛ لذا فقد أوردت لكم بعضًا من الأبيات المُعتدِلة.

كان ينشد وهو يَمشي، ويمشي وهو ينشد، وكلما استمر في الإنشاد، انتفخ غروره حتى كاد ينفجر. ولكن سرعان ما سَينهار تفاخُرُه انهيارًا مُروِّعًا.

بعد أن قطع عدة أميال من الممرات الريفية، وصل إلى الطريق السريع. وعندما حط قدمَيه عليه ورأى صفحته البيضاء تمتد أمامه على مرمى البصر، لمح نقطة سوداء تَقترب من بعيد؛ ثم أخذت تقترب أكثر فأكثر حتى صارت كتلة من دخان كثيف، ثم استحالت شيئًا مألوفًا يعرفه، ثم اخترقت أذنيه نغمتان تحذيريتان يعرفهما عن ظهر قلب وبهما من الحلاوة ما بهما.

قال العُلجوم المهتاج: «كأنها هي! إنها الحياة التي أصبو إليها والعالم الشيق الذي غبتُ عنه طويلًا يُطلان من جديد! سأُحيِّي الإخوة الذين يقودون السيارة، وسأَحيكُ لهم أكذوبة من الأكاذيب التي انطلت على الجميع حتى الآن. وبعدها سيَعرضون عليَّ توصيلة بكل تأكيد، وسأسترسل في كلامي معهم، وربما، مع قليل من الحظ الطيب، ينتهي بي المطاف وأنا أقود تلك السيارة إلى قصر العُلجوم! سيَنزل خبر هذه المغامرة كالصاعقة على رأس الغُرير!»

وقف في ثقة على قارعة الطريق ليشير إلى السيارة التي أخذت تتقدم بهدوء وتتباطأ كلما اقتربت من الجهة التي يقف عندها العُلجوم. فجأة، شحب وجه العُلجوم ووقَع قلبُه بين كفيه وبدأت ركبتاه تصطك وترتعش، ثم تلوَّى جسده وانهار وكأن المرض يسري في عظامه. هكذا كان حال ذلك الحيوان التعيس؛ فقد كانت السيارة المقتربة هي ذاتها التي سرقها من باحة نزل الليث الأحمر في ذاك اليوم المشئوم الذي بدأت فيه جميع مصائبه بالانهمار فوق رأسه! وكان راكبوها هم نفس الرجال الذين راقَبَهم أثناء الغداء في غرفة تقديم المشروبات.

خرَّ على ركبتَيه منكمشًا ككَومة رثَّة وبائسة على جانب الطريق وهو يهمس مناجيًا نفسه: «لقد قُطعت كل حبال الأمل وانتهى أمري الآن! سأعود مغلولًا بالقيود ومحاطًا برجال الشرطة! سأرجع إلى السجن مجددًا! وإلى الخبز الجاف والماء مرة أخرى! يا أله، كم كنتُ غبيًّا أحمقَ! ما الذي كنت أفكر فيه وأنا أمشي مختالًا متكبرًا عبر الحقول، أُنشدُ قصائد الفخر وأحيي الناس في وضح النهار على الطريق السريع، بدل أن أختبئ حتى يسدل الليل عباءته وأنسلَّ إلى بيتي في هدوء عبر الطرق الخلفية؟ ما أسوأ حظك أيها العُلجوم! وما أتعسك من حيوان!»

اقتربت السيارة المرعبة ببطء أكثر فأكثر، حتى سمعها وهي تقف قريبًا منه. نزل منها رجلان وسارا باتجاه كومة البؤس والشقاء المرتعشة التي ترقد على الطريق، ثم قال أحدهما: «يا رحيم! ما أتعس ما أراه! إنها امرأة عجوز وفقيرة تعمل غسالة للملابس على ما يبدو وقد فقدت وعيَها وسقطت على الطريق! ربما تأثَّرتْ هذه المرأة المسكينة بقيظ النهار، أو أنها لم تُدخِل لقمة في جوفها اليوم. لنحملها إلى السيارة ونوصلها إلى أقرب قرية، حيث سنجد هناك من يعرفها بلا شك!»

حمل الرجلان العُلجوم بحنوٍّ إلى السيارة ووضَعا خلفه وسائد ناعمة ليستند عليها، ثم تابعا طريقهما.

عندما سمعهما العُلجوم يتحدَّثان بلطْف وإشفاق، واطمئنَّ أنهما لم يتعرَّفا عليه، بدأت شجاعته تحيا وتنشط مرة أخرى. ففتح عينًا واحدة بحرص ثم تبعها بالثانية.

قال أحد الرجلين: «انظر! إنها تتحسَّن وحالها أفضل الآن؛ فالهواء المنعش يرد لها صحتها. كيف تشعرين الآن يا سيدتي؟»

رد العُلجوم بصوت خافت: «أنا بحال أفضل الآن! شكرًا جزيلًا لك يا سيدي!» قال الرجل: «هذا جيد. لا تبذُلي أي مجهود الآن وارتاحي! والأهم من ذلك، لا تُحاولي الكلام!»

رد العُلجوم: «لن أفعل! كنت فقط أتساءل إن كان بإمكاني الجلوس في المقعد الأمامي هناك بجانب السائق؛ حيث أستنشق الهواء المنعش ليملأ رئتي، وحينها ستتحسَّن حالتي عما قريب!»

قال الرجل المهذب: «يا لكِ من امرأة ذكية جدًّا! بالتأكيد يمكنكِ ذلك!» وهكذا ساعدا العُلجوم برفْق ليَجلس بجانب السائق في المقعد الأمامي، ثم تابَعا طريقهما.

حينها استردَّ العُلجوم نفسه تقريبًا. اعتدل في جِلسته وأخذ يُطالع ما حولَه وهو يُحاول أن يسكت الرعشات ويخمد لهفته وشوقه القديم الذي ثار وهاج حتى غشاه وسيطر عليه سيطرة تامة.

حدث نفسه وقال: «إنه القدر! لم إذن السعي والمجاهَدة؟» ثم حول ناظريه إلى السائق بجواره.

قال له: «رجاء يا سيدي! أتمنى لو تعطف عليَّ وتسمح لي بمحاولة قيادة السيارة لمسافةٍ قصيرة. ظللتُ أراقبك بدقة، ويبدو الأمر سهلًا وممتعًا. وحينها سأتباهى بين أصدقائي وأخبرهم أني قد قدتُ سيارةً في يوم من الأيام!»

ضحك السائق من طلبها هذا ضحكًا شديدًا، حتى تساءل السيد المهذب بالخلف عما أضحكه. وعندما أخبره قال لحسنِ حظ العُلجوم وسعادته: «أحسنتِ يا سيدتي! تُعجبُني روحكِ هذه. دعْها تحاول إذن ولكن راقبها واعتنِ بها؛ فلن تُسبِّب أي ضرر!»

تسلَّق العُلجوم المقعد الذي أخلاه السائق وتكوَّم فيه وأمسك بالمِقْوَد في يديه، ثم استمع بتواضُع مُصطنَع إلى الإرشادات التي أُعطيَت له وبعدها بدأ يحرك السيارة ولكن ببطء وحرص في بداية الأمر؛ فقد عزم في قرارة نفسه أن يكون عاقلًا وحكيمًا.

صفَّق الرجلان في الخلف وهتفا في استحسانٍ وسمعهما العُلجوم وهما يقولان: «كيف تقود بتلك البراعة؟! تخيَّل أن تقود امرأة غسالةً للملابس سيارة بمثل هذه البراعة، ومن أول محاولة!»

زاد العُلجوم السرعة قليلًا؛ ثم انطلق أسرع فأسرع.

سمع السيدان يَصيحان وهما يحذرانه: «احذري أيتها المرأة!» أغضب هذا التحذير العُلجوم، فبدأ يفقد السيطرة على نفسه.

حاول السائق أن يتدخَّل ولكن العُلجوم ثبته في مكانه على كرسيه بأحد مرفقَيه ثم انطلق بأقصى سرعة مُمكنة. أسكر عقله الضعيف الهواء المندفع الذي يرتطم بوجهه، وصوتُ دندنة المحركات، وقفزات السيارة الخفيفة من تحته. ثم صاح باستهتار: «غسالة الملابس! ها ها! أنا العُلجوم! سارق السيارات ومحطِّم أسوار السجون! أنا العُلجوم الذي دائمًا ما يجد مخرجًا وينجو! اجلسوا دون حركة وستعلمون كيف هي القيادة بحق؛ فأنتم بصحبة العُلجوم البارع الذائع الصِّيت الذي لا يَهاب شيئًا أبدًا!»

صرخُوا جميعًا صرخة رعب وانتفضُوا من أماكنهم ووثبوا عليه. ثم صاحوا: «اقبضوا عليه! اقبضوا على ذلك الحيوان الشرِّير الذي سرق سيارتنا! شُدُّوا وثاقه وقيِّدوه بالأغلال، ثم اقتادوه إلى أقرب قسم للشرطة! فليَسقُطِ العُلجوم المتهور والخطير!»

وا أسفاه! كان عليهم أن يُفكِّروا مليًّا وأن يتصرَّفوا بحكمةٍ أكثر؛ كان عليهم أن يوقفوا السيارة أولًا بطريقةٍ ما قبل أن يُهاجموا العُلجوم. فبنصف استدارة للمقود، كان العُلجوم قد جعل السيارة تصطدم بسياج الشجيرات القصير الذي يحفُّ جانب الطريق. قفزت السيارة قفزةً عالية، ثم هبطت مصطدمةً بالأرض اصطدامًا عنيفًا لتحطَّ السيارة وسط وحْل بركة الخيل اللزج وعجلاتها تمخض فيه بلا طائل.

وجَد العُلجوم نفسه يطير عاليًا في الهواء كأنه طائرُ سنونو يُحلِّق بجناحيه في السماء. أحب العُلجوم هذا الوضع، وبدأ يتساءل عمَّا إذا كان سيظلُّ على هذا الحال حتى ينمو له جناحان ويَنبت لهما ريش ليتحوَّل إلى العُلجوم الطائر، حين ارتطم على ظهره بالأرض ارتطامًا شديدًا على عشب ناعم وكثيف لمرج من المروج. اعتدل جالسًا فرأى من مكانه السيارة غارقة في البركة يغمرها الماء تقريبًا؛ والسيدان والسائق مُثقَلون بمعاطفهم الطويلة وكانوا يتخبطون في الماء بلا حول لهم ولا قوة.

نهَض على قدميه في عجل ثم أخذ يركض باتجاه الحقول ركضًا سريعًا قدر استطاعته وهو يندفع بين سياجات الشجيرات ويقفز فوق مصارف المياه ويجتاز الأراضي حتى أرهقه التعب وتقطَّعت أنفاسه، فاضطرَّ إلى أن يُخفف من سرعته ويمشي مشيًا مُتمهِّلًا. وعندما استرد أنفاسه بعض الشيء، وبدأ يفكر في هدوء، أخذ يضحك ضحكًا خفيفًا، ثم ما لبث أن زاد الضحك فصار قهقهة واستمرَّ على ذلك حتى خارت قواه فجلس في ظل

سياج من الشجيرات. ثم صاح في نشوة وإعجاب بالنفس: «لا أُصدق! ها هو العُلجوم مرةً أخرى! ها هو، تمامًا كعهدي به، يتربع على القمة! من الذي غرر بهم وجعلهم يُوصلونه؟ من الذي استطاع بحيلته أن يجلس في المقعد الأمامي بحجة الهواء المنعش؟ من الذي أقنعهم بأن يسمحوا له بالقيادة ليرى إن كان يستطيع أم لا؟ من الذي أوقَعَ بهم وأرداهم في بركة الخيل؟ مَن الذي فرَّ سالمًا غانمًا وهو يطير في سعادة وسرور؟ من الذي ترك وراءه هؤلاء المسافرين الجبناء المتعصِّبين والناقمين وسط الوحل حيث يجدر بهم أن يكونوا؟ الإجابة، بلا ذرة شك، هي العُلجوم. العُلجوم البارع؛ العُلجوم العظيم؛ العُلجوم الماهر!»

ثم بدأ ينظم قصيدة أخرى ويُنشدها بصوت عالٍ مُرتفِع:

سيارة تُسابق الطريق وهي مسرعة
تقول توت توت توت في نغمات ممتعة
مَن ذا الذي يقودها؟ مجاوزًا حدودها
فغاص في بركة أرهقه ورودها
عُلجومُ إذ يسارع ذاك الذكي البارع
يقول في تفاخر: فيا لي من ماهر
فيا لي من ماهر
فيا لي من ما ...

دفعه صوت ضوضاء خافت انبعث من مكان قصي خلف ظهره، أن يلتفت وينظر. رحماكَ يا أله! يا للأسى! يا للشقاء!

كان يرى على بُعد حقلين منه رجلَي شرطة ضخمَي الجسد من شرطة الريف وسائقًا يَرتدي جُرْمُوقًا جلديًّا، وثلاثتهم يركضون باتجاهه بأقصى ما لديهم من سرعة!

قفز العُلجوم المسكين وانطلق يعدو هاربًا بسرعة وقلبه يكاد يخلع من مكانه من الفزع. قال لاهثًا وهو يركض: «يا إلهي! يا لي من أحمق! يا لي من حيوان مُتغطرِس وطائش! عدتُ مجددًا إلى التبختُر والصياح وإنشاد القصائد والثرثرة! يا إلهي! يا إلهي! يا إلهي!»

نظر بطرف عينه إلى الخلف فرأى ما أفزعه؛ فقد كانوا يقتربون منه. أخذ يركض ويركض بقوة، وما فتئ ينظر خلفه فيرى أنهم ما يزالون يقتربون منه أكثر فأكثر. بذل

ما بوسعه، لكنه كان حيوانًا بدينًا ذا أرجل قصيرة، ووجد أنهم لا يزالون يقتربون منه. كان يمكنه الآن سماع وقع أقدامهم خلف ظهره، فكفَّ عن الانتباه لأي اتجاه يذهب أو أي طريق يسلك. كان يحاول الفرار منهم إلى أي مكان وبأي ثمن فرارًا أهوجَ وهو ينظر من فوق كتفه إلى أعدائه الذين أوشكوا على الظفر به. ولكن فجأة، انهارت الأرض من تحت قدميه. تمسَّكت أصابعه بالهواء، ثم هوى؛ طش! وجد نفسه يغوص بجسده حتى منبت شعر رأسه في ماء عميق غائر؛ ماء متدفِّق يدفعه بتيار عرم لا يقدر أن يُصارعه. فعرف أنه قد سقط في النهر وهو يركض مذعورًا خائفًا!

صعد إلى السطح وحاول أن يتشبَّث بالحشائش وعيدان البوص النابتة على حافة النهر أسفل ضفة النهر، لكن التيار كان غاشمًا قويًّا حتى إنه كاد أن يَقتلع تلك الحشائش والعيدان. لهث العُلجوم العاجز وقال: «يا ألله! تبًّا لي لو سرقتُ سيارة أخرى! بئسًا لي لو أنشدت قصيدة فخر أخرى!» ثم غمرتْه المياه لكنه طفا على السطح مرة أخرى يُبقبق ويشهق ويلهث. تنبَّه بعد ذلك أنه يقترب من جحر كبير مظلم على جانب الضفة فوق رأسه مباشرة. وعندما حمله التيار بجانبه، مدَّ كفه لأعلى وتمسَّك بحافة الجحر. ثم ببطء ومشقَّة، أخذ يرفع نفسه من الماء حتى استطاع أن يُريح مرفقَيه على حافة الجحر. ظل على حاله هذا بضع دقائق، تتابعت فيها زفراته ولهثاته؛ فقد كان التعب قد أنْهَكَه واستنزف طاقته.

وبينما هو يلهث ويملأ رئتَيه بالهواء ويحدِّق في الجحر المظلم الذي أمامه، أخذ شيء صغير ولامع يومض ويتلألأ في عمق الجحر ويتحرَّك باتجاهه. وكلما اقترب أكثر، ظهرت ملامح وجهه شيئًا فشيئًا حتى اكتملت، فكان وجهًا مألوفًا!

كان وجهًا بُنيًّا وصغيرًا وذا شوارب.

كان وجهًا جادًّا ومستديرًا ذا أذنين صغيرتين ويكسوه شعر حريري.

كان وجه فأر الماء!

الفصل الحادي عشر

فانهمرت دموعه بقوة كعاصفة صيفية عاتية

مدَّ الفأر كفَّه البنية الصغيرة والنظيفة، وأمسك بالعُلجوم بقوة من مؤخِّرة عنقه، ثم رفعه رفعة شديدة وسحبه إلى الداخل. ارتفع العُلجوم المُشبع بالمياه للأعلى ببطء وشيئًا فشيئًا حتى اعتلى حافة الجحر ووقَف في النهاية في الصالة آمنًا مُعافًى. كان ملطَّخًا بالحشائش والطين والماءُ يَنهمر منه انهمارًا، لكن سعادة الزمن الماضي كانت ترتسم على وجهه وعاد مُفعَمًا بالحيوية والنشاط. لم لا وقد عاد مجددًا إلى النهر وها هو يقف في بيت أحد أصدقائه، وقد انتهى وقت المراوَغات ومحاوَلات الهروب، ويُمكنه الآن أن يخلع عنه ثياب التنكُّر التي لا تليق بمكانته، وتتطلَّب منه جهدًا جهيدًا لإتقان شخصيتها المنتحَلة؟

صاح قائلًا: «أوه يا فأرون! لا تتصوَّر كم خضتُ من المغامرات منذ آخر مرة رأيتُكَ فيها! قاسيتُ الأمرَّين وعانَيت وتألمت لكني تحمَّلتُ كل ذلك بنبل وهمة عالية! ثم أتت عليَّ أوقات الهروب، والتنكُّر، والمراوغات والخديعة، وقد جرى كل ذلك إثر تخطيط حكيم وتنفيذ متقن! رُميتُ في السجن؛ فهربت منه، بلا ريب! وقُذفت في قناة؛ فسبحت حتى الشاطئ، ثم سرقتُ حصانًا وبعتُه بثمن عظيم! احتلتُ على الجميع، وجعلتهم يفعلون تمامًا ما أردتُه منهم! أوه، ما أذكاني من عُلجوم! لم يجانبني الصواب ولو قيد أنملة! هل تعرف كيف كانت مغامرتي الأخيرة؟ انتظر لحظة وسأخبرك ...»

قال فأر الماء بنبرة صارمة وجادة: «يا عُلجوم! ستَرتقي ذاك الدرج في الحال وتخلع عنك هذه الخرقة القطنية القديمة التي تبدو كما لو كانت ملكًا لامرأةٍ تَغسل الملابس، ثم ستُنظِّف نفسك جيدًا وترتدي ما يحلو لك من ملابسي. أريدكَ أن تَهبِط وأنت تبدو كسيدٍ

محترمٍ إن استطعت؛ فلم تقعْ عيناي قط في حياتي على منظر كمظهَرِك الرث والمُوحِل والقذر! والآن، توقف عن التفاخُر والجدال واذهب في الحال! فلديَّ ما أخبرك به لاحقًا!»

نازعت العُلجوم نفسه في أول الأمر أن يقف ويردَّ بحدة على الفأر؛ فقد فاض كيله من تلقِّي الأوامر منذ أن كان في السجن، وها هي الكرَّة تعاد هنا من جديد، فيما يبدو، وعلى يد فأر! لكنه لمح انعكاس صورته في المرآة المعلقة فوق مشجب القبعات، فرأى قلنسوته السوداء المهترئة تتدلى فوق إحدى عينيه، فبدَّل من رأيه وأسرع لأعلى في تواضُع إلى غرفة الملابس الخاصة بالفأر. هناك، اغتسل اغتسالًا مُتقَنًا من رأسه إلى قدميه، ثم بدَّل ثيابه ووقف دهرًا أمام المرآة يتأمل نفسه وينظر إليها في فخر وسعادة، ويفكر كيف لهؤلاء الحمقى من الناس أن يظنوا خطأً ولو لوهلة أنه امرأة تغسل الملابس.

في الوقت الذي هبط فيه إلى الصالة مرة أخرى، كان الغداء جاهزًا على المائدة، وسر العُلجوم لذلك أيما سرور. فقد مر بالعديد من المواقف الشاقة والمتعِبة، وركض بقوة لمسافات طويلة منذ أن تناول ذاك الفطور الفاخر الذي قدمه له الغجري. قصَّ العُلجوم على مسامع الفأر جميع مغامراته بينما كانا يأكلان، وكان يركز تركيزًا أساسيًّا على حنكته، وبديهته الحاضرة في الظروف الطارئة، ودهائه ومكره في المواقف الصعبة؛ بل جعل الأمر يبدو كما لو كان قد قضى وقتًا طيبًا وسعيدًا. وكلما زاد كلامه وإعجابه بصنيعه، ازداد الفأر ضيقًا وصمتًا.

عندما أفرغ العُلجوم ما بجَعْبَته من كلام عن نفسه وأسكته التعب، ساد الصمت لدقائق، ثم قال الفأر: «استمع إليَّ يا علجم! أنا لا أقصد أن أغمَّك بعد كل ما مررت به حتى الآن، ولكن جديًّا، ألا ترى كيف غدوت حيوانًا أحمقَ وحقيرًا؟ فبلسانك أنت قلتَ إن يديك قد صُفِّدتا وزُجَّ بك إلى السجن فتضورتَ جوعًا، وفررتَ وطاردوك حتى خفتَ على حياتك وأُهنتَ وشُتمت وسُخر منك، ثم قَذَفت بك امرأة في الماء بمهانة وخزْي! أين المتعة في كل ذلك؟ ومن أي من تلك المواقف المشينة أتاك المرح والسرور؟ وكل ذلك بسبب أنك سرقتَ سيارة. أنت تعرف أن السيارات لم تَجلِب عليك سوى المصائب من أول مرة وقعت عيناك عليها. إن كنت تعلم أنك تُصبح مشوَّش الذهن بعد خمس دقائق من وجودك في السيارة فلا تُسيطِر على أفعالك ولا انفعالاتك، كما هي حالك دائمًا، فلماذا تسرق السيارات إذن؟ إن كنت تظن أن الأمر مُثير فاستمتع به حتى يجعلك أعرجَ أو كسيحًا، وإن كنت ترى في الأمر غاية حياتك وهدفها، فأنفق عليه حتى تُفلس وتتسوَّل؛ لكن لماذا تختار أن تكون مجرمًا مُدانًا؟ متى ستُفكِّر بعقلٍ راشدٍ في أصدقائك وتُحاول ألَّا تكون عبئًا عليهم؟ هل

تظن أني، على سبيل المثال، أكون سعيدًا حين أسمع، وأنا في طريقي، الحيوانات وهم يقولون إني صديق حيوان مُعتاد الإجرام؟»

كان قلب العُلجوم الطيب والرقيق أحد ميزات شخصيته التي تُذكر له، فلم يكن يُمانع أبدًا أن يوبَّخ من أحد أصدقائه الصدوقين أو أن يعظه أحدهم. وحتى عندما يكون قد حزم أمره بشأن مسألة ما، كان دائمًا لديهِ القدرة على النظر وتأمل الجانب الآخر منها.

ومع أن الفأر كان يتكلَّم بجدية شديدة، ظل العُلجوم يُحدث نفسه متمردًا: «ومع ذلك، كان الأمر ممتعًا! ممتعًا على نحو لا مثيل له!» وأخذ يُصدر بداخله أصواتًا غريبة، وأصواتًا أخرى تشبه أصوات نخير مكتوم، أو تشبه صوت فتح زجاجة مياه غازية، ولكن حينما انتهى الفأر من كلامه، أخذ نفَسًا عميقًا، ثم قال بأدب وتواضُع شديدين: «صدقت يا فأرون! ما تزال حكيمًا ذا رأي صائب كما أنت! نعم، لقد كنتُ أهوجَ متغطرسًا، أرى ذلك بوضوح، لكني من الآن فصاعدًا سأكون العُلجوم الطيب ولن أعود لذلك مرة أخرى. أما شغَفي الشديد بالسيارات، فقد فقدتُه منذ آخر مرة سقطتُ فيها في النهر. في الحقيقة، راودَتْني فجأة، وأنا متعلق بحافة جحرك وألتقط أنفاسي، فكرة عبقرية حقًّا بشأن القوارب البخارية. على رِسْلك! على رسلك! لا تنفعل يا صديقي العزيز ولا تَسْتأْ؛ فالأمر كله لم يتخطَّ كونه فكرة، ولن نطيل الحديث عنها الآن. سنحتسي قهوتنا، ونُدخن غليونًا ونستمتع بحديث هادئ. وبعدها، سأسير بهدوء إلى قصر العُلجوم، وسأرتدي ملابسي وسأنساب في وتيرة الحياة كما في الأيام السالفة. لقد اكتفيتُ من المغامرات، وأريد أن أعيش حياة هادئة ومستقرة ومحترمة؛ حياة أهتمُّ فيها بأملاكي وأعمل على تحسين أحوالها وأشغل بعض وقتي بزراعة أرض صغيرة حول بيتي. ستكون أبواب بيتي مفتوحة دائمًا للأصدقاء لزيارتي وتناول العشاء معًا، وسأبتاع عربة يجرُّها حصان للتنزه وسط الحقول كما اعتدتُ في السابق قبل أن يقضَّ مضجعي وأرغب في القيام بالمغامرات.»

صاح الفأر في دهشة عظيمة: «تسير بهدوء إلى قصر العُلجوم؟ ما الذي تقوله؟ أهذا يعني أنك لم تسمَع بما حدث؟»

قال العُلجوم وقد شحب وجهه: «سمعت بماذا؟ انطق يا فأرون! هيا بسرعة! لا تتركني هكذا! ما الذي لم أسمع به؟»

صرخ الفأر وقال وهو يَضرب الطاولة بقبضته الصغيرة: «أتقول لي إنك لم تسمع أي شيء عن فتوات ابن عرس وأتباعهم من حيوانات القاقم؟»

صاح العُلجوم وقد ارتعدت فرائصه: «ماذا؟ الذين يَسكنون البراري؟ لا، لم أسمع بشأنهم ولو كلمة واحدة. ما الذي فعلوه؟»

فأكمل الفأر كلامه وقال: «... وكيف استولوا على قصر العُلجوم؟»

أناخ العُلجوم مرفقَيه على الطاولة، وأراح ذقنه بين كفيه واغرورقت عيناه وذرفت الدموع فتساقطت على الطاولة الدمعة بعد الأخرى!

ثم غمغم قائلًا: «هيا يا فأرون! أخبرني بكل شيء الآن. لقد مرَّ الجزء الأسوأ. لقد عدت حيوانًا مجددًا ويمكنني تحمل الأمر.»

بدأ الفأر يقص عليه بأناة وبنبرة مثيرة: «عندما حلَّت عليك ... تلك ... تلك ... المصائب! أقصد، عندما اختفيتَ ... وقتًا طويلًا بعد ما حدث من سوء تفاهُم حول ... حول تلك السيارة ... أنت تعرف القصة ...»

اكتفى العُلجوم بالإيماء برأسه.

أكمل الفأر وقال: «بالطبع، انتشر ما حدث كالنار في الهشيم. ولم يقف الأمر على طول ضفة النهر فحسب، بل انتشر وذاع إلى أن وصل إلى البراري. انقسمت الحيوانات كعادتها؛ دافع سكان ضفة النهر عن موقفك وقالوا إنك قد ظُلمتَ وإنَّ العدل قد اندثر واختفى من البلاد في أيامنا هذه. ولكن تفوَّهت حيوانات البراري بأشياء فظيعة عنك ووبَّخوك ولاموك على فعالك. ثم أتى وقتٌ خمدت فيه مثل هذه الأحاديث. ثم تمادَوْا من جديد وقالوا إنه قد انتهى أمرك وقُضي عليك هذه المرة ولن تعود ثانية أبدًا، أبدًا!»

أومأ العُلجوم برأسه مرة أخرى محافظًا على صمته.

تابع الفأر حديثه وقال: «هذا غَيْض من فَيْض لتعلم منه طبيعة هؤلاء الوحوش الصغيرة، لكن وقف الخُلد والغُرير لهم بالمرصاد وتابَعا الدفاع عنك في كل الأحوال وكانا يُصران أنك ستعود قريبًا بطريقة أو بأخرى. لم يَعرفا كيف ستعود على وجه التحديد، لكنهما كانا يعتقدان أنك ستعود على نحوٍ ما!»

بدأ العُلجوم يعتدل في جلسته على كرسيه مرة أخرى ويتصنَّع الابتسامة.

أكمل الفأر قائلًا: «احتَجَّا بأدلة من التاريخ وقالا إن القانون الجنائي لم يحدث وأن عاقَبَ يومًا، كما عُوقبتَ أنت، على التكلُّم بصراحة ووقاحة، وخاصة لو اقترن هذا بثراء المتَّهم. لذلك عقدا النية على أن يَنقلا أغراضهما إلى قصر العُلجوم، وأن يَبيتا هناك ويُعرِّضاه للتهوية ليكون في أحسن حال عندما تعود مجددًا. لم يَفطِنا إلى ما كان سيحدث، ومع ذلك كانت تساورهما الشكوك وينتابهما القلق من حيوانات البراري.

والآن، سأحكي لك أفجع وأقسى جزء في هذه القصة. في ليلة مظلمة — بل حالكة السواد وذات رياح عاصفة ويَنهمِر فيها المطر بشدة — قدمت عصبة من فتوات ابن عرس مدجَّجين بالأسلحة، وتسلَّلوا في صمت عبر ممر القصر الأمامي. وفي نفس الوقت، كانت فرقة مُستميتة من جنود ابن مِقْرض تقتحم حديقة المطبخ وسيطرت على الباحة الخلفية والمطبخ وغرفة الغسيل، بينما احتلت سَرِية مناوِشة من أتباع فتوات ابن عرس يُسمَّون القاقم المستنبت وغرفة البلياردو وسيطرت على النوافذ ذات الطراز الفرنسي المطلَّة على الحديقة، بعد أن وجدت نفسها دون عمل أو مهمَّة.

كان الخُلد والغُرير يجلسان ودفء نيران المدفأة يكتنفهما في غرفة التدخين، يقصان الحكايات، مرتاحَي البال؛ فقد كانت تلك ليلة لا خروج فيها لأي حيوان، عندما اقتحم هؤلاء الأوغاد المتعطشون للدماء الأبواب مُندفعين من كل اتجاه ليُحاصِروهما. قاتَلا هؤلاء المعتدين بكل ما أوتيا من قوة وجسارة، ولكن أكان ذلك كافيًا؟ كانا أعزلَيْن لا سلاح لهما، وقد أخذا على حين غرة، فما الذي يقدر عليه حيوانان في مواجهة المئات؟ فحاصر هؤلاء هذَين المسكينين الوفيين وانهالوا عليهما ضربًا بالعصي ثم طردوهما خارج القصر في ذلك الجو الممطر العاصف، منزلين عليهما شتى الإهانات والسباب دون سبب أو مُبرِّر.»

في تلك اللحظة، انفجر العُلجوم الذي قسا قلبه وانعدمت مشاعره في ضحك نصف مكبوت، لكنه سرعان ما أمسك بزمام نفسه وحاول أن يرسم الوقار والجدية على وجهه.

أكمل الفأر القصة وقال: «ومنذ ذلك الحين وحيوانات البراري تَسكُن قصر العُلجوم وتُواصل معيشتها فيه ببساطة! يستلقون على الأسرَّة نصف النهار ويأكلون طوال الوقت. كما أُخبرت أن المكان تعمه الفوضى حتى إن العين تعاف أن تنظر إليه! إنهم يأكلون طعامك ويحتسون شرابك، ويُطلقون نكاتًا منحطَّة عنك، ويغنون أغانيَ فاحشة حول ... حول السجون والقضاة ورجال الشرطة؛ أغانيَ بشعة يذكرون فيها أشخاصًا بعينهم لا يشمُّ منها رائحة المرح. ويخبرون التجار والجميع أنهم قد جاءوا ليمكُثوا في القصر للأبد.»

قال العُلجوم وهو ينهض ويقبض بيده على عصا: «ماذا؟ أقالوا ذلك حقًّا؟ سنرى قريبًا من سيَمكُث للأبد!»

ناداه الفأر وقال: «لا فائدة ترجى من ذهابك يا عُلجوم! ارجع واجلس؛ فهذا أفضل لك؛ فلن تقع إلا في المتاعب!»

لكن العُلجوم كان قد مضى في طريقه ولا أحد يقدر على أن يُثنيه عن قراره. سار بخطوات متلاحِقة سريعة على الطريق وهو يضع عصاه فوق كتفه، ويزبد ويُغمغم

بكلمات يحدِّث بها نفسه من شدة الغضب حتى وصل قرب بوابة القصر الأمامية. وحينها برَز من وراء السياج فجأة ابن مِقْرض طويل أصفر اللون حاملًا بندقية.

سأل ابنُ المقرض بحدة: «مَن القادِم هناك؟»

رد العُلجوم بغضب: «يا للعبث! كيف تجرؤ على أن تتحدث إليَّ بهذه الطريقة؟ اخرج إليَّ حالًا وإلا ...»

لم ينبس ابن المِقْرض ببنت شفة، وأسند بندقيتَه إلى كتفه واستعدَّ لإطلاق النار، فانبطح العُلجوم على أرض الطريق في حذر، ثم طاخ! سَمع دويَّ صفير طلقة رصاص وهي تمرق الهواء فوق رأسه.

زحف العُلجوم المُرتاع ثم نهض على قدميه وبدأ يعدو بعيدًا بأسرع ما يُمكن لقدميه أن تتتابَعا. وبينما كان يركض هربًا، سمع ضحكات ابن المِقْرَض تتردَّد في الهواء ومعها ضحكات بغيضة قصيرة وأضعف صوتًا تزيد من بشاعة الصوت.

رجع خائبًا حزينًا إلى فأر الماء وأخبره بما حدث.

قال الفأر: «ألم أقلْ لك؟ لا فائدة ترجى من ذلك! فهناك حراس في كل مكان وجميعهم مسلحون. عليك بالانتظار!»

رغم ذلك، كان العُلجوم غير مُستعد لأن يستسلم بهذه السرعة. فأخرج القارب وانطلق مجدفًا أعلى النهر إلى حيث تَنحدِر مقدمة حديقة قصر العُلجوم باتجاه ضفة الماء.

عندما وصل إلى مشارف بيته القديم، أراح مجدافَيه واتَّكأ عليهما وأخذ يفحص الأرض بعينَيه بحذر. كان الجو هادئًا ومسالِمًا والمكان خاليًا من أي حركة. كان يرى مقدمة قصر العُلجوم بالكامل وهي تتلألأ تحت أشعة قرص الشمس الآفل، والحمام يهبط راجعًا مثنى وثلاث إلى أعشاشه الممتدة على سطح القصر. كان يرى الحديقة الغنَّاء تملؤها الزهور، وجدول الماء الذي يقود إلى مرفأ القوارب وذاك الجسر الخشبي الصغير الذي يقطعه. كان كل شيء ساكنًا والمكان خاليًا من أي حركة، على ما يبدو بانتظار عودته. فكَّر في أن يحاول الذهاب إلى مرفأ القوارب أولًا؛ فأخذ يجدِّف بحذرٍ حتى وصل إلى مصبِّ الجدول، ثم ما لبث أن عبر تحت الجسر حتى ... طش! سمع صوت اصطدام شديد!

قذفت صخرة ضخمة من الأعلى فاصطدمت ببطن القارب فخرقته. تدفقت المياه بداخله حتى غرق، ووجد العُلجوم نفسه يُصارع للخروج من المياه العميقة. نظر لأعلى، فرأى اثنين من فتوات القاقم يتَّكئان على سور الجسر ويشاهدانه في سعادة غامرة. نادَيا عليه وقالا: «المرة القادمة ستُفلَق رأسك يا علجم!» سبح العُلجوم في سخط إلى الشاطئ

بينما أخذ الحيوانان يضحكان ويقهقهان، ثم يتفوَّه أحدهما بكلمة أو بجملة فيبدآن من جديد في الضحك حتى كادا يَهلكان من كثرة الضحك.

عاد العُلجوم لفأر الماء سائرًا على قدميه، وأخذ مرة أخرى يشكو إليه خيبته وتجاربه الفاشلة.

قال الفأر بنبرة ساخرة: «حسنًا، ألم أقل لك؟ اسمعني جيدًا، إذن! انظر ماذا فعلت. أغرقت قاربي المحبَّب، هذا ما فعلته. ومزقتَ ثيابي الجميلة التي أعرتُكَ إياها! يا عُلجوم، أحيانًا أتساءل لماذا أنتَ دونًا عن كل الحيوانات المشاغبة والمزعجة لا يَزال لديك أصدقاء!»

تنبَّه العُلجوم على الفور إلى حماقة أفعاله وخطئها، فاعترف بذنبه وسوء تفكيره، واعتذَر للفأر بشدة لتَسبُّبه في فقدان قاربه وتمزيق ملابسه. ثم ختم كلامه وقال بنبرة الخضوع والاستِسلام المعهودة عنه والتي دائمًا ما تجعل أصدقاءه يَتنازلون عن نقدهم له فيستعيد ودَّهم مرة أخرى: «فأرون! أعترِف أمامك أني كنتُ عُلجومًا جامحًا وعنيدًا! أرجو أن تُصدِّقَني أني من الآن فصاعدًا سأكون متواضعًا ومطيعًا، ولن أقدم على أي فعل إلا بعد أن آخذ بنصيحتك وأحصل على رضاك التام!»

قال الفأر المهذَّب وقد ذهب عنه الغضب: «إن كان ما تقوله صحيحًا، فنصيحتي إليك، أخذًا بالحسبان الوقت المتأخر الذي نحن فيه، هي أن تجلس لتناول العشاء الذي سيكون حاضرًا على الطاولة في غضون دقيقة وأن تتحلَّى بصبر شديد. فأنا واثق بأنَّنا لا نستطيع فعل أي شيء حتى نرى الخُلد والغُرير ونسمع ما لديهما من مستجدَّات الأخبار، ونتداول الأمر ونستمع إلى مشورتهما في هذا الأمر العصيب.»

رد العُلجوم بلامبالاة وقال: «أجل! بالطبع! الخُلد والغُرير. كيف صارت أحوالهما، هذَين الرفيقين العزيزين؟ لقد نسيت أمرهما تمامًا.»

ردَّ الفأر موبخًا: «آن لك أن تسأل عنهما أخيرًا! بينما أنت تقود سياراتك الفارهة عبر الحقول وتمتطي بزهو أحصنتك ذات السلالة النقية وتتناول فطورًا شهيًّا من خيرات الطبيعة، كان هذان المسكينان المُخلصان يُخيمان في العراء، مهما كان الطقس، ويعيشان في شظف بالنهار ويرقدان في عسر ومشقة بالليل؛ يَحميان قصرك، ويحرسان حدودك، وتسهر أعينهما تراقب فتوات ابن عرس وأتباعهم؛ ثم يرسمان الخطط ويدبران المكائد ويَمكران لاستعادة قصرك. أنت لست جديرًا بمثل هذين الصديقين الوفيين يا عُلجوم. أنت بحق لا تستحقهما. يومًا ما، ستندم أشد الندم على عدم تقديرك لهما حق قدرهما بينما كانا لا يزالان صديقَيك؛ لكن حينها سيكون الأوان قد فات.»

بكى العُلجوم وذرفت عيناه دموع الندم بمرارة وقال: «أعرف أنني بهيمة ناكرة للجميل. ائذن لي بأن أخرج وأبحث عنهما في هذه الليلة الباردة المظلمة لأشاطرهما ما يُعانيانه من عناء ونَصبٍ، ولأثبت أني ... مهلًا! أنا على يقين أني سمعت خشخشة أطباق تصطكُّ على صينية! أخيرًا حضر العشاء! مرحى! هيا يا فأرون، أسرع بالطعام هيا!»

تذكر الفأر أن العُلجوم المسكين قد اقتات طعام السجن وقتًا طويلًا، ولا بد من طهو كمية وفيرة من الطعام. تبع العُلجوم إلى المائدة، وفي مسعاه النبيل ليُعوِّضه عما مرَّ به من حرمان، حثه على تناول ما يريد من الطعام.

انتهيا من طعامهما ثم عاد كل واحد مرة أخرى منهما إلى مقعده ذي المسنَدين، وحينها سمعا طرقًا قويًّا على الباب.

كان العُلجوم قلقًا، لكن الفأر أومأ إليه بإيماءة غامضة لم يفهم معناها ثم اتجه مباشرة إلى الباب وفتحه فدلف السيد غُرير إلى الداخل.

كان مظهره كمظهر حيوان عاش مشرَّدًا ليالِيَ بعيدًا عن بيته بكل ما فيه من سبل الراحة والرفاهية. كان حذاؤه مغطًّى بالوحل، وكان أشعثَ أغبرَ، ولكن على أي حال، لم يكن الغُرير ذاك الحيوان الأنيق حتى في أفضل أيامه. اقترب من العُلجوم في وقار وصافحه وقال: «أهلًا يا عُلجوم، عودٌ حميد إلى بيتك! يا ويلي! ما هذا الذي أقوله؟ البيت! لا شك أن هذا عود بائس. يا للعُلجوم المسكين!» ثم أولاه ظهره وجلس إلى المائدة وقرَّب مقعده إليها وأخذ يقطع شريحة كبيرة من الفطيرة الباردة ليأكلها.

فزع العُلجوم من هذا الترحيب الفظ والمهدِّد فزعًا شديدًا، لكن الفأر همس إليه وقال: «لا عليك مما قاله، ولا تُحدثه بأي شيء الآن. فهو دائمًا ما يكون لئيمًا وقانطًا عندما يكون جائعًا. لن تمرَّ نصف ساعة إلا وسنرى حيوانًا مختلفًا أمامنا.»

وهكذا انتظرا في صمت، ثم سَمعا صوت طرق آخر على الباب لكنه طرق هين. أومأ الفأر للعُلجوم ثم ذهب باتجاه الباب ورجع والخُلد وراءه يتبعه. كان الخُلد مُهترئ الثياب ومتسخًا، وبعض أجزاء القش والتبن تتخلَّل فراءه.

صاح الخُلد ووجهُه يتلألأ في سعادة: «مرحى! ها هو العُلجوم العجوز قد عاد! سررت بعودتك مجددًا يا عُلجوم!» ثم بدأ يطوف حوله راقصًا في سعادة وقال: «لم نتوقع قطُّ أن تعود بهذه السرعة! يبدو أنك قد تمكَّنت من الهروب أيها العُلجوم البارع والذكي والحازق!»

ذُعر الفأر وتنبَّه، فجذب الخُلد من مرفقه؛ لكن الأوان قد فات. كان العُلجوم قد انتفَخَ غرورًا وتغطرسًا إثر ذلك المديح.

ثم قال: «أنا بارع؟ لا، أبدًا! أنا لستُ بارعًا في نظر أصدقائي. لقد هربتُ من أعتى سجون إنجلترا، هذا كل شيء! وركبت على متن قطار وفررت من خلاله، هذا كل شيء! وتنكَّرتُ وقطعت الريف بطوله وأنا أخدع وأحتال على جميع من أقابله، هذا حقًّا هو كل شيء! كفَّ عن هذا! ما أنا إلا حيوان أحمق وغبي! سأقص عليك مغامرة قصيرة أو مغامرتين يا خُلد، واحكم بنفسِك بعدها!»

قال الخُلد وهو يخطو باتجاه مائدة العشاء: «حسن، حسن! أرجو منك أن تحكي لي وأنا آكل، فأنا لم أضع في بطني لقمة منذ الفطور! يا ألله! يبدو طعامًا شهيًّا!» ثم جلس وبدأ يأكل اللحم البقري البارد والمخلَّل بنهم.

وقف العُلجوم على سجادة المدفأة مباعدًا ما بين قدميه، ووضع كفه في جيب سرواله، فأخرج حفنة من النقود الفضية، ثم صاح وهو يعرضها: «انظر لهذا! إنه ليس مبلغًا زهيدًا لقاء بضع دقائق من العمل، أليس كذلك؟ وكيف تظن أني قد كسبتُ هذا المال يا خُلد؟ من بيع الأحصنة! هذه هي الطريقة التي كسبتُ بها هذا المال!»

ردَّ الخُلد وقد اعتمل الشوق والإثارة في نفسه: «واصل حديثك يا عُلجوم!»

قال الفأر: «اصمت من فضلك يا عُلجوم! وأنت، يا خُلد، لا تحثَّه وتُشجعه على الاستمرار، وأنت تعرفه جيدًا. وأخبرنا رجاءً، بأسرع وقت، ما هو وضعنا الحالي، وما الذي يجب علينا فعله وقد عاد العُلجوم بين أظهرنا أخيرًا!»

رد الخُلد في كدر: «الوضع الحالي على أسوأ ما يكون. أما ما الذي يجب علينا فعله، فليباركني الله إن عرفته! أنا والغُرير كنا نراقب المكان عن كثب ليلًا ونهارًا، ودائمًا الوضع كما هو. الحراس منتشرون في كل مكان، يصوِّبون البنادق إلى صدرَينا، ويقذفون الحجارة فوق رأسينا. دائمًا هناك حيوان يَحرس المكان، وعندما يرانا، يا ألله! لا تدري كيف يضحك ويسخر منا! وهذا أكثر ما يُضايقني!»

قال الفأر وهو يفكر مليًّا: «هذا وضع صعب للغاية! لكن أظن أني أرى الآن في أعماق عقلي ما الذي يجب على العُلجوم أن يفعله. سأخبركم. عليه أن ...»

صاح الخُلد والطعام يملأ فاه: «لا! لا يجب عليه! لن يفعل شيئًا مما تُفكر فيه! أنت لا تفهم الأمر فهمًا جيدًا. الشيء الوحيد الذي عليه فعله هو ...»

قال العُلجوم بصوت عالٍ ومُفعَم بالحماس: «حسن، أيًّا كان ما هو فلن أفعله! فأنا لن أتلقَّى الأوامر منكم يا رفاقي! إنه بيتي الذي نتحدَّث بشأنه، وأنا أعرف تمامًا ما الذي عليَّ أن أفعله وسأُخبركم به. أنا ...»

في هذه اللحظة، كان ثلاثتهم يتكلَّمون في آن واحد بأعلى صوت لهم. كانت الضوضاء تصم الآذان، حينها ارتفع صوت حاد وجاف فوق أصواتهم وقال: «ليصمت الجميع في الحال!» فسكت الجميع على الفور.

كان ذلك هو الغُرير الذي أنهى لتوِّه فطيرته، واستدار في كرسيه وأخذ ينظر إليهم بوجه متجهِّم. وعندما رأى أنه قد حاز على انتباههم وأنهم كانوا بلا شكٍّ يتلهفون لسماع ما سيقوله لهم، التفت راجعًا إلى الطاولة ومد يده وأخذ الجبنة. كان مقدار الاحترام الذي فرضه هذا الحيوان المبهر ذو الطبيعة الرصينة عظيمًا حتى إنهم لم يَنبِسوا ببنت شفة حتى انتهى من طعامه ونفض الفتات من على ركبتيه. تململ العُلجوم بشدة، لكن الفأر أجلسه في مكانه مُسيطرًا عليه بحزم.

عندما انتهى الغُرير من طعامه، نهض من مقعده ثم وقف بجانب المدفأة وهو يفكر تفكيرًا عميقًا. وفي النهاية تكلم.

قال بصرامة: «أيها العُلجوم! أيها الحيوان التافه الطائش والمزعج! ألست خجلًا من نفسك؟ ماذا تظن والدك، صديقي القديم، كان سيقول إن كان بيننا الليلة وعرف كل ما اقترفتْه يداك؟»

في ذلك الوقت كان العُلجوم منقلبًا على الأريكة، ورجلاه في الهواء فوق رأسه، وقد أخذ يشهق ويبكي نادمًا أسفًا.

حينها أكمل الغُرير بنبرة أكثر عطفًا: «لا عليك! لا بأس! كُفَّ عن البكاء. لندع ما مضى وراء ظهورنا ولنحاول أن نبدأ صفحة جديدة. ومع ذلك، ما قاله الخُلد صحيح تمامًا. حيوانات القاقم تحرس المكان كله شِبرًا شبرًا، وهم يحرسون المكان كأفضل حراس في العالم. لا طائل من التفكير بمهاجمة المكان؛ فهم أقوى منا بكثير!»

قال العُلجوم في نُواحٍ وهو يبكي على وسائد الأريكة: «أهكذا ينتهي الأمر إذن؟! سأذهب وأتطوع جنديًّا في الجيش ولن أرى قصري العزيز أبدًا مرة أخرى!»

قال الغُرير: «طِب نفسًا يا عُلجوم ولا تقنط! فهناك العديد من الطرق التي نستردُّ بها مكانًا دون اللجوء إلى القوة والعنف. وأنا لم أبتَّ في الأمر بكلمة أخيرة بعد. سأُخبرك الآن بسر عظيم.»

اعتدل العُلجوم ببطء وجفَّف عينيه من دموعهما. فقد كانت الأسرار تأسر لبَّه لأنه لا يستطيع أن يحافظ على أي منها، وقد كان يستمتع بالإثارة المنكرة التي يشعر بها عندما يذهب لحيوان آخر ويُفشي له الأسرار التي قطع الوعود ألَّا يُفشيها.

قال الغُرير بنبرة مثيرة: «هناك ... نفق ... تحت الأرض، بدايته عند ضفة النهر؛ قريبًا من هنا، يأخذ السائر فيه إلى قلب قصر العُلجوم!»

رد العُلجوم بعبث وقال: «كُفَّ عن هرائك هذا يا غُرير! أكنت تستمع إلى تلك الخرافات التي تتردَّد على الحانات في هذه الأنحاء؟ أنا أعرف جيدًا كل بوصة في قصر العُلجوم؛ سواء داخله أو خارجه. لا يوجد مثل هذا النفق، أنا أؤكد لك!»

قال الغُرير بغلظة: «يا صديقي الصغير، أبوك الذي كان حيوانًا فاضلًا — على نحو أكبر بكثير من بعض الحيوانات التي أعرفها — كان صديقًا مُقرَّبًا مني، ولقد أخبرني بالكثير والكثير مما كان لا يتصوَّر أن يخبرك به في يوم من الأيام. أبوك اكتشف هذا النفق — فهو لم يَحفره بنفسه بالتأكيد، بل كان محفورًا قبل أن يولد هو بمئات السنين — فأصلحه ونظفه. كان يظن أن مثل هذا النفق قد يكون مفيدًا يومًا ما في ساعات المصائب والأخطار. وأراني إياه ثم قال لي: «إياك أن يعرف ولدي شيئًا عن هذا النفق! فهو ولد صالح، لكنه طائش وذو شخصية متقلِّبة ولا يستطيع أن يكبح جماح لسانه. أما إذا كان في مأزق أو ورطة وكان هذا النفق عونًا له، فلا بأس أن تُخبره به، لكن لا تخبره أي شيء عنه قبل ذلك أبدًا».»

نظر الحيوانان الآخران إلى العُلجوم لَيريا كيف سيتلقَّى الصدمة. كان في البداية يميل للعبوس، لكن سرعان ما تهلَّلت أساريره فرَحًا، فعاد ذاك العُلجوم الذي عهداه.

ثم قال: «حسن، حسن! ربما أكون ثرثارًا بعض الشيء. فحيوان محبوب وذائع الصِّيت مثلي، يلتفُّ أصدقاؤه حوله طيلة الوقت، فنمرح جميعًا وتلمع أعيننا من الإثارة ونحكي القصص الطريفة، وحينها يَنساب لساني بالقيل والقال. عندي ملَكة المحاوَرة والحكي، ونصحني بعضهم بأن أعقد صالونًا، أيًّا كان طبيعته. لا عليكم من كل هذا. تابع حديثك يا غُرير، كيف سيُساعدنا ذلك النفق الذي تحدَّثتَ عنه؟»

أكمل الغُرير: «نما إلى علمي مؤخرًا شيءٌ أو شيئان. كلفتُ ثعلب الماء أن يتنكر في زي منظِّف للمداخن ثم يذهب إلى الباب الخلفي للقصر وفرش التنظيف على كتفه سائلًا عن عمل. ستكون هناك مأدبة كبيرة ليلة غد، احتفالًا بيوم مولد أحدٍ ما؛ أظنه زعيم فتوات ابن عرس — وسيكون كل الفتوات مجتمعين في قاعة الولائم، يأكلون ويشربون ويضحكون ببالٍ مرتاح ولا تساورهم أي شكوك، ولا يحملون أي أسلحة من أي نوع معهم؛ لا بنادق ولا سيوف ولا عصي!»

علق الفأر على كلامه وقال: «لكن الحراس لن يُغادِروا أماكنهم كما اعتادوا!»

رد الغُرير وقال: «هذا صحيح، وهذا ما أرمي إليه؛ ففتوات ابن عرس سيضعون ثقتهم الكاملة في الحراس اليقظين والمدرَّبين. وهنا تأتي فائدة النفق. فهذا النفق النافع يمتد حتى يصل إلى أسفل حجرة المئونة بجانب قاعة الولائم!»

قال العُلجوم: «آها! ذلك اللوح الخشبي الذي يُصدر صريرًا في حجرة المئونة! الآن فهمت!»

صاح الخُلد: «علينا إذن أن نتسلَّل خفية إلى داخل حجرة المئونة ...»

علا صوت الفأر في حماس: «... مسلَّحين بالمسدسات والسيوف والعصي ...»

قال الغُرير: «... ثم نهجم عليهم.»

صرَخ العُلجوم في نشوة وهو يدور ويدور في الغرفة ويقفز فوق مقاعدها: «... ونُوسعهم ضربًا! ونوسعهم ضربًا! ونوسعهم ضربًا!»

قال الغُرير وقد استعاد أسلوبه الجاف المعتاد في الحديث: «حسنًا إذن! ها هي خطتنا قد اكتملت ووضحت معالمها، ولا يتبقَّى شيء للنقاش فيه أو الشجار حوله. فليذهبْ كلٌّ منكم إلى مضجعه حالًا؛ فالوقت قد تأخَّر جدًّا. وسنتدبَّر كل الترتيبات الضرورية في صباح الغد.»

استجاب بالطبع العُلجوم وانصرف مطيعًا إلى النوم مع الآخرين — إذ لم يكن من الغباء بحيث يرفض أمر الغُرير — رغم أنه كان يشعر بإثارة شديدة تجعله لا يتوق للنوم، لكن يومه كان طويلًا مكتظًّا بالأحداث والوقائع، ومفارش السرير وألحفته كانت لطيفة ومشجعة ومريحة جدًّا بعد أن كان ينام على قشٍّ منثور بكمية غير كافية على بلاط حجري لزنزانة تكثر فيها تيارات الهواء. لم تلبث رأسه أن استراحت على وسادته لثوانٍ معدودة إلا وغطَّ سعيدًا في نوم عميق. بطبيعة الحال، كان نومه مليئًا بالأحلام. حلم بالطرق وهي تفر منه حين كان في أمسِّ الحاجة إليها؛ وبالقنوات المائية وهي تُطارده وتقبض عليه، وبزورق شق طريقه مبحرًا إلى داخل قاعة الولائم وهو يحمل غسيل الأسبوع في الوقت الذي كان يُقيم فيه مأدبة عشاء. ثم راوده حلم بأنه كان وحيدًا داخل النفق السري وهو يسير فيه إلى الأمام، لكن النفق التف وانبعج ثم تشابك وارتج حتى وجد العُلجوم نفسه في نهايته، ثم وجد نفسه بطريقة ما في النهاية داخل قصر العُلجوم آمنًا منتصرًا وجميع أصدقائه يلتفون حوله ويؤكدون بصدق أنه كان حيوانًا بارعًا.

نام حتى ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي، وعندما هبط نازلًا، وجد الحيوانات الأخرى قد انتهت من فطورها منذ مدة. كان الخُلد قد انسلَّ إلى الخارج ذاهبًا إلى مكانٍ

ما بمفرده دون أن يُخبِر أي أحد بوجهته. وكان الغُرير جالسًا في مقعد ذي مسندَين يقرأ الصحيفة ولا يبدو عليه القلق مطلقًا حول ما سيجري من أحداث في هذه الليلة. أما الفأر، فعلى النقيض، فكان يَذرع الغرفة جيئة وذهابًا بهمة ونشاط ويداه تحملان الأسلحة من كل نوع، والتي كان يقسمها على الأرض إلى أربعة أكوام وهو يهمس بحماسٍ بينما يوزع الأسلحة: «ها هو سيف للفأر؛ وسيف للخلد؛ وسيف للعُلجوم؛ وسيف للغُرير! ها هو مسدَّس للفأر؛ ومسدس للخلد؛ ومسدس للعُلجوم؛ ومسدس للغُرير!» ثم استمر على هذا الوضع في إيقاع منتظم، بينما أخذت تلك الأكوام الأربعة تكبر شيئًا فشيئًا.

قال الغُرير وهو ينظر من فوق طرف صحيفتِه إلى ذاك الحيوان الصغير المنهمك: «عمل رائع جدًّا يا فأر. أنا لا ألومك على شيء؛ لكني أؤكد لك أننا لن نحتاج إلى المسدَّسات أو السيوف إن اجتزنا خط حيوانات القاقم هؤلاء وبنادقهم الملعونة. فنحن الأربعة عندما ندخل قاعة الولائم ويحمل كلٌّ منا عصًا سنُطهِّر الأرض منهم في غضون خمس دقائق. كنت لأقوم بتلك المهمَّة وحدي، لولا أني لم أرد حرمانكم يا رفاقي من أن تحظَوا ببعض المرح!»

قال الفأر متفكرًا وهو يُلمِّع ماسورة مسدس بكم قميصِه ثم ينظر إليها متمعنًا: «لا بأس بأخذ الحذر والاحتياط!»

عندما أنهى العُلجوم فطوره، حمل عصًا غليظة بيدَيه وأخذ يُلوح بها بقوة كأنما يهاجم حيوانات من وحي خياله، ثم صاح: «سأُريهم درسًا في عاقبة الاستيلاء على بيتي! سأريهم درسًا، سأريهم درسًا!»

قال الفأر في صدمةٍ كبيرة: «لا تقلْ «سأُريهم درسًا» يا عُلجوم، فهذا ليس فصيحًا!»

تساءل الغُرير بنبرة غلبت عليها الحدة: «لماذا تَنتقد العُلجوم دائمًا؟ ما خطب لغته وفصاحته؟ هذه هي اللغة التي أتحدَّث بها أنا، وما دمت أستحسنها، فيجب أن تَستحسنها أنت أيضًا!»

رد الفأر بتواضع: «أنا آسف جدًّا. كنت أظن أن الصحيح هو «سأُلقِّنهم درسًا» لا «سأريهم درسًا»!»

رد الغُرير: «ولكننا لا نريد أن نلقنهم درسًا! نُريد أن نريهم الدرس! سنريهم الدرس، سنُريهم الدرس! بل سنريهم إياه عمليًّا أيضًا!»

قال الفأر: «أوه، حسن! قلها بأي طريقة أحببت.» كان الأمر قد اختلط عليه وتشوَّش ذهنه، فانزوى إلى ركن من الأركان حيث سُمع وهو يُتمتم: «سأريهم، سألقنهم، سألقنهم، سأريهم!» إلى أن طلب منه الغُرير أن يكف عما يتفوَّه به.

في ذلك الوقت، هرول الخُلد مندفعًا إلى الغرفة، وكان جليًّا أنه فخور بنفسه وراضٍ عنها، ثم استهل الحديث من فوره وقال: «لقد كنت أحظى بمرح جم! لقد جعلت حيوانات القاقم تَستشيط غضبًا!»

قال الفأر بقلق: «أرجو أنك كنت حريصًا جدًّا ولم تتهوَّر يا خُلد!»

قال الخُلد بثقة: «أنا أيضًا أرجو ذلك! خطرت الفكرة ببالي عندما دخلت إلى المطبخ لأرى إن كان فطور العُلجوم قد حُفظ بحيث يبقى ساخنًا حين يتناوله. فوجدت الثياب، التي أتى فيها العُلجوم إلى البيت البارحة والتي تعود لتلك المرأة العجوز التي تعمل في غسل الملابس، معلَّقة على حاملة مناشف أمام النار. فارتديتها واعتمرت القلنسوة أيضًا ولففت الشال حول عنقي ثم انطلقت إلى قصر العُلجوم في جرأة شديدة. كان الحراس بالطبع يطوِّقون المكان ويحرسونه ويحملون بنادقهم وجملتهم المعهودة «من القادم هناك؟» وبقية هذه الأمور التافهة. قلت لهم بأدب جم: «صباح الخير أيها السادة! هل لديكم أي ملابس متَّسخة ترغبون في غسلها اليوم؟» فنظروا إليَّ بتكبُّرٍ وقسوةٍ وغطرسةٍ ثم قالوا: «اغربي عن هنا يا غسالة الملابس! نحن لا نَغسل ملابسنا أثناء الخدمة.» فقلت: «ولا في أي وقت آخر!» ها ها ها! ألم يكن ذلك مضحكًا، يا عُلجوم؟»

قال العُلجوم بتعالٍ صارخ: «يا لك من حيوان تافه وبائس!» في الحقيقة، كان العُلجوم قد شعر بغيرة شديدة من الخُلد لما فعلَه لتوِّه. فقد كان سيرغب في خوض هذا الموقف بنفسه، لو كان قد فكَّر فيه أولًا، بدل أن يغط في النوم ويستغرق فيه طويلًا!

أكمل الخُلد: «ارتبك بعض حيوانات القاقم هؤلاء ارتباكًا واضحًا، وقال الرقيب الذي كان يرأسهم باقتضاب: «ارحلي الآن، أيتها المرأة الطيبة، ارحلي! ولا تُعطلي جنودي عن عملهم وتجعليهم يُثرثرون أثناء خدمتهم!» فقلت: «أرحل؟ لست أنا من سيرحل في وقت قريب جدًّا».»

قال الفأر في حيرة وذعر: «كيف سمحت لنفسك بأن تفعل هذا، يا خلدود؟»

خفض الغُرير صحيفته.

أكمل الخُلد قائلًا: «فرأيت آذانهم وقد انتصبَت وأخذوا ينظرون بعضهم إلى بعض، فقال لهم الرقيب: «لا تُولوها أي اهتمام؛ فهي لا تعرف ما الذي تتحدث عنه».»

فقلت له: «حقًّا؟ أتظنُّني لا أعرف؟ إذن دعني أخبرك بهذا. ابنتي تغسل ثياب السيد غُرير، وهذا سيُخبرك هل أنا حقًّا أعرف ما الذي أتحدث عنه أم لا! وستعرف الحقيقة في القريب العاجل! هذه الليلة، سيُهاجم قصر العُلجوم من جهة إسطبل الخيل مائة من

حيوانات الغُرير المتعطِّشين للدماء والمدجَّجين بالبنادق. أما في الحديقة، فستُنزل ستة قوارب آتية عبر النهر جيشًا من الفئران جميعهم يحملون المسدسات والقطالس، بينما ستقتحم فرقة منتقاة من العلاجيم تدعى «البواسل» أو «الموت أو المجد»، البستان ليَدهسوا أي شيء أمامهم طالبين الثأر والانتقام. بعدها، بعد أن تفرغ منكم هذه الجيوش، لن يكون هناك الكثير منكم على قيد الحياة ليغسلوا ملابسهم، إلا أن تُخلوا المكان وتهربوا بينما الفرصة سانحة أمامكم!» ثم ركضتُ هاربًا، وعندما تواريت عن الأنظار، اختبأت ثم عدت متسلِّلًا عبر قناة تصريف المياه واسترقت النظر عبر السياج لأرى ما يفعلون. كانوا جميعًا في أشد الارتباك والقلق والانفعال، يركضون في شتى الاتجاهات في الوقت ذاته ويتساقطون بعضهم فوق بعض وجميعهم يُعطي الأوامر للجميع ولا يستمع أي أحد للآخر. أما الرقيب فأخذ يرسل فرق حيوانات القاقم إلى أجزاء بعيدة من الأرض، ثم يرسل فرقًا أخرى في إثرهم ليُعيدوهم مرة أخرى. ثم سمعتهم وهم يُحدِّثون بعضهم بعضًا: «تلك هي طبيعة فتوات ابن عرس؛ يجلسون في راحة وهناء داخل قاعة الولائم، يَحتفلون ويأكلون ويُغنُّون ويستمتعون بكل ألوان المرح والمتعة، بينما نحن مأمورون بأن نحرس المكان في البرد والظلمة. وفي نهاية المطاف نُمزَّق إلى أشلاء على يد حيوانات الغُرير المتعطشة لدمائنا!»

صرخ العُلجوم وقال: «يا لك من أبله عديم الفائدة يا خلد! لقد أفسدت كل شيء!»

قال الغُرير بنبرته الجافة والهادئة: «يا خلد، أرى أنك تَمتلك رغم صغر حجم جسمك عقلًا أذكى كثيرًا مما لدى حيوانات أخرى ممن لديها أجسام كبيرة. لقد أحسنتَ صنعًا، وبدأتُ أتطلَّع إليك بآمال كبيرة. ما أحسن صنيعك يا خلد! وما أبرعك!»

امتلأ قلب العُلجوم غيرة، وخاصة أنه لم يستطع على الإطلاق إدراك ما الذي يُعدُّ براعة وذكاءً فيما فعله الخُلد، ولكن من حسن حظه أن جاء وقت الغداء، قبل أن ينفجر أو يُفصح عن مشاعره أمام الغُرير فيتعرض للانتقاد من جانبه.

كانت وجبة الغداء بسيطة لكنها مشبعة؛ لحم خنزير مقدَّد وفول أخضر مع مكرونة بالبشاميل. وعندما انتهوا من طعامهم، اضطجع الغُرير على مقعد ذي مسندَين ثم قال: «حسن، أمامنا عمل شاق الليلة، ومن المرجَّح أننا سنُنهيه في وقت متأخِّر من الليل؛ لذلك سأحظى بقيلولة قصيرة بينما الفرصة سانحة.» ثم سحب منديلًا على وجهه وسرعان ما غطَّ في النوم.

انهمك الفأر المتشوق والمُجدُّ في تحضيراته مرة أخرى على الفور، وأخذ يقفز بين أكوامه الأربعة وهو يُتمتِم: «ها هو حزام للفأر؛ وحزام للخلد؛ وحزام للعُلجوم؛ وحزام للغُرير!» واستمر على هذا المنوال مع كل التجهيزات التي بحوزته، والتي بدَتْ أنها لا نهاية لها. أمسك الخُلد بيد العُلجوم وقاده إلى الخارج في الهواء الطلق وأجلسه على كرسي من الخوص وطلَب منه أن يخبرَه بجميع مغامراته من البداية حتى النهاية، وهذا أمر كان العُلجوم على استعداد تام لفعله. كان الخُلد مستمعًا جيدًا، وانطلق العُلجوم يعبر عن نفسه كيفما شاء دون أحد يراجع جمله أو ينتقده انتقادًا حادًّا. في واقع الأمر، كان معظم ما قصَّه على الخُلد من أحداث يُصنف تحت باب «ما كان سيحدث لو أني فكرت في الأمر في الوقت المناسب، وليس بعد ذلك بعشر دقائق.» بلا شك، تعدُّ هذه المغامرات هي دائمًا أفضل المغامرات وأكثرها حيوية! ولكن لم لا تكون هذه المغامرات هي الحقيقة، بدل تلك الأشياء غير الملائمة التي تحدث في أرض الواقع؟

الفصل الثاني عشر

عودة يوليسيس

عندما بدأ الليل يحل، دعاهم الفأر إلى الصالة في جوٍّ من الإثارة والغموض. أوقف كل واحد منهم بجانب كومته الصغيرة، ثم بدأ في إلباسهم ما بها من ثيابٍ وعتادٍ استعدادًا لمهمتهم القادمة. كان الفأر جادًّا يتحرَّى الدقة في ارتداء كل قطعةٍ من القطع؛ لذلك استغرق الأمر وقتًا طويلًا. أولًا، كان يوجد حزام يلفه كل حيوان حول خصره، ثم سيف يعلق في جانب كل حزام، ثم قطلسًا على الجانب الآخر ليتوازن الحمل. ثم يأتي زوج من المسدَّسات وهِرَاوة من هِراوت رجال الشرطة وعدد من الأصفاد وبعض الأربطة والضمادات اللاصقة؛ ثم قِرْبة ماء وصندوق طعام. ضحك الغُرير بمرح ثم قال: «ممتاز يا فأرون! هذه التجهيزات تُسعدك ولا تضر بي في الوقت نفسه! لكني سأذهب إلى هناك وسلاحي الوحيد هو هذه العصا.» لكن الفأر قال فقط تعقيبًا على ذلك: «من فضلك يا غُرير! أنت تعرف أني لن أتقبَّل أن تلومني فيما بعد وتقول إني قد نسيتُ شيئًا ما!»

عندما استعدوا جميعًا وتأهبوا، أمسك الغُرير بمصباح مُنطفئ بإحدى كفيه، ثم قبض على عصاه الغليظة بالكف الأخرى وقال: «والآن، اتبعوني! ليكن الخُلد في المقدمة لأني راضٍ عنه وسعيد بفعاله؛ ثم يتبعه الفأر، ثم العُلجوم في المؤخرة. وحذار يا علجم أن تُطلق فمك بالثرثرة كالعادة، وإلا فسأرسلك عائدًا إلى البيت، ولست في ذلك بمازح!»

كان العُلجوم يخاف أن يُخلَّف في المنزل؛ لذلك رضي بهذا المركز المهين الذي وضع فيه دون أن يتفوَّه بكلمة. انطلقت الحيوانات وقادهم الغُرير بطول ضفة النهر لمسافة قصيرة، ثم انعطف فجأة وقفز من فوق الحافة إلى شق في ضفة النهر فوق مستوى المياه بقليل. تبعه الخُلد والفأر في صمت، فقفزوا داخل الشق بنجاح كما شاهدوا الغُرير يفعل، ولكن عندما حان دور العُلجوم، انزلق كما هو متوقع وسقط في المياه، مخلفًا صوت

ارتطام عاليًا بالماء وصرخة رعب مدوية. سحبه أصدقاؤه من المياه، وجفَّفوه ودلكوه بسرعة، وهدَّءوا من رَوعِه وأوقفوه على قدميه مجددًا. لكن الغُرير كان قد امتلأ غيظًا وقال له إنه سيُرسله إلى البيت بلا نقاش إذا ما ارتكب إحدى حماقاته هذه مرة أخرى.

وهكذا، دخلوا إلى النفق السري أخيرًا لتبدأ من هناك حملتهم لطرد المحتلين من القصر!

كان ممر النفق مظلمًا ورطبًا وضيقًا وذا ارتفاع منخفِض، فبدأ جسد العُلجوم المسكين يَرتجف، لخوفه مما قد يقابله أمامه من جانب، ولأن ملابسه كانت ما تزال مبتلَّة بالماء من جانب آخر. كان ضوء المصباح أمامه بعيدًا جدًّا، ولم يستطع في هذه الظلمة إلا أن يتأخَّر قليلًا عن رفاقه، ثم سمع صوت الفأر ينادي عليه محذرًا: «تعجَّل يا عُلجوم!» فانتابه الذعر وخاف أن يُخلَّف وحيدًا في هذا الظلام الحالك، فأسرع في مشيه حتى إنه اصطدم بالفأر، الذي اصطدم بدوره بالخُلد الذي دفع الغُرير بدوره، فارتبكوا جميعًا لبضع دقائق. ظن الغُرير أنهم يُهاجَمون من الخلف، وحيث لا مجال داخل ذاك النفق الضيق لاستعمال العصا أو القطلس، سحب مسدسه وكاد أن يطلق النار باتجاه العُلجوم. وعندما اكتشف ما حدث في الحقيقة، استشاط غضبًا وقال: «هذا فراق بيننا وبين ذاك العُلجوم المُزعِج! فهو لن يكمل معنا الرحلة!»

بدأ العُلجوم بالانتحاب، فوعد الحيوانان الآخران الغُرير بأنهما سيصيران مسئولَين عن تصرُّفاته من الآن فصاعدًا؛ فهدأ الغُرير واستكملوا مسيرتهم. إلا أن الفأر هذه المرة مشى في مؤخرة الموكب، محكمًا قبضته على كتف العُلجوم.

أخذوا يتلمَّسون طريقهم ويجرون أقدامهم بحذر، وآذانهم منتصبة تتسمَّع أخفت الأصوات وأكفُّهم على زناد مسدَّساتهم في استعداد، حتى قال الغُرير: «نحن الآن على مقربة من أن نصل إلى أسفل القصر.»

ثم سمعوا فجأةً صوتًا بعيدًا عنهم لكنه ينبعث من فوق رءوسهم تقريبًا. كان صوت همهمات فوضوية، كأنها أصوات حيوانات تَصيح وتُهلِّل وتضرب الأرض بأقدامِها وتقرع الموائد بأيديها. توترت أعصاب العُلجوم وانتابه الذعر مرة أخرى، لكن الغُرير علق بصوت هادئ: «إنهم فتوات ابن عرس وقد بدءوا الاحتفال!»

بدأ النفق يرتفع شيئًا فشيئًا، فتحسَّسوا طريقهم للأمام مسافة قصيرة وفجأة صدحت الضوضاء مرة أخرى من فوقهم مباشرة، ولكن بصوت أعلى وأوضح. تنامى إلى

سمعهم صوت صياح يقول: «مرحى! مرحى! مرحى!» ثم صوت دبيب أقدام صغيرة على الأرض، وصوت الكئوس وهي تهتز من ضرب كفوف صغيرة على الطاولة. قال الغُرير: «إنهم يقضون أوقاتًا سعيدة! لنتابع التقدم!» فأسرعوا يقطعون ما تبقَّى من النفق حتى وصلوا إلى نهايته ليَجدوا أنفسهم يقفون تحت باب سحري مخبَّأ يقود إلى وسط حجرة المئونة.

كانت الضوضاء الصادرة من قاعة الولائم عالية جدًّا حتى إنهم كانوا بمأمن من أن تسمع أصواتهم. قال الغُرير: «الآن يا شباب! كلنا في آنٍ واحد!» فوضع الأربعة أكتافهم معًا ودفعوا الباب السحري دفعة واحدة فرفعوه لأعلى. ساعد بعضُهم بعضًا في الصعود، فوجدوا أنفسهم يقفون في حجرة المئونة يفصلهم باب واحد عن قاعة الولائم حيث يحتفل أعداؤهم الغافلون ويُعربدون.

كانت الضوضاء تصمُّ الآذان بعدما خرجوا من النفق، ولكن بعد برهة خفت صوت التهليل والهتاف والطرق تدريجيًّا شيئًا فشيئًا، وبرز صوت يمكن سماعه يقول: «حسنًا، لن أطيل عليكم في حديثي هذا ...» فعلَتْ أصوات التصفيق علوًّا شديدًا، ثم أضاف الصوت: «ولكن قبل أن أجلس في مقعدي لنستأنِف الحفل ...» فتجدَّدت أصوات الهتاف والتهليل، ثم أكمل الصوت: «أحب أن أذكر مضيفَنا الكريم والمعطاء؛ السيد عُلجوم. بلا شك، جميعكم تعرفون العُلجوم!» فانفجر الجميع في الضحك. فأضاف الصوت: «إنه العُلجوم الطيب والمتواضع؛ العُلجوم الأمين!» فدوت القاعة بأصوات الضحك وصرخات الاستمتاع.

اصطكت أسنان العُلجوم بعضها ببعض من شدة الغضب، فغمغم قائلًا: «ذروني أُمسك بعنقه!»

قال الغُرير وهو يكبح جماحه بمشقة: «تمالك أعصابك دقيقة أخرى! ليَستعد الجميع!»

ثم راح الصوت يُكمل: «... دعوني أنشد لكم أغنية قصيرة ألفتها بنفسي عن العُلجوم.» فعلَت أصوات الترحيب والتصفيق.

ثم بدأ زعيم فتوات ابن عرس — إذ فمَن يكون غيره — بالإنشاد بصوت حاد جهور ومُزعج قائلًا:

عُلجوم خرج يَنشُد المتع
يقطع الطرق سعيدًا ...

اعتدل الغُرير وانتصب وأحكم كلتا قبضتيه حول عصاه، ثم نظر إلى رفاقه وصاح فيهم قائلًا:

«حان الوقت! اتبعوني!»

ثم دفع الباب ليُفتح على مصراعيه.

رحماكَ يا أللهُ!

كم مُلئ الهواء بأصوات الصراخ والعواء والصياح والعويل!

تخيَّل معي كيف انتفضت فتوات ابن عرس، فاختبأ بعضُهم تحت الطاولات، واندفع البقية بجنون تجاه النوافذ! تخيَّل معي كيف اندفعت حيوانات ابن مِقْرَض مذعورة إلى المدفأة ليَفروا بأنفسهم فحشروا جميعًا في المدخنة فلم يخرج منهم أحد! تخيَّل معي كيف قلبت الطاولات والمقاعد رأسًا على عقب، وتناثر حطام الكئوس والأواني الصينية على الأرض، في تلك اللحظة التي اقتحم فيها أبطالنا الأربعة المكان وشرر الغضب يَتطاير من أعينهم، فامتلأت القاعة هلعًا وذُعرًا! كان صوت العَصا الغليظة بيد الغُرير القوي الذي انتصب شعر شاربه يطنُّ وهو يخترق طبقات الهواء؛ بينما كان الخُلد، بلونه القاتم ووجهه الشرس، يُلوِّح بعصاه ويصيح بصيحة المعارك البشعة خاصته: «خوووولدود! خوووولدود!» أما الفأر فقد كان باسلًا مستميتًا في القتال وحزامه مدجج بتشكيلة من الأسلحة من كل نوع وعصر. والعُلجوم قد جن من فرط الإثارة واهتاج من أثر كبريائه المحطَّمة، فانتفخ حتى تضاعف حجمه، فأخذ يقفز في الهواء وهو يُصدر نقيق الضفادع الذي اقشعرَّت منه أجسادهم حتى النخاع، ثم صاح وقال: «عُلجوم خرج يَنشد المتع! سأريهم كيف هي المتعة الحقيقة!» ثم أسرع باتجاه زعيم فتوات ابن عرس. كانوا أربعة حيوانات عددًا، ولكنهم كانوا في أعين حيوانات ابن عرس المذعورة كأن القاعة امتلأت بجيش من الحيوانات الضخمة الرهيبة؛ حيوانات رمادية وسوداء وبنية وصفراء، جميعهم يُلوحون ويضربون بعصيٍّ غليظة، ففروا في كل مكان وهم يصيحون رعبًا وفزعًا؛ خرجوا من النوافذ وتسلَّقوا المدخنة، ولم يتركوا مهربًا إلا وتوجهوا إليه لينفذوا بجلودهم من ضرب تلك العصي المبرح.

سرعان ما انتهت المعركة في غضون خمس دقائق؛ فقد جاب الأصدقاء الأربعة القاعة طولًا وعرضًا وهم يقطفون بعصيِّهم كل رأس بارزة حتى طهروها. وكان صياح فتوات ابن عرس التي تفرُّ عبر الباحة، يصل إلى مسامعهم عبر النوافذ المحطمة ولكن ما لبث أن بدأ يخفتُ شيئًا فشيئًا، أما على الأرض فقد كانت عشرات من أجساد الأعداء ممدَّدة وقد

خارت قواها، وكان الخُلد منهمكًا في تصفيد أياديهم. هدأ الغُرير واستراح مستندًا على عصاه ومسح عرق جبينه بعد قتال شاق ومرهق.

ثم قال: «يا خُلد! أنت أمهر رجالي وأفضلهم! اذهب إلى الخارج وابحث عن الحراس من حيوانات القاقم ثم انظر ماذا يفعلون. فأنا أظن أنهم لن يُزعجونا الليلة أبدًا، والفضل لك في هذا!»

اختفى الخُلد سريعًا عبر نافذة، وأمر الغُرير الحيوانين الآخرين بأن يُقيما إحدى الطاولات على أرجلها مرة أخرى وأن يلتقطا بعض الملاعق وشوكات الطعام والأطباق والكئوس من ذلك الحطام على الأرض، ثم يبحثا عن أي شيء يصلح لطعام العشاء. ثم قال بنبرته المعتادة في الحديث: «أنا أتضور جوعًا وأريد أن آكل! هيا يا عُلجوم! أرني همتك وابحث بنشاط وحيوية عن طعام! ها نحن قد استعدْنا لك منزلك، ولا نجد منك أي عرفان بصنيعنا هذا، ولا حتى برغيف من الخبز!»

شعر العُلجوم بالإساءة أن الغُرير لم يُطْرِه كما أطرى الخُلدَ وأثنى عليه بأنه أمهر الرجال وأفضلهم وكيف حارب ببسالة وشجاعة؛ فقد كان العُلجوم فخورًا بصنيعه وكيف ذهب إلى زعيم الفتوات وأرسله بضربة واحدة من عصاه طائرًا فوق الطاولات؛ لكنه أخذ يفتش فيما حوله من الحطام، وهكذا فعل الفأر. لم يمر وقت طويل حتى عثرا على طبق زجاجي به بعض الجبلي المصنوع من الجوافة ودجاجة باردة، ولسان حيواني لم تمسه سكين، وبعض الحلوى؛ والكثير من سلطة الكركند. ثم وجَدا داخل حجرة المئونة سلة مملوءة بالخبز الفرنسي وكمية من الجبن والزُّبد والكرفس. كانوا على وشك أن يجلسوا إلى المائدة، عندما ظهر الخُلد وهو يتسلَّق طريقه عبر النافذة وهو يحمل كومة من البنادق بين يدَيه ويضحك ضحكًا مكتومًا.

«لقد انتهى الأمر يا رفاق!» هكذا بدأ يُعطي لهم تقريرًا بما وجده. «أستطيع إخباركم مما استطعت أن ألاحظه، أنه عندما سمعت حيوانات القاقم صوت الصراخ والعويل والجلبة داخل القاعة، وقد كانوا هم أصلًا مهتاجين يملؤهم القلق وتُساورهم الشكوك؛ ألقى بعضهم البنادق على الأرض وفروا هاربين. أما بقيتُهم فقد ثبتوا راسخين في أماكنهم حينًا، ولكن عندما تدفقت حيوانات ابن عرس باتجاههم ظنوا أن خيانة قد حدثَت، فاشتبكت حيوانات القاقم مع حيوانات ابن عرس. كانت فتوات ابن عرس تُصارع للفرار من القصر، فضرب بعضهم بعضًا وتناجَزُوا وتواثبوا ثم ترنَّحوا وتدحرجوا حتى سقط معظمهم في مجرى النهر! أما الآن فقد اختفوا جميعًا بطريقة ما، فجمعت بنادقهم؛ لذلك كل شيء على خير ما يرام!»

قال الغُرير ولحم الدجاج والحلوى يملآن فمه: «حيوان رائع وذو عقل رشيد! والآن، أريدك أن أُكلِّفَك بمهمة أخيرة يا خُلد قبل أن تجلس إلى المائدة لتناول عشائك معنا. وما كنتُ لأُثقل عليك إلا لأنني أثق فيك لإتمام المهام. ويا ليتني أستطيع أن أضع مثل هذه الثقة في أي حيوان أعرفه. كنت لأرسل الفأر لو لم يكن شاعرًا. أريدك أن تأخذ هؤلاء الحيوانات المُمدة على الأرض معك إلى الطابق العلوي، وتجعلهم ينظفون بعض غرف النوم تنظيفًا شاملًا ثم يُرتِّبونها حتى تصير ملاذًا مُريحًا لمن يرتادها. اجعلهم يكنسون تحت الأسرَّة؛ ويستبدلون بأغطيتها ومفارشها المتسخة أخرى نظيفة، ويَثنون أطراف مفارش السرير كما تعلم كيف يجب أن تكون. ثم اجعلهم يضعون في كل غرفة وعاءً من الماء الساخن وبعض المناشف النظيفة وقوالب الصابون الجديدة. وعندما ينتهون، اضربهم إن أحببت، ثم أخرجهم من الباب الخلفي للقصر، وأظن أننا لن نرى أيًّا من وجوههم التعسة مرة أخرى. ثم عد إلى هنا واستمتع ببعض من هذا اللسان البارد؛ فمذاقه رائع. أنا عنك راضٍ تمامًا يا خُلد!»

أمسك الخُلد الطيب بعصًا ثم صف الأسرى في صفٍّ واحد على الأرض وألقى عليهم التعليمات وأعطاهم الأوامر ثم قال: «بخطوة سريعة! تحَّركوا!» وتقدم فرقته وقادهم إلى الطابق العلوي. بعد مدة ظهر مجددًا وهو يبتسم ويقول إن كل الغرف قد نُظفت وصارت تلمع كنصل سيف جديد، ثم أضاف: «ولم أضطرَّ إلى ضربهم! فكنت أرى في المجمل أن أجسادهم قد أُبرحت ضربًا بما يكفي لليلة واحدة، وقد وافقتْني حيوانات ابن عرس عندما تداولتُ الأمر معهم، وقالوا إنهم لن يُزعجوني ولن يُفكروا في ذلك أبدًا. كانوا نادمين أشد الندم، وقالوا إنهم يشعرون بالأسف الشديد على ما اقترفته أياديهم، وإن كل ما حدث هو ذنب زعيم الفتوات وحيوانات القاقم. وأضافوا أنهم إن كان بإمكانهم في أي وقت أن يُسْدوا لنا أي خدمة تعويضًا عما بدر منهم، فما علينا إلا أن نُخبرَهم بذلك. وهكذا أعطيت كل واحد منهم رغيف خبز وأطلقتُ سراحهم عند الباب الخلفي، فانطلقوا يركضون بأقصى ما يستطيعون!»

سحب الخُلد مقعدَه وقرَّبه من المائدة وبدأ يلتهم اللسان البارد، أما العُلجوم فقد نحى غيرته من الخُلد جانبًا كسيد مهذب ثم قال بمودة: «أشكرك من صميم قلبي يا عزيزي الخُلد على كل ما قاسيته الليلة من مشاقَّ وأتعاب، وأخصُّ ما أظهرته هذا الصباح من فطنة وذكاء!» أعجَبَ صنيع العُلجوم هذا الغُرير فقال: «ها هو العُلجوم الشجاع قد تكلَّم!» وهكذا أنهَوْا عشاءهم في فرحة عارمة ورضًا واطمئنان، ثم خلدوا إلى

الراحة في أحضان ملاءات السرير النظيفة، آمنين في بيت العُلجوم الذي ورثه أبًا عن جد بعد أن استعادوه ببسالة لا نظير لها وتخطيط ماهر ومهارة عالية في الضرب بالعصي.

في الصباح التالي، استيقظ العُلجوم متأخرًا من النوم كعادته، وحضر إلى طعام الفطور متأخرًا جدًّا ليجد على المائدة كمية من قشر البيض وكسرات من خبز محمَّص بارد وخشن وإبريق قهوة شُرب ثلاثة أرباعه وبعض الفتات والبقايا التي لا تُسمِن ولا تغني من جوع، مما لم يُساهم في تحسين مزاجه؛ مع الوضع في الاعتبار أن هذا هو منزله في نهاية المطاف. كان يرى، عبر نوافذ غرفة الفطور الفرنسية الطراز، الخُلد والفأر يجلسان على كرسيين من الخوص في باحة المنزل، وقد بدا عليهما أنهما يقصان القصص والحكايات كلٌّ منهما على الآخر ويَضحكان حتى القهقهة وأرجلهما ترفس الهواء من فرط السرور. أما الغُرير فقد كان يجلس على مقعد ذي مسندَين غارقًا في قراءة صحيفته الصباحية، ولم يزد عن نظرة للعُلجوم وإيماءة له عندما دخل الغرفة. كان العُلجوم قد اعتاد طباع الغُرير؛ لذلك جلس إلى المائدة وأخذ يجمع من بين الفتات والبقايا أفضل فطور ممكن وهو يُتمتم بينه وبين نفسه مسرِّيًا عنها أنه سيسدُّ جوعه بوجبة شهية عما قريب. وعندما أوشك أن ينتهي من طعامه، نظر إليه الغُرير وعلَّق باقتضاب: «أرجو المعذرة يا عُلجوم، ولكن ينتظرك عمل شاق هذا الصباح. فأنت تعلم أن علينا أن نُقيم مأدبة في الحال احتفالًا بعودة القصر. هذا عمل متوقَّع منك؛ ولأصدقك القول، هذا هو العرف.»

رد العُلجوم: «بكل تأكيد! سأفعل أي شيء يُرضيك! ولكن أخبرني بالله عليك، لم قد ترغب بإقامة مأدبة في الصباح؟ لستُ أفهم دوافعك! ولكن، أتعلم يا عزيزي الغُرير، أنا لا أعيش في هذه الحياة لأحظى بالمتعة وحدي، ولكن لأرى ما الذي سيُدخل السرور على قلوب أصدقائي وأبذل قصارى جهدي لأحققه لهم!»

رد الغُرير ساخرًا وقال: «لا تتغابَ؛ فحظُّك من الغباء وافر! ولا تحتسِ قهوتك وأنت تُصدِر هذه البقبقات وتلك الأصوات؛ فهذا سلوك سيئ. ما عنيتُه من كلامي هو أن المأدبة ستُقام ليلًا بالتأكيد، لكن الدعوات يجب أن تكتب ثم تُرسل في أسرع وقت، وأنت من سيكتبها. اذهب الآن واجلس إلى الطاولة، وستجد عليها رزمة من أوراق الخطابات معنونة بعبارة «قصر العُلجوم» مكتوبة باللونين الأزرق والذهبي. ادعُ جميع أصدقائنا، وإن صببتَ جلَّ تركيزك في عملك هذا، فربما انتهينا منه قبل حلول وقت الغداء. سأمدُّ لك يد العون فلا تقلق، وسأتحمَّل معك بعض المشقة؛ فأنا سأذهب لأنتقي طعام المأدبة.»

صاح العُلجوم في استياء: «ماذا؟ أنا أجلس داخل المنزل في مثل هذا الصباح المشرق لأكتب تلك الدعوات البغيضة التي لا حصر لها، بينما أتوق إلى التجول حول قصري لأُعيد كل شيء لوضعه الصحيح، ثم أتسكَّع مُستمتعًا بحياتي! كلا بكل تأكيد! فكِّر في الأمر لدقيقة وضع نفسك مكاني يا غُريري العزيز! ما الذي سأجنيه مقارنة بما يَحظى به الآخرون من متع! لا عليك، أنت تُريد هذه المهمة أن تنفذ، إذن سأعمل على تنفيذها. هيا! اذهب يا غُرير وانتقِ طعام المأدبة، انتقِ ما تُحب وتشاء، ثم إذا ما انتهيت، انضم لصديقينا الصغيرين في الخارج وشاركهما مرحهما العفوي، وتناسَ أمري وما عليَّ حمله من واجبات وأعباء. اذهب! فأنا سأُضحي بهذا الصباح كقربان للصداقة والواجب الأخلاقي!»

رمقه الغُرير بنظرة متشكِّكة جدًّا، لكن ملامح العُلجوم الصريحة التي تعكس مشاعرَه ولا تُخفيها صعبت من احتمالية وجود أي دوافع تافهة وراء ذلك التغير السلوكي. وبناءً على هذا، غادر الغُرير الغرفة متجهًا إلى المطبخ. وحالَما أغلق الباب خلفه، أسرع العُلجوم إلى طاولة الكتابة، فقد طرأت فكرة رائعة في عقله وهو يتحدَّث إلى الغُرير؛ فهو سيكتب الدعوات وسيحرص على ذكر دوره البطولي في معركة الأمس وكيف طرح زعيم فتوات ابن عرس أرضًا، وسيُلمِّح إلى مغامراته وسلسلة انتصاراته الطويلة التي في جعبته ليحكيَها. كما سيُنوِّه على ظهر الدعوة أنه سيرتب بعض الأنشطة الترفيهية للأمسية؛ لقد تصور شيئًا كهذا في رأسه:

الخطاب الترحيبي: سيُلقيه العُلجوم.

(وستكون هناك خطابات أخرى يلقيها العُلجوم أثناء الأمسية.)

الخطبة: سيُلقيها العُلجوم.

الافتتاحية – السجون والنظام العقابي في بلدنا – قنوات المياه والصرف في إنجلترا القديمة – تجارة الأحصنة وكيف تَشتري أو تبيع حصانًا – الممتلكات الخاصة: حقوق وواجبات – العودة إلى أرض الوطن – يوم في حياة إقطاعي إنجليزي.

الأغنية: سيُنشدها العُلجوم.

(سيُنشِد أغنية ألَّفها بنفسه.)

الأغاني الأخرى: سيُنظمها العُلجوم.

وسيُنشدها المغني بنفسه خلال فقرات الأمسية.

أعجبته الفكرة إلى حد بعيد، فعمل بجد واجتهاد إلى أن أنهى كتابة جميع الدعوات عند الظهيرة. وفي تلك الساعة أُخبِر أن هناك حيوانًا صغيرًا أشعثَ متَّسخ الثياب من

حيوانات ابن عرس يقف عند الباب ويسأل في حياء إن كان السيد يرغب في أي خدمة فيقضيها له. ذهب إليه العُلجوم متبخترًا في مشيته، فوجد أنه أحد الذين أُسروا الليلة الماضية، وكان مهذَّبًا يتلهَّف أن يحوز الرضا. فربَّت على رأسه وألقى بحُزْمة من الدعوات بين كفَّيه، ثم أمره أن يُسلمها إلى المدعوين بأسرع ما يمكن. وقال له إنه إذا أحب أن يعود في المساء، فربما أعطاه شلنًا وربما لا، فبدا الامتنان على ابن عرس المسكين ثم أسرع في لهفة ليُنجز مهمته.

وعندما عادت الحيوانات الأخرى لتناول طعام الغداء، مفعمين بالحياة والنشاط، والسعادةُ تعلو وجوههم، بعد أن قضوا صباحهم على ضفاف النهر، نظر الخُلد الذي كاد أن يقتله وخْز ضميره إلى العُلجوم بارتياب؛ فقد كان يتوقع أن يجده حزينًا محبطًا، ولكن على النقيض، كان العُلجوم معتدًّا بنفسه وقد انتفخ كبرًا وغرورًا لدرجة أن الخُلد بدأ يلحظ شيئًا ما، بينما تبادل الفأر والغُرير نظراتٍ ذات مغزى.

وعندما انتهى طعام الغداء، دفَن العُلجوم كفيه في جيبي سرواله ثم علق دون تكلف: «حسن يا رفاق! استمتعوا بأوقاتكم، ولا تتردَّدوا في طلب أي شيء تشتهونه!» ثم تهادى باتجاه الحديقة حيث أراد أن يتفكَّر في بعض الموضوعات لخطبه القادمة، ولكن الفأر أمسكه من ذراعه حينها.

ارتاب العُلجوم فيما أراده الفأر، فبذل جهده ليتملَّص من قبضته، لكن عندما قبض الغُرير على ذراعه الأخرى بقوة بدأ يرى أن هناك مؤامَرة تحاك ضده. قاده الحيوانان إلى غرفة التدخين الصغيرة التي تُطل على قاعة الاستقبال ثم أغلقا الباب وأجلَساه على أحد المقاعد. وقف الحيوانان أمامه بينما ظل العُلجوم جالسًا في صمت وهو ينظر إليهما وقد تعكَّر مزاجه وساورته الظنون.

قال الفأر: «والآن، اسمعني جيدًا يا عُلجوم! الأمر يتعلَّق بمأدبة الليلة. أنا آسف لأني مُضطرٌّ لأن أحدثك بهذه اللهجة، ولكن نُريدك أن تفهم ما سأقوله فهمًا واضحًا وبلا نقاش. لن تكون هناك أي خطب أو أغانٍ أثناء المأدبة. حاول أن تعيَ حقيقة أننا هذه المرة لا نتناقَشُ معك أو نُجادلُك؛ إننا نُخبرك فقط بما سيحدث!»

وجد العُلجوم نفسه قد حُوصر. لقد فَطِنا إلى ما يسعى إليه، ورأيا ما يختلج قلبه من أفكار وسبقاه وتقدَّما عليه. فأدرك أن حلمه السعيد قد تلاشى.

توسل في خضوع وقال: «هل لي بأن أنشد لهم إحدى الأغاني الصغيرة فقط؟»

رد الفأر بحزم مع أن قلبه كاد أن يَنفطر حزنًا عندما رأى شفة العُلجوم المسكين ترتجف من خيبة الأمل، وقال: «لا! ولا حتى أغنية صغيرة واحدة. الأمر ليس مقبولًا، أنت

تعرف يا علجمي الصغير أن جميع أغانيك تمتلئ فخرًا وغطرسة وتكبُّرًا؛ وخطاباتك كلها تمدح فيها ذاتك و... و... وتعجُّ بالمبالغات الفظيعة و... و...»

ثم أضاف الغُرير بنبرته المعهودة: «وتفيض بالثرثرة!»

أكمل الفأر: «هذا لمصلحتك يا علجم! أنت تدري أنك لا بد أن تبدأ صفحة جديدة في حياتك عاجلًا أم آجلًا كنقطة تحوُّل في مجرى حياتك؛ والآن يبدو وقتًا ملائمًا جدًّا لذلك. أرجو ألا تظنَّ أن قولي هذا لا يؤلمني، بل يؤلمني أكثر مما يُؤلمك.»

ظل العُلجوم غارقًا في التفكير مدة طويلة، ثم رفع رأسه في النهاية وآثارُ انفعالات قوية ظاهرة على تقاسيم وجهه وقال بنبرة كسيرة وحزينة: «هنيئًا لكما انتصاركما يا صديقَيَّ! قطعًا لم يكن ما طلبته منكما إلا معروفًا صغيرًا؛ فسحة أسرِّي بها عن نفسي وأفرِّج عنها ليلة أخرى؛ فسحة ليملأ صوت التصفيق الحار أذنَيَّ، ذاك الصوت الذي دائمًا ما كان بمقدوره، بطريقة ما، أن يُخرج أفضل ما في طبيعتي من صفات وميزات. ولكن على أي حال، أنتما محقان، وأنا أقر بأني على خطأ. ومن الآن فصاعدًا، سأكون عُلجومًا مختلفًا تمامًا. أعاهدكما يا صديقيَّ أني لن أضع نفسي في موقف تخجلان فيه من معرفتي! لكن يا ويلي! يا ويلي! كم هو قاسٍ هذا العالم!»

ثم ضغط بمنديله على وجهه وغادر الغرفة بخطوات متثاقِلة مُتداعية.

قال الفأر: «ما لي أشعر كأني حيوان قاسٍ وفظٌّ يا غُرير! ما الذي تشعر به أنت؟»

رد الغُرير بحزن شديد: «يا ألله! أنا أتفهَّم تمامًا ما تشعر به! ولكن كان علينا فعل هذا على أي حال. سيعيش هذا الشاب الطيب هنا في هذا المكان وسيُدبر أموره بنفسه وسيفرض على الجميع احترامه. أتريد أن يكون أضحوكة بين الحيوانات، وتَهمِز حيوانات القاقم وابن عرس وتَلمِز كلما رأوه؟»

قال الفأر: «بالطبع لا! وبالحديث عن حيوانات ابن عرس؛ فيا له من حظٍّ سعيد أن نتعثَّر في ذاك الحيوان الصغير في طريقنا، وهو يهمُّ ليُوزع الدعوات التي خطها العُلجوم. بدأت الشكوك تُساورني مما أخبرتني به، فنظرت إلى دعوة أو دعوتين وكانتا ببساطة فضيحة بكل ما تحمله الكلمة من معنًى. صادرت الدعوات، وفي الوقت الحالي، يجلس الخُلد الطيب في الغرفة الزرقاء ويكتب الدعوات الجديدة.»

اقتربت ساعة المأدبة بعد طول انتظار، وكان العُلجوم، الذي انسحب إلى غرفة نومه وانزوى فيها بعد أن ترك صديقَيه، ما يزال يجلس هناك مهمومًا متفكرًا. كان يضع رأسه على كفه في قنوط غارقًا في تفكير عميق وطويل. بدأت ملامحه تصفو شيئًا فشيئًا وأخذت

ابتسامة ضعيفة تشق طريقًا طويلًا لتُرسَم على ثغره، ثم بدأ يضحك ضحكًا خفيفًا في خجل وتحفُّظ. بعد ذلك قام من مكانه وأغلق الباب وغطى النوافذ وواراها بالستائر ثم جمع كل كراسي الغرفة ورتَّبها في نصف دائرة واتخذ في وسطها مكانًا له ثم بدأ ينتفخ فخرًا وزهوًا. انحنى أمام الكراسي تحية لها، ثم تنحنحَ مرتَين وأطلق لنفسه العنان فصدح صوته بالغناء ليُمتِّع أسماع جمهوره الذي كانت عيناه تراه بجلاء:

أغنية العُلجوم القصيرة الأخيرة
عاد العُلجوم إلى الديار أخيرًا!
كان الصراخ والعويل يَنتشر
يصيح ذعرًا في الحظائر البقر
مَرابِط الخيل كذا المنازل
كأنما حلَّت بها النوازل
إذ عاد العُلجوم إلى الديار أخيرًا!
إذ عاد العُلجوم إلى الديار أخيرًا!
تهشَّم الزجاج والنوافذ
وكسَّر الأبوابَ صوتٌ نافذ
وكذا فتوات ابن عرسِ
فرُّوا وكان خطبُهم مُؤسِ
إذ عاد العُلجوم إلى الديار أخيرًا!
إذ عاد العُلجوم إلى الديار أخيرًا!
وكان للأبواق أصواتٌ علَت
ودندنات ساقَها الطبل انجلت
ولهجَ الجنود بالتحية
ودوَّت المدافع القوية
والسيارات عندما تسير
فالبوق قد يعلو به النفير
قد جاء العُلجوم المبجَّل البطل!
قد جاء العُلجوم المبجَّل البطل!
وصاح بالترحيب كلٌّ من حضر

بحيوانٍ كريم كلهم به افتخر
وحظيَ العُلجوم بالإكرام
فكان ذاك أعظم الأيام.

أنشد هذه الأغنية بصوتٍ جهورٍ وبسعادة غامرة وإلقاء معبِّر. وعندما انتهى، عاد الكَرَّة من جديد وأنشدها مرة أخرى.

ثم ملأ صدره بالهواء وتنفَّس الصعداء؛ كان نفَسًا عميقًا جدًّا.

غمس فرشاة شعره في إبريق الماء ثم فرق شعره من منتصف رأسه، فهذَّب كل نصف وسوَّاه ثم أرسله على جانبي رأسه. بعدها، فتح الباب وبدأ يهبط الدرج بهدوء ليُحييَ ضيوفه الذين علم أنهم يجتمعون في غرفة الرسم.

هللت جميع الحيوانات عندما تخطى باب الغرفة، ثم التفُّوا حوله ليُهنِّئوه وليُثنوا على شجاعته وحنكته وبراعته في القتال، لكن العُلجوم لم يزدْ في ردِّه عن ابتسامة ضعيفة ثم كان يقول هامسًا: «شكرًا جزيلًا!» أو يقول أحيانًا على سبيل التغيير: «أنا لا أستحقُّ كل هذا!» أما ثعلب الماء، الذي كان يقف على سجادة المدفأة يصف لثلَّة من الأصدقاء المعجَبين به كيف كان ليناور ويقاتل إن شهد تلك المعركة، ما إن رأى العُلجوم حتى حيَّاه بصيحة وقدِمَ باتجاهه ثم وضع ذراعه حول عنقه محاولًا أن يطوف به الغرفة في جولة احتفالية بالنصر، لكن العُلجوم تجاهَلَه بلُطف وعلق بلطف وهو يُخلِّص نفسه: «كان الغُرير هو الرأس المدبر، وتحمَّل الخُلد والفأر وطأة القتال وشدَّته. أما أنا فقد شاركت في القتال ولم أفعل إلا القليل.» بدت الدهشة على الحيوانات وانبهروا بهذا السلوك الذي لم يعهدُوه عن العُلجوم. وبينما انتقل العُلجوم من ضيف إلى آخر وهو يردُّ بردوده المتواضِعة والخجولة، كان يشعر أنه يستحوذ على اهتمام الجميع واستحسانهم.

كانت المأدبة شهية وموفقة؛ فقد انتقى الغُرير كل شيء على أحسن وجه وبأفضل جودة، وتخلَّلها الكثير من المسامرة والضحك والمزاح بين الحيوانات. ولكن خلال كل هذا، كان العُلجوم، جالسًا على كرسيه بالطبع، يميل برأسه ويهمس بكلام طيب ولطيف إلى الحيوانات إلى جواره. وكان يسترق النظر إلى الغُرير والفأر بين الفينة والأخرى، وكلما نظر إليهما وجدهما ينظر كلٌّ منهما إلى الآخر في ذهول فاغرًا العينين من الدهشة، فكان يُشعره ذلك بارتياح ورضًا عظيمَين. وبينما تمضي الأمسية، همست بعض الحيوانات الشابة، التي ما يزال عنفوان الحياة يسري في عروقها، إلى بعضها واشتكوا بأن الحفلة ليست مُمتعة كسابقتها من الحفلات في الماضي، ثم بدأت أصوات القرع على الطاولات

ترتفع وعلَت الهتافات وقالت: «عُلجوم! خطبة! ليُلقِ العُلجوم خطبة! لينشد أغنية! أغنية من نظم العُلجوم!» لكن العُلجوم هز رأسه بلطف ورفع كفه رافضًا بدماثة، ثم بدأ يشغل نفسه بأن يلحَّ على ضيوفه بأن يستزيدوا من الطعام الشهي، وبالمحادثات القصيرة والسؤال باهتمام والاطمئنان على أفراد عائلات الحيوانات الذين ما يزالون صغارًا ليَحضروا المناسبات الاجتماعية. وهكذا نجح في أن يوصل لضيوفه رسالة بأن هذا العشاء مُقامٌ وَفق نظام صارم.

لقد كان حقًّا عُلجومًا مختلفًا!

بعد أن انقضت هذه المأدبة، استكمل الحيوانات الأربعة حياتهم في سعادة غامرة وهناء بعد أن نغصتها وعكرت مجراها تلك الحرب الأهلية البائسة، فلم يقلقهم بعدها أي ثورة أو عدوان. واختار العُلجوم، بعد مشاورات وافية مع أصدقائه، قلادة ذهبية تُرصِّعُها حبات اللؤلؤ، وأرسلها إلى ابنة السجان مع خطاب حتى الغُرير أثنى على ما احتواه من تواضُع وشكر وعرفان بالجميل. ثم أتى دور مالك السيارة، الذي شكره شكرًا وافيًا وقدَّم له تعويضًا عن جميع المتاعب والأضرار. حتى المرأة صاحبة الزورق البخاري، بحث العُلجوم عنها بعد إلزام وإجبار شديدَين من الغُرير. وقد واجهته بعض المتاعب في بحثه عنها، لكنه وجدها وأعطاها قيمة الحصان؛ مع أنه اعترض بشدة على ذلك؛ فقد كان يرى أنه سبب من الأسباب التي سخَّرها الله لتُعاقَب امرأة بدينة ذات أيادٍ قذرة ولا تقدر على التعرُّف على سيد نبيل حين تراه. لم يكن المبلغ الذي دفعه ثمنًا باهظًا لقاء حصان؛ فقد أقر المثمنون المحليُّون أن تقدير الغجري كان أقرب شيء للصحة.

في ليالي الصيف الطويلة، من وقت لآخر، كان الأصدقاء الأربعة يذهبون معًا للتنزه في البراري التي رُوِّضت بنجاح الآن بالقدر الذي يرونه مُناسبًا؛ وكانت الحفاوة والاحترام اللذان يُحيِّيهم بهما سكان تلك البراري يشرح الصدر. وكانت الأمهات من حيوانات ابن عرس تنادين على أطفالهن وتقفن معهم على حافة الجحور وتُشِرن بأصابعهن وتقلْنَ لهم: «انظروا هناك يا صغاري! هذا هو السيد عُلجوم ذو المهابة! وذاك الذي يمشي معه، هو فأر الماء ذو القلب الشجاع والمُحارِب الجسور! وهناك ترى السيد خلد ذائع الصِّيت الذي تسمعون عنه كثيرًا في حكايات والدكم!» ولكن عندما يَعنِد أولادهنَّ ويخرجون عن السيطرة، كنَّ يُرهبنهم ويأمرنهم بأن يهدءوا ويُهذبوا من سلوكهم وإلا فسيأتي الغُرير الرمادي المُرعب ويأخذهم بعيدًا. كان ذلك تشويهًا وضيعًا لصورة الغُرير الذي رغم أنه لم يكن يهتم لأمر المجتمع إلا قليلًا، كان يُحبُّ الأطفال حبًّا جمًّا، لكن هذا الترهيب كان ينطلي على الأطفال في كل مرة كالسحر.

هنداوي